د. الحسينى الحسينى معدِّى
الأساطير الفارسية
أساطير العالم
كنوز
للنشر والتوزيع

سلسلة أساطير العالم

الأساطير الفارسية

سلسلة أساطير العالم
الأساطير الفارسية

المؤلف
د/ الحسينى الحسينى معدى

الإشراف العام
ياسر رمضان

الناشر
كنوز
للنشر والتوزيع
37 ش قصر النيل ـ القاهرة تليفون: 0127717795

التنفيذ الفنى

فور إتش للكمبيوتر

٠١٠٦٦٧٤٣٣٥

رقم الإيداع: ٢٢٨٢٩/ ٢٠٠٩

الترقيم الدولى: 977-5307-82-k

سلسلة أساطير العالم

الأساطير الفارسية

تأليف

د. الحسيني الحسيني معدى

كنوز

للنشر والتوزيع

مقدمة

فى أذهان بعض الناس أن الأساطير ليست سوى «حواديت» تروى حول «المدفأة» فى ليالى الشتاء الباردة، لا هدف من ورائها سوى التسلية والمتعة وقطع الوقت.. ويخطئ هؤلاء إذ يأخذون الأساطير على أنها خرافة فحسب، ليس فيها من الواقع أو الأهداف شىء سوى ما تضم من خيالات غريبة شاردة لا تصلح لغير الأطفال.

فما كانت الأساطير شيئًا من ذلك أبدًا، وإلا لما استطاعت قط أن تكون هى العمد الخالدة التى قامت عليها أركان الأدب العالمى، ولما أصبحت هى الجذور التى تفرعت منها هذه الألوان المتباينة من الآداب والفنون. فقد رافقت الأسطورة الإنسان منذ نشأته ولاتزال ترافقه. وفى كل أسطورة تتمثل عقائد أصحابها ومثلهم وعاداتهم، وتتضح نظرتهم وفلسفتهم فى الحياة، وهى تعطى فكرة كاملة عن الروح المتأصل فى هذه البلاد التى اتحدث فى صراعها العنيف من أجل الحرية، والخير، والسلام.

وما من أمة ارتفع شأنها أو هان، إلا ولها أساطيرها، وهى فى ألوانها - سواء كانت إلهية أو بطولية، أو غرامية، أو خلقية، أو فكاهية - إنما تمثل جزءًا ضخمًا من التراث القومى الذى يتلقاه الناس جيلاً بعد جيل، ويمتزج بنفوسهم حتى يصبح جانبًا حيويًا فى تكوينهم وحياتهم.

ولا شك أن كل هذه الأساطير قائمة على أساس من الحقيقة غير أن الخيال الإنسانى مع مر الأيام ألبس الحقيقة من الأوهام أردية جعلتها بعيدة عن المعقول، وإن تكن قريبة محببة إلى النفوس، ومع ذلك، فأغلب الأساطير يدور حول إنشاء حياة أفضل، وهى محاولات نشأت مع نشوء الإنسان، يفسر بها أهم المشاكل التى واجهته فى بدء حياته على الأرض وعلى رأسها مشكلة خلق الكون،

ويجتاز بوساطتها الهوة بين العالم الذى يعيش فيه والكون الغامض الذى يحيط به، ويحاول بها الوصول إلى معرفة سر القوى المسيطرة على العالم كله، ولماذا يقع الشر؟ وكيف ينتصر الخير؟

وبالرغم من أن الإنسان يظن نفسه قد تحرر اليوم من هذه المعادلات، إلا أنه فى خضم غروره، ينسى أن محاولاته الحالية للوصول إلى الكواكب، ومغالبة الفضاء ليست سوى محاولات أخرى متطورة لمعرفة أسرار الكون، وهى وإن كانت اليوم تبلغ ذروة ضخمة من ذرى الحضارة، إلا أنها لا تختلف فى شىء عما كان يملأ ذهن الإنسان القديم، بالقياس إلى المراحل الحضارية التى كان يعيش فيها ويترعرع بين أحضانها(١).

والإيرانيون من أكثر الشعوب التى تمتلك الأساطير، فقد هاجر الاريون من موطنهم الأصلى إلى إيران ومعهم الكثير من قصصهم ورواياتهم وأساطيرهم عن الأجداد الذين عاشوا معهم فى مكان واحد فى ربوع آسيا الوسطى، ثم دخلوا فى سلسلة من الحروب مع سكان الهضبة الإيرانية الأصليين.ومع المهاجمين المعتدين الذين هاجموهم بعد استقرارهم فى ربوع إيران، وعندئذ ظهرت القصص الجديدة عن الأبطال الذين ضحوا بأرواحهم فى هذه الحروب، وانطلق الخيال الشعبى فى اختلاق العجائب والغرائب والخوارق حول هؤلاء الأبطال وبطولاتهم، وانتقلت بهم هذه العجائب من جانب التاريخ إلى جانب الأسطورة مع إغفال البعدين الزمانى والمكانى، وحدث تغيير فى هذه الأساطير والقصص بمرور العصور والأزمان، وكان ذلك نتيجة التغييرات الفكرية والدينية وظروف البيئة المحيطة.

تراكمت القصص والأساطير الإيرانية وتزايدت ومرت عليها القرون إلى أن تكاملت وانتظمت وصارت معدة للتدوين، بدأ هذا قبل الإسلام، فى عهد الدولة الساسانية، حتى دونت الأفستا وغيرها من الكتب الدينية والحماسية بما تحتوى عليه من أساطير القوم، واستمر هذا الأمر إلى أن ظهرت حركة تعمل على جمع شتات هذه الأساطير وتنظيمها فى القرن الرابع الهجرى، وهو القرن الذى عادت

فيه القومية الإيرانية إلى الظهور، وعمل فيه الإيرانيون على إحياء تراثهم وتاريخهم القديم، فكتبت كتب الروايات والملاحم والأساطير المعروفة بالشاهنامات، أى كتب الملوك، والتى تتحدث عن تاريخ ملوكهم الأسطوريين. وأخيرًا، هذه بعض الأساطير التى انتشرت بين الفرس، وجاءت فى كتبهم، ونقلها عنهم المؤرخون والكتاب المسلمون وغيرهم، أقدمها للقارئ العربى عسى أن يجد فيها المتعة العقلية والخيال الإنسانى المحبب إلى النفس.

والخير أردت.. وعلى الله قصد السبيل.

د. الحسينى الحسينى معدّى

(١) سليمان مظهر: أساطير من الشرق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.

أساطير الخلق فى فارس

نوقش خلق العالم، من وجهة نظر الإيرانيين القدماء، بإسهاب كبير فى كتب البهلوية، وأكمل تقويم لذلك الخلق موجود فى الفصل الأول من كتاب «بونداهشن»، علاوة على مزيد من التفاصيل والروايات المختلفة فى نصوص أخرى.

ويقول البعض إن معرفة الخليقة الفارسية ونظام العالم جاءت إلى زردشت فى سبع رؤى، كان أولاها فى الثلاثين من عمر عندما جىء به أمام عرش أهورامزدا وحاوره وجهًا لوجه، ثم جاءت الرؤى الست الباقية خلال السنين العشر اللاحقة، حيث اكتمل دينه فى ختامها.

والتصور الفارسى لخلق العالم يتم عن خيال إبداعى يشبِّه المحسوس بالمعقول والمعقول بالمحسوس، كذلك يعبر هذا التصور عن نزعة الفرس إلى السرد القصصى وشغفهم بالمجاز المقصود منه شرح وإيضاح الحقائق أو ما يتصورون أنه حقائق.

وخلاصة النظرة الإيرانية القديمة لخلق العالم، كما تستفاد من «الأفستا Avesta» كتاب الزرادشتية المقدس، ومن الكتب البهلوية الأخرى، هى أن العالم ناشئ من أصلين هما النور والظلمة، وهذان الأصلان كانا فى نزاع معًا، كما كانا يتناوبان الانتصار والهزيمة فيما بينهما، ولذلك، فقد قسم العالم إلى قمسين: جيش النور أو الخير، وجيش الظلمة أو الشر، وعلى رأس قوى الخير أهورامزدا Ahuramazda، ويرأس جيش الشر أهريمن «Ahriman» أو «أنكرمينو»، ويساعد أهورامزدا ستة كائنات مجردة تعرف باسم «أمشن سبنتان»، أى القوى الخالدة المقدسة، والتى تقف أمام عرش أهورامزدا وتنفذ أوامره ويدبر العالم بواسطتهم، ويلى هؤلاء كائنات مجردة أخرى تسمى «يزت» وتختص بكل يوم من أيام الشهر واحد منها، وهى تنقسم إلى طبقتين: طبقة أرضية، كان أعظمها «زدشت»،

وطبقة سماوية على رأسها «أهورامزدا» نفسه، ثم يلى ذلك كائنات مجردة تعرف باسم «فروشى» - أى ملائكة، كل منها يحفظ الإنسان، ويكون لـ«أهريمن» جيش كذلك فى مواجهة جيش أهورامزدا، ويقال لمساعديه «ديو» - أى الشياطين، ففى مقابل القوى المقدسة الخالدة، يوجد ستة شياطين أو عفاريت، أما مخلوقات أهريمن، فهى الشر والكذب والطغيان والتكبر.

وتحكى «البوندا هشن» قصة الصراع بين أهورامزدا وأهريمن على النحو التالى:

كان أهورامزدا رفيعًا بالعلم المطلق والصلاح.. أما أهريمن البطىء المعرفة صاحب الرغبة فى الإضرار، فكان غائرًا فى أعماق الظلام.

وبينهما كان الفضاء.. وعرف أهورامزدا فى علمه المطلق أن الروح المدمر (أهريمن) موجود وأنه سوف يهاجم.. وسوف يختلط به.. (عرف) بأى الأدوات سوف يحقق هدفه وعددها، فكان أن شكّل فى صورة مثلى ذلك الخلق الذى يحتاج إليه أداة له، وظل الخلق ثلاثة آلاف عام على هذه الحالة المثلى.

أما الروح المدمر.. فكان على غير علم بوجود أهورامزدا، وعندئذ خرج من الأعماق وذهب إلى الحدود حيث ترى الأنوار، فلما رأى نور أهورامزدا غير ملموس تقدم مندفعًا.. وأسرع لتدميره، ولما رأى من الشجاعة والعلو فوق ما عنده فر عائدًا إلى الظلام حيث خلق كثيرًا من الشياطين.. ثم إذا بأهورامزدا.. يعرض السلام على الروح المدمر ويعد أن رفض العرض فكر أهورامزدا فى خطة يتجنب بها صراعًا لا آخر له، فاقترح فترة من تسعة آلاف عام، وذلك لأنه عرف أن ثلاثة آلاف (عام) ستمضى بأسرها وفق إرادة أهورامزدا وأن ثلاثة آلاف عام تمضى وفق إرادة كل من أهورامزدا وأهريمن، وأن فى المعركة الأخيرة سوف يجعل الروح المدمر عديم القوة، وفى هذه المرة وافق الروح المدمر بجهله على اقتراح أهورامزدا.. «كرجلين يقتتلان فى مبارزة يحددان شرطا (قائلين) دعنا فى يوم كذا نعترك حتى يجن الليل»، ويعبر عن أهورامزدا أحيانًا بالحكمة السماوية، ويرمز إليه فى الدنيا المادية بالعناصر الثلاثة: النار والماء والتراب، وجعلت النار الرمز الأقدس.

وهناك أكثر من رواية عن خلق الكون المادى تواترت إلينا عن المصادر البهلوية، ويظل نفس الفصل الأول من البونداهشن يقول بأنه بعد إبرام الاتفاق بين أهورامزدا وأهريمن، خلق أهورامزدا أولاً الأماهراسباندات (الشكل الأحدث للأمش سبنتان - أى القوة المقدسة الخالدة) وهى ستة أصلاً، سابعهم «أهورامزدا» نفسه، من الخلق المادى: (فخلق) أولاً السماء، وثانيًا الماء، وثالثًا الأرض، ورابعًا النباتات، وخامسًا الماشية، وسادسًا الإنسان، وكان السابع «أهورامزدا» نفسه، وخلق «أهورامزدا» الأنوار وجعلها بين السماوات والأرض: النجوم الثابتة والنجوم غير الثابتة، ثم القمر ثم الشمس، وبعد أن خلق كرة أولاً، ثبت النجوم الثابتة فيها وبخاصة الاثنى عشر برجًا، وعلى النجوم الثابتة عين أهورامزدا أربعة من القواد، وخلق أهورامزدا القمر، وفوق القمر خلق الشمس، وأقام الشمس والقمر لحكم النجوم، وبين الأرض والكرة السفلى، جعل أهورامزدا الرياح والسحب ونار البرق حتى يستطيع «تيشتريا» (نجم الشعرى اليمانية) أخذ وإرسال المطر.

وهناك قصص دينية كانت شائعة فى عصر الدولة الساسانية، تتعلق بخلق الأجرام السماوية، وتنسب هذه القصص خلق الأجرام السماوية إلى زواج أهورامزدا من أمه أو أخواته أو بناته.

وهناك نظرية فارسية أخرى للخلق تسمى «النظرية الزروانية». وتذكر هذه النظرية أن «زروان» يمثل فى صورة مزدوجة: فهو «زروان إكنارك»، أى الزمان السرمدى الأبدى، وهو «زروان ديرنك - خداى»، أى الزمان الطويل التسلط، أى السيد فى خلال فترة الاثنى عشر ألف سنة التى يحياها العالم، وجعلت القصة الدينية الشعبية من زروان - فى الأصل - كائنًا بين الذكر والأنثى، كما جعلت منه رواية أحدث أنثى اسمها «خوشيزك» - وهو تصغير لكلمة «خوش» بمعنى الجميل أو الطيب، ومن اتحاد «زروان» بـ«خوشيزك»، ولد التوأم «أهرمن»، و«أهورامزدا»، وكان أهريمن، أول المولدين، يملك السيادة على الدنيا من البداية، وفكرة تقدم عنصر الشر على عنصر الخير تعكس نظرية متشائمة تخالف طابع الزردشتية الأساسى.

أما عن خلق الإنسان فى الأساطير الفارسية، فتقول بعض القصص بأنه عندما

أتم أهورامـزدا خلق الأرض، خلق الثور الأول، ثم خلق الإنسان الأول «كيومـرد»، أو «جايومارت» الذى هو أول البشر. وعندئذ ألقى أهريمن بقوته ضد خلق أهورامزدا، فتجس العناصر وخلق طوائف من الزواحف والحشرات، وأقام أهورامزدا خندقًا أمام السماء، ولكن أهريمن كرر هجماته ونجح أخيرًا فى قتل الثور وكيومرد أول البشر. وكانت بذور كيومرد مخبأة فى الأرض، فنتج منها بعد انقضاء أربعين سنة شجرة خرج منها أول زوج من البشر، وهكذا بدأت فترة اختلاط الخير بالشر، وأخذ البشر يلعبون دورًا فى الحرب بين مملكتى النور والظلمات.

وقد اختلف فى معنى اسم «كيومرت» أو «كيومرد» فقد ذكر «كريستنسن» أن أصل الاسم فى «الأفستا» هو «كيا ـ مرتن» وهو يعنى «الحياة الفانية»، بينما يذكر «الشهر ستانى» أن الاسم يعنى «الحى الناطق».

ويبدو جايومارت فى الموقع السادس من قائمة خلق أهورامزدا:

«سادسًا سوى جايومارت متلألئًا كالشمس وكان ارتفاعه زهاء أربعة أذرع وعرضه مساويًا لارتفاعه». وهناك مصادر أحدث تورد صورة أوضح بكثير، ففيها يبدو جايومارت النموذج الأول للجنس البشرى، أما عن الزوج البشرى الأول، فتحكى بعض القصص أن «ماشيا»، «وماشياناج»، وهما أول زوج بشرى من ذكر وأنثى، قد نشأ من بذرة جايومارت بعد أن قتله أهريمن: «حين مضى جايومارت وأسقط بذرته.. فتلقت جزءًا (منها) ساندارمات (الأرض) وظلت أربعين عامًا فى الأرض، فلما انقضت السنون الأربعون، انبعثت ماشيا وماشياناج من الأرض فى هيئة نبات (رهو بارب)... ولما اتخذا الشكل الإنسانى، خاطبهما أهورامزدا: «أنتما بشر، أبوالعالم (و) أمه أديا عملكما وفق نظام حق وعقل كامل، فكرا وتكلما وافعلا ما هو صالح، لا تعبدا الشياطين».

وبالإضافة إلى ما سبق، تقول بعض القصص الفارسية الأخرى إن الإنسان خلق فى بادئ الأمر مكونًا من ذكر وأنثى متصلين من الخلف، ثم رأى الخالق أن يفصل أحدهما عن الآخر.

سقوط الإنسان والغواية

تقول أسطورة فارسية إن الذكر والأنثى اللذين نشآ من بذرة «جايومارت» (وهما «ماشيا»، و«ماشياناج») بعد أن قتله «أهريمن» قد عاشا لمدة خمسين سنة مستغنيين عن الطعام والشراب، ينعمان بحياتهما دون أية متاعب، حتى ظهر لهما «أهريمن» فى صورة شيخ هرم، فأتى على شجرة وأكل من ثمارها، فعاد شابا، وعندما اتبعه الزوج البشرى الأول بالأكل من ثمار نفس الشجرة، وقع فى البلايا والشرور.

ويذكر الفصل الثالث من كتاب «بونداهش» أن «أهريمن» تشكل بهيئة الحية وملأ الأرض والآفاق جميعها ثم نفث سمومه فى كل شىء موجود بين الأرض والسماء.

وقد وردت أقدم الخواطر عن السقوط فى قصة «يامه» التى تضمنتها كتب الزردشتية، وتحكى القصة أن «أهورامزدا» عهد إلى «يامه» بحراسة الحق، فاعتذر «يامه» لثقل المسئولية، فأرسله «أهورامزدا» إلى الأرض ومنحه الغلبة على الموت، ومن ثم فقد امتلأت الأرض بالمخلوقات التى لا تعرف الموت، فكان أن تكبر «يامه» وامتلأ زهوا، ووسوست له نفسه بأن يناظر الإله بمنعته من الموت، فلحق به الشر الذى جاء معه الموت، فجنى «يامه» على نفسه وعلى زمرته.

وعلاوة على ما سبق، هناك رواية سريانية قريبة الصلة بموضوع الغواية، وردت فى العقيدة الزورانية، يرويها الكاتب السريانى «تيردو بركونائى» (القرن الثامن أو التاسع الميلادى) ومضمون القصة أن «أهورامزدا» منح الأتقياء نساء، غير أنهن هربن، وذهبن إلى الشيطان «أهريمن»، وعندما منح أهورامزدا الأتقياء السعادة منح «أهريمن» السعادة للنساء وأذن لهن أن يطلبن ما يردن، فخشى

«أهورامزدا» أن يطلبن الاتصال بالرجال الأتقياء، فبحث عن وسيلة لإقصائهن، ومن ثم خلق الإله، نرسائي الذى يبلغ من العمر الخمسمائة من عمره، ووضعه عاريا خلف الشيطان لتراه النساء ويطلبنه، فرفعن أيديهن إلى الشيطان صائحات: ياأبانا الشيطان هب لنا الإله نرسائى.



مـزديسنا

كانت المعتقدات التى سادت فى المنطقة قد مدت الزرادشتية ببعض عناصرها الدينية، وتشكلت من خلال الموقف منها وإعادة بنائها، وسواء تبنت الزرادشتية بعض الرموز والطقوس التى كانت سائدة، أو رفضتها وحرمتها، فإنها قد لعبت دورا فى تبلور وتكون الزرادشتية؛ لأن زرادشت كشخصية تاريخية، يعتبر من جهة مصلحا لديانة أخلاقية تقليدية، أى تلك التى تقاسمتها الشعوب الهند وأوروبية فى الألفين الثانى والثالث قبل الميلاد، ولا ننسى تأثير الطقوس والأساطير البابلية والأكادية والآشورية والميتانية فى تكوين الزرادشتية.

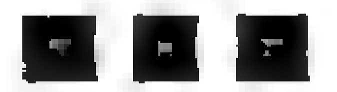
ورغم أن الغموض يكتنف ديانة الميديين والفرس قبل زرادشت، ولم تتشكل صورة متكاملة لدى الباحثين عن المعتقدات والآلهة القديمة التى سادت فى المناطق التى انبثقت وانتشرت فيها الزرادشتية، فإن المعطيات التاريخية الضئيلة تظهر العلاقة الوثيقة بين الزرادشتية والمعتقدات السابقة عليها، وقد كان هيرودوت هو الذى نقل دائما المعلومات الأهم التى تتعلق بإيرانى الشمال ومعتقداتهم وآلهتهم، وفى الأول السيت، فهناك إله السماء «بابايوس»، ميثرًا آريس إله الحرب، أورانيا، ووفقا للإشارات المتوافرة فإن الديانة القديمة للميديين والفرس كانت مبنية على تأليه العناصر الطبيعية، وعبادة قوى الطبيعة، ويقول هيرودوت إن الفرس يعبدون الشمس والقمر والنجوم والماء والأرض منذ زمن بعيد.

وكانت معتقدات الميديين والفرس، قبل ظهور زرادشت، تتمحور أيضًا حول عبادة الحيوانات والأجداد.. وكانت تصدر عن دين وثيق الصلة فيما اشتمل عليه من آلهة وتعاليم، بدين الهندوس فى العصر الفيدى، وأهم الآلة فى العصر السابق لزرادشت هو «ميثرا» إله الشمس، و«أناهيتا» آلهة الخصب والأرض.

ومن الجدير بالملاحظة أن الديو «كانوا يشكلون فى الفيدية مجمع الآلهة، وقد جرى قلب ذلك فى الزرادشتية، حيث اعتبرت الآزوراس هى الديو «الشياطين»، والآلهة ذوى الوظيفة المحارية أصبحت الديواس، بالإضافة إلى الآلهة التى جرى قلب أدوارها، فإن الكثير من الطقوس والشعائر والمقدسات كانت مشتركة بين الزرادشتيين والفيدية.

وكذلك نجد أن الكثير من الآلهة التى دمجت ضمن المنظومة الدينية الزرادشتية هى آلهة سادت لدى أكثر شعوب المنطقة ولاسيما لدى الميتانيين. وغير خاف أن الميتانيين كانوا يقدسون آلهة قدماء الآريين تقديسا كبيرا مثل «ايندرا»، و«أروانا»، و«آسوين» حيث كانوا يضعونها فى مراتب آلهتهم القومية، بالإضافة إلى أن أكثر القصص والمفاهيم الدينية الزرادشتية مستمدة من معتقدات شعوب المنطقة مثل قصة الخلق، والطوفان البابلى، وصراعات الآلهة والتنين رمز الموت والجدب، وتأثرت الإضافات اللاحقة التى جرى إضافتها إلى الزرادشتية بالأديان السماوية السائدة فى المنطقة. وكذلك، فقد اتسمت الزرادشتية بصيغة محلية حسب المنطقة التى اعتنقتها، فقد أظهرت الحفريات الأثرية وجود آلهة محلية قديمة إلى جانب قائمة المعبودات الزرادشتية، فنرى الصغد مثلا يعبدون إلهين آخرين هما «شيش» و«خشوم»؛ وكذلك «نانا» وهى ذات مصدر آسيوى غربى: الإله تهسيج وفى بارسيا أيضًا كان الناس يعبدون بالإضافة إلى المعبودات الزرادشتية الإله لاساسان..

إن ما تتميز به الزرادشتية هى أنها نفت التحديد الدورى للكون والحياة وأعلنت نهاية وحيدة فى خاتمة الدورة الكونية.



أهورا مــزدا

إنه الإله المطلق فى الثيولوجيا الزرادشتية، تفيض عنه جميع الموجودات، وهو يشغل فى الأناشيد المكان الأول، إنه طيب وقدوس «سبنتا» وقد أبدع الكون بالفكر، وهو يماثل الإبداع من العدم، وهو عبارة عن مجموعة السموات والأفلاك، ويكتسى بقبة السماء الزرقاء، جسده هو النور والجلالة الملكية، والشمس والقمر عيناه، إن أهورا مزدا عالم الغيب، حاضر فى كل مكان، وهو الواحد الخالق الكبير، هو الذات التى لا بداية لها ولا نهاية، هو الروح الرحمانية والقدرة الربانية هو المسبب الأول لكل الموجودات.

إن أهورا، معتبرًا كإله أعلى، أو ببساطة كرب كبير بين أرباب كثيرة أخرى، قد قدس فى الهضبة الإيرانية قبل زرادشت، ووجد هذا الاسم فى منقوشات الأخمينيين، وأصل كلمة أهورا مزدا (هرمز) هو تركيب من لفظين أهورا + مزدا فلفظ أهورا - آسورا وتعنى الكبير، كان اسما لآلهة من آلهة آريى الهند وإيران، أما لفظ مزدا فتعنى الحكيم والعاقل، والزوجات الطيبات لاهورا هن الحورانيس/المياه.

«عندما نلت رؤيتك بمنظار القلب يا أهورا، فأنت البداية وأنت النهاية، وأنت الواحد الجدير بالعبادة، أنت الروح الخيرة، وأنت الخالق الحقيقى للحق والاستقامة، أنت المدبر العادل لأمور الكون، لذلك أعطيتك مكانا فى ناظرى».

(يسنا ٣٥ - ٥)

وقد ورد أهورا مزدا فى الأفستا أحيانا بشكل مركب وأحيانا بشكل منفرد وله (١٠١) اسم، فهو: للائق بالعبادة، العالم المطلق، رب الأرباب، الأعلى، مسبب الأسباب، الفاضل.. وقد تأثر التصور القائم عن أهورا بإله الطقس الحورى

يتشوب واستمد منه رمزه الدينى والقرص المجنح».

«أبدأ باسم وحمد الذى كان ويكون وسوف يكون دائمًا - الإله واهب الخير الأحد فى العالم الروحى واسمه أهورا مزدا، الإله الكبير والعارف والعادل والمعلم والحامى والمنير والخير والواهب..» (خردة افستا / ستايش يكتابرستى).

«أن نضحى بأنفسنا فى سبيل أهورا مزدا الذى هو نفسه أفضل حقيقة، إننا نعرفه من أنفسنا، إننا نظنه من أنفسنا» (يسنا ٣٥ / ٥).

«أعبد وأحمد الإله الخير الذى خلق البشر أفضل من كل المخلوقات الدنيوية بواسطة النطق والبيان والذهن والعقل والعدل..» (خرده افستا).

إن أهورا مزدا هو أب لعدد من الجواهر «امشاسبندان» = الملائكة، وأب لأحد النفسين التوأمين اللتين اتخذتا واتبعتا على التوالى الحق: آشا والكذب: دروغ، أى أنه الأب للنفس الطاهرة القديسة، ولكن هذا يقتضى كذلك أنه ولد التوأم الآخر انكره مينو (أهريمن) من الأصل، وقد أكدت كاتها شهيرة (يسنا ٣٠) أن هاتين النفسين اختارت إحداهما الخير والحياة، والأخرى الشر والموت: «فى البداية كان الجوهران توأمين فى الفكر والقول والعمل، افترقا بين الأفضل والأسوأ، اختار ذوو الفكر الخير الصدق، لا ذوو الفكر السيئ».

ومن جهة أخرى، فإن الوحدة بين أهورا مزدا والروح الطاهرة، والروح القدوس مضمرة مرارا، حيث نلاحظ نوعا من التماهى والوحدة بينهما، وأحيانا أخرى نوعا من التوازى أو كإحدى مخلوقات أهورا مزدا، التى تفيض عنه، وعموما فإنها إحدى المظاهر الأهورا مزدية، وإجمالا فإن الخير والشر، المقدس والشيطان المخرب تفيض عن أهورا مزدا، ولكن بما أن أنكره مينو يعتبر مسئولاً عن الشر، فإن أهورا مزدا فى قدرته الكلية، كان على علم منذ البدء بما ستكون عليه الروح الشريرة، وبذلك نستطيع القول، إن ثيولوجيا زرادشت ليست ثنائية تعتمد على التقابل بين قطبين إلهيين، لذلك فإن التصور السائد عن وجود إلهين أحدهما للشر والآخر للخير هو الخاطئ، فبما أن أهورا مزدا ليس موجها بند

للإله، فإن المعارضة توضحت فى الأصل بين النفسين على المستوى الثانى، والسيناريوهات التى تصور الصراع بين الإله والشيطان هى إضافات لاحقة، إن أنكره مينو: تعنى حرفيا الروح المهلكة ولم يذكر أنكره مينو (أهريمن) أبدًا فى الأفستا كإله وحتى لم يكن له وجود خارجى حتى يعطى له مقام الشر.

أما حسب الفصل الأول من البندهش، فإن أهورا مزدا وانكره مبنو يوجدان منذ الأزل ولكن فى حين أن أهورا مزدا غير محدود فى الزمن إنما هو محدود بأهريمن فى المكان، وأهريمن هو محدود فى المكان كما هو محدود فى الزمان، لأنه فترة ما سينقطع عن الوجود، بعبارة أخرى أن الإله، فى المزدية، هو أصلاً محدود لأنه محاط بأهريمن، وهذا الوضع سيستمر إلى الأبد إذا لم يهاجم أهريمن.

أما سبنتامينو وانكره مينو فهما عموما تجسيدين للصفات والقيم الخيرة والشريرة، ورغم التناقض القائم بينهما، فإن الأصل ما جاء به زرادشت هو قريب المشابهة بمذهب الوحيد أى يماثل إلى حد ما، الإبليس فى الإسلام، «سبنتامينو يعلن للروح الخبيثة فى بداية الوجود، لا أفكارنا ولا نظرياتنا، ولا قوانا العقلية، ولا خياراتنا، ولا أقوالنا، ولامشاعرنا، ولا أرواحنا على وفاق» (يسنا ٤٥ - ٢).

الأمشا سبندان:

تحيط باهورا مزدا مجموعة من الكائنات الإلهية، تقف فى حضرته، تنفذ أوامره، وهو يحكم الدنيا بواسطة هؤلاء وكل واحد موكل بحماية عنصر من عناصر الطبيعة والطبقة الأولى من هذه الكائنات الإلهية تدعى «لامشاسبندان» أى «الخالدون المقدسون» وعددها ست ملائكة ورغم أن لها تجسيدات إلا أنها تعتبر كمظاهر للصفات الأهورامزدية، فهى ليست آلهة مستقلة توازى الإله الرئيس «أهورامزدا» أو تعتبر كآلهة من درجة أدنى، إنها تجليات القدرات الإلهية وأسماؤه العديدة، حيث يمكن اعتبارها مثل حديقة فيها ستة طرق تنتهى كلها إلى نقطة واحدة، ورغم أن هذه الطرق تبدو متعددة، إلا أنها فى الحقيقة واحدة

تصدر من النبع الأزلى إلى الشارب الأبدى، وهكذا نصادف فى فروروين يشت فى فقرات يشت ٨٠ و٨٤ ما معناه:

«إن الملائكة تفكر بشكل متماثل، وتتحدث بشكل متماثل، وتتصرف بشكل متماثل، وهم أشخاص نواياهم واحدة، وأعمالهم واحدة، كلامهم واحد، أشخاص أبوهم واحد وقائدهم واحد وهو الخالق أهورا مزدا».

وهم على التوالى:

١. **وهومنو (بهمن)**: ويعنى؛ الروح الخيرة، العقل الخير، روح الطبيعة الخيرة، وهو الذى أوحى لزرادشت الأناشيد، اتخذ فى البداية موقعا متقدما كرئيس للملائكة الستة، ومن ثم دفع إلى موقع تابع لتتقدم عليه «اشا» وكان «وهومنو» اسم اليوم الثانى والشهر الحادى عشر.

٢. **آشا (ارديبهشت)**: وقد ذكرت أحيانًا بإضافة صفة إليها «آشاوهيشتا» وتعنى الروح الحق، الدين الحق، الصدق والاستقامة، وقد تقدمت فى اليسنا ذات الفصول السبعة (٣٥ – ٤٢).

«آشا تعنى الآن أكثر من حقيقة، عدالة، نظام» ويعلن اتحاد الرب مع الحقيقة إلى الأبد»، آشا تجسيد لبنيو كونية وروحية معا ويسمى «الأكثر عطفا، الحسن، الخالد واقع من نور» (يسنا ٣٧ – ٤)، وآشا وهيشتا موكل على النار، وهو اسم اليوم الثالث والشهر الثانى لدى الزرادشتيين.

٣. **وهو خشترا (شهريور)**: أى روح القدرة الإلهية الكاملة، والسلطة والجبروت الربانى، وهو موكل على المعادن، ويطلق اسمه على اليوم الرابع والشهر السادس، ويترجم أحيانًا إلى الدار العليا السماوية = الجنة.

٤. **سبنتا آرميتى (سبندارمذ)**: أى روح الخير والطاعة والتقوى والورع والمحبة وهو موكل بالأرض، ويطلق اسمه على اليوم الخامس والشهر الثانى عشر وفى الأناشيد يفهم من كلمة آرميتى معنى الإرادة أحيانًا.

٥. **هروتات (خرداد):** روح الكمال والسعادة والصحة، ويطلق اسمه على اليوم السادس والشهر الثالث، موكل على المياه.

٦. **امرتات (امرداد):** روح ومظهر الخلود الإلهى، والأبدية ودار الخلود، وهو موكل على النباتات ويطلق اسمه على اليوم السابع والشهر الخامس، ويذكر دائما اسمه مع هروتات، فهما يترافقان دائمًا وعلاقتهما متينة مثل علاقة المياه والنبات.

«وعرفتك طاهرا، يامزدا، عندما أتى نحوى بهمن، وكى يخبرنى علمنى توشنا مئيتى الأفضل: يجب ألا نسبب الرضى لاتباع الكذب أو نعذب عبدة الحق» (يسنا ٤٣ ـ ١٥).

«من يملك النية والفعل والقول الأفضل تجاه سبندمينو ودين الحق، يكون ثوابنا الذى يهبنا إياه مزداهورا هو الكمال والخلود وكذلك القدرة والتقوى» (يسنا ٤٧ ـ ١).

«أين هو عونك، يا ارديبهشت أين هو عونك يابهمن، لأجلى أنا زرادشت أطلب العون؟ أدعو الخلق بالحمد لكم، يامزدا أهورا، اغفر لى، غفرانكم هو الشىء الأفضل» (يسنا ٤٩ ـ ١٢).

يازاتا = ايزد:

فى الكاتات نجد أهورا مزدا يتربع وحيدًا على عرش الألوهية، أما فى الأفستا الحديثة والنقوش المسمارية للإخمينيين فإننا نلاحظ آلهة أخرى إلى جانب أهورامزدا مثل مثرا (مهر)، وآناهيتا، وأصلا، فإنها مجموعة من الملائكة ذات الدرجة الثانية، حيث تلى الامشا سبندان، ولكنها أعطيت مكانة مرموقة ورفعت إلى مصاف الألوهية إلى جانب أهورا مزدا، فقد ورد فى الأفستا أن مزدا كان محدود السلطان «زمنا ما»، وكان يلتمس العون من الملائكة الأخرى، ويستعين بها على أهريمن – أنكره مينو – خصمه، ويشكر للملائكة هذا الصنيع، إذ إنه بعد وقت متأخر وبدقة، بدءا من نقوش أردشير الثانى ظهر ميثرا، وأناهيتا إلى جانب أهورا مزدا، وعلى ذلك سنرى توليفة مشابهة قد ظهرت فى

الأفستا المتأخرة حيث إن ذات الأسماء للملائكة قد ذكرت إلى جانب أهورا مزدا والأمشاسبندان، ميثرا: (مهر) هو ملاك العقود والمواثيق والموعود بعبادته، فالمؤمن يرتبط بأن لا يفسخ العقود والمواثيق إطلاقا، ولكنه، أيضًا إله الحرب، يبدو عنيفا قاضيا يذبح الشياطين بثورة عنف والكفرة يقتلهم بدبوسه «فاذرا» هناك خط يجعله شبيها باندرا في الفيدا. إنه كذلك إله شمسي يشارك بالنور، له ألف أذن وعشرة آلاف عين، المتبصر الشامل الذي يضمن الخصب للحقول والقطعان ويحمي المؤمنين ليلا، وقد أنشأ له أهورا والأمشاسبندان بيتًا في جبل هارا ـ البرزيتي وأصبح هذا الإله، فيما بعد، المعبود الأول في العقيدة الميثرية التي انتشرت انتشارًا لا مثيل له.

ـ المهريشت: النشيد الطويل على شرف ميثرا:

«يعلن أهورا مزدا؛ عندما خلقت ميثرا ذا المراعي الواسعة، صنعته أيضًا جديرًا بالإجلال والإكبار مثل ذاتي ـ ينتهي النشيد بهذه الكلمات: بالنبات برسوم نعبد ميثرا وأهورا الجيدين ربين للحقيقة، الخالصين أبديا من الفساد، نعبد النجوم، القمر، الشمس، نعبد ميثرا رب كل البلاد».

ـ وفي مهرنيايش خرده افستا:

«نحمد الملاك مهر صاحب السهول الفسيحة، ذا القول الصادق، المشهور، صاحب ألف أذن، جميل البدن صاحب ألف عين، العالي المرتفع، البصير، القوي، اليقظ ونظير الساهر ـ نحمد مهر المحيط بكل البلاد ـ نحمد مهر الذي داخل البلاد ـ نحمد مهر الذي هو خارج البلاد ـ نحمد الملاك مهر واهورا العظيم، الخالدين والطاهرين..».

كذلك يضحي أهورا مزدا لآناهيتا ويرجوها «أن تمنحه هذا الإحسان، لا حث التقي زرادشت ليفكر، ويتكلم، حسب الدين الجيد» (يخت ٥٠ ، ١٧-١٩) وآنا هيتا هي ملاك الخصب والمياه وهي تحيط بكل أتباع مزديسنا، وتحسبها وكأنها سور يحيط بالقطيع، لها ألف حوض وألف قناة، تخصب بها الأرض

ويؤتى أكلها، وتعنى الطهارة والعفة والتقوى، وتقابل أفروديت لدى الإغريق واسمها يعنى التى ليس فيها عيبًا أو نقصًا أو قذارة، وقد خصصت إحدى اليشتات (ابانيشت) فى وصفها وتعريفها، واسمها الاسم الكامل هو اردويسور اناهيت. ففى الفقرة الأولى من (أبان يشت) نجد أهورا مزدا يقول لنبيه زرادشت «يازرادشت اسبنتمان: مجد من أجلى اردويسور اناهيت هذه، إنها تلك التى تمتد فى كل مكان، تهب الدواء لأعداء الشياطين والمؤمنين بالعقيدة الأهورائية، الجديرة بأن تمجد فى العالم المادى، وقمينة بأن تسبح فيه، إنها المقدسة التى تبارك الأرواح والقطعان والثروة والمملكة».

وفى الفقرة الثانية: «إنها التى تطهر نطف الرجال، وتطهر مشيمات النساء من أجل الولادة إنها تيسر وضع الحوامل»، وهى فى صورة المياه السماوية، وهى امرأة شابة جميلة بيدها أعنة أربعة هى: الريح والسحاب والمطر والندى.

وإضافة إلى ذلك فإن الرب الحكيم يضحى لفايو (ويطلق اسمه فى اليوم الثانى والعشرين من الشهر) ويرجوه أن يمنحه هذا الإحسان «أن يستطيع قتل خلائق أنكره مينو» وكذلك نلاحظ عبادة الهاوما:

«نعبد الهاوما الذهبى، نعبد الهاوما المنير الذى أغنى الحياة، نمجد الهاوما الذى سيهرب الموت منه» (يسنا ٤٢ – ٥).

إن هذا التمجيد لهاوما قد فسر كدليل لتوفيقية، تاليه لموت زرادشت، بين ديانة النبى والديانة التقليدية.

وبالإضافة إلى الأسماء التى ذكرناها من ملائكة الدرجة الثانية (يازاتا = ايزد) وردت أسماء أخرى بين ثنايا الكتب الدينية الزرادشتية منها: تشتره وهو تشخيص (للشعرى اليمانى):

ينتحب تشتره؛ لأنه لم ينجح فى قهر الشيطان الذى احتجز المياه، وهدد بخراب كل الخليقة ـ لأن البشر تجاهلوه فى شعائرهم، عندئذ يدعم أهورا مزدا تشتره، وذلك بأن يقدم له أضحية (يسنا) وكنتيجة يخرج هذا منتصرا من

المعركة ضد الشياطين ويضمن الخصب للأرض: تروى الحكاية أن الملاك تشتره كلما حاول النزول مرة على هيئة فتى فى الخامسة عشرة من عمره، وأخرى على هيئة ثور ذهبى القرن أو جواد ذهبى بأذن ذهبية وعينين من ذهب، اعترضه «أبوش» عفريت الجفاف، إلى أن يهب النسيم السرمدى من ناحية أهورا، ويدفع المياه إلى أقصى مكان فى الأرض، وأوجد من تلك المياه بحرًا محيطًا فى أرض الآريين، نزل تشتره مرة أخرى على هيئة جواد أبيض وتصدى له العفريت على هيئة جواد أسود، أبتر الذيل بلا عرف، مقطوع الأذن، دار الصراع ثلاثة أيام، يغلب تشتره على مره ويرميه فى المحيط ويسيطر الجفاف.. فيبدأ النجم بالنحيب والشكوى، ويطلب الصلوات له

نحن نعبد تشتره

النجم المضىء ذا الجلال والبهاء

الذى يحن إليه الماء

لأن النجم يجلب المطر

وهذا النجم المسمى تشتره يمضى فى الفلك

كأنه سهم منطلق فى فضاء السماء

وهو يحمى ارخشيا

رأس حماة الآريين

من جبل اريو شون إلى جبل فونوانت.

وهذا النجم مع ثلاثة نجوم أخرى تحتل مركزا جليلا فى المزدية تعتبر كملائكة فقد اختار أهورا أربعة نجوم وأمرها على النجوم والكواكب الأخرى، وعين تشتره على المشرق وسدويس على الجنوب و«تند» على المغرب وهفت أورنك على الشمال، وربط الأقاليم السبعة بحبل يتصل به، واختار النجم القطبى قائدا عاما.

وهناك سروش: الملاك الذى عرف فى الكتب الفهلوية باسم جبرائيل، ويطلق اسمه على اليوم السابع عشر من الشهر، وهو أحد الثلاثة الذين يحاسبون الناس يوم القيامة.

راشنو: وهو مظهر العدالة والحق يطلق اسمه على اليوم الثامن عشر ويرافق ميثرا وسروش فى محاسبة الناس فى الآخرة.

ومن ملائكة هذه المرتبة هناك أيضًا: أرشتات (اشتاد) ملاك الحق والعدل والقانون ويطلق اسمه على اليوم الخامس والعشرين. وفرترغنه (بهرام) وتعنى قاتل التنين وهو ملاك الفتح والنصر وآبا (آبان) الملاك الموكل بالحياة ويطلق اسمه على اليوم التاسع عشر والشهر الثامن، وآتر وهو الملاك الموكل بالنار ويطلق اسمه على اليوم التاسع والشهر التاسع، وآم، ونيريوسنكك.. ونجد أن أسماء الإله والملائكة قد أطلقت على الأيام والأشهر وهى لدى الزرادشتيين كالتالى:

أسماء الأيام: هرمزد - بهمن - أرديبهشت - شهر يور - سفندارمذ - خرداد - امرداد - ديبار - آدر - آبان - خيرماه - تير - كوش - ديمهر - مهر - سروش - رش - فروردين - ورهرام - رام - باد - ديبدين - دين - ارد - اشتاد - آسمان - زاميا - مانترسفيد - انارام.

وإذا أضعنا الأسماء التالية:

هوم - برز - نيريوسنكك، يكتمل عدد الملائكة.

ـ الفرافاشى:

بالإضافة إلى الملائكة توجد فى الثيولوجيا الزرادشتية مجموعة أخرى من الكائنات وعددها كبير جدا وهى الأرواح المجردة، التى تتولى حراسة ورعاية كل رجل وامرأة وطفل من المؤمنين، والفرافاشى هى أرواح العادلين المؤمنين، وفى ذات الوقت نماذجهم السماوية لكونهم أرواحًا تحرس المؤمنين فإنهم يصارعون تجسد الشر، والمصادر المتأخرة تصورهم كفرسان مسلحين حامين للسماء

والصورة المعقدة للفرافاشى تبدو عملية طويلة فى التوفيقية الدينية، ومن ذلك، تصريح أهورامزدا بأنه لولا المساعدة المقدمة من الفرفاشى Faravashes التى هى الأرواح الما قبل وجود البشرية - لكانت البشرية والحيوانات قد انقرضت، وكان العالم المادى عرضة للسقوط تحت سلطة الكذب.

والأبيات التالية تقرأ فى حفلات دينية معينة:

نحن عبدة الفرافاشى جميع المعلمين وتلامذتهم المقدسين.

نحن عبدة الفرافاشى كل رجل وامرأة من الطاهرين.

نحن عبدة الفرافاشى الصغار والقرويين الناسكين.

نحن عبدة الفرافاشى الرجال من غير القرويين.

نحن عبدة الفرافاشى جميع الرجال والنساء المؤمنين.

نحن عبدة الفرافاشى كل تقى وكمى وسخى من جايرمارت ساووشيان

إن الفرافاشى موجودة لدى كل مؤمن وعادل ويوم يموت المرء تعود هذه الروح التى هى من ذرات النور الإلهى إلى مقرها العلوى، وهى تتميز عن روح الإنسان، بأنها لا تقدم حسابا عن أعمالها؛ لأنها طاهرة وترشد المؤمن إلى طريق الحق والصواب.

■ ■ ■

جيومـارت Gayamartan

مشيا ومشيانة: «Martiya Marata» «مرتيه - مرته» فى الأفستية.

إن جيومارت هو ابن أهورامزدا وسنفدارمذ «الأرض» وكعمالقة أسطورية أخرى، له شكل دائرى و«يلمع» كالشمس وهو مخلوق من النار، وقد أرسل أهورا عام النوم المريح كى يخفف آذى أهريمن على كيومرت، وعندما استيقظ وجد الدنيا مظلمة والشمس والقمر فى هياج وقد بعث أهريمن فحل العفاريت استويدات على رأس ألف منها للقضاء على كيومرت، وتوفى بعد أن قاومهم (٣٠) عامًا، وعندما يتوفى تنبثق المعادن من جسده، ومنيه مطهر بنور الشمس، ثلث منه يسقط على الأرض فينتج منه عشبة الراوند، حيث يتولد أول زوج بشرى «مشيا ومشيانة» وبعبارة أخرى أن الزوج الأولى تولد من الجد الأسطورى جيومارت ومن الأرض الأم «آرميتى»، وشكلها الأول نباتى وهذا مبدأ أسطورى منتشر فى أنحاء عديدة من العالم، وقد أمرهما الإله أهورامزدا بفعل الخير، وعدم عبادة الشياطين، وبالامتناع عن الطعام، وفى الواقع أن مشيا ومشيانة قد أعلنا أهورامزدا كخالق، ولكنهما خضعا لإغواء أهريمن وصرحا بأنه خالق الأرض، والماء والنبات، وبسبب هذا «الكذب» أدين الزوجان وبقيت روحهما فى الجحيم حتى البعث، وخلال ثلاثين يومًا عاشا بدون طعام، ولكنهما رضعا بعدئذ لبن عنزة، وتظاهرا بعدم الرضى، وكانت تلك كذبة ثانية، لعبت دورًا فى تقوية الشياطين، ويمكن تفسير هذا المشهد الأسطورى بطريقتين توضحان:

(١) - إثم الكذب، أو (٢) - إثم الأكل، أى إقامة الشرط البشرى، إذ إن الزوجين البشريين الأولين لم يكن لهما حاجة للطعام، وفى نهاية الزمن سيقلع البشر عن عادة الأكل، وبعد ثلاثين يومًا أيضًا، ذبح «مشيا ومشيانة» رأسا من القطيع وشوياه، وقدما جزءًا للنار وآخر للإله، بطرحه فى الهواء، ولكن نسرًا

رفع هذا الجزء، وبعد وقت قصير أكل كلب القطعة الأولى من اللحم، وهذا ما يمكن أن يعنى أن الإله لم يقبل التقدمة، ولكن أيضًا، أن الإنسان يجب أن لا يكون آكل لحوم، وخلال خمسين عامًا، لم يكن لمشيا ومشيانة، أى رغبة جنسية، ولكنهما تزوجا، وولد لهما توأمان لطيفان، لدرجة أن الأم افترست واحدًا، والأب الآخر، عندئذ حرم أهورامزدا أكل لحوم الأولاد، لكى يبقى آباؤهم منذئذ على حياتهم، وفيما بعد حصل مشيا ومشيانة على أزواج أخرى من التوائم، التى أصبحت أجداد كل الأعراق البشرية.

إن أسطورة جيومارت (حسب الأفستا «كايا مارتيان» وتعنى حياة فانية أو الثور والإنسان، حيث نجد الرسوم القديمة فى الألف الثالث ق.م تبين لنا كائنًا مركبًا من نصف علوى لإنسان وسفلى لثور، ربما تأثرت بها الزرادشتية؛ لأن الثور الأولى والإنسان قد خلقا فى آن واحد هى ذات دلالة رفيعة لتحقيق عمل اللاهوتيين الزرادشتيين فى إعادة شروحهم للميثولوجيا التقليدية، ومثل Yimy وبوروشا فإن جيومارت هو شكل إنسانى عملاق، بدئى وخنثى، ولكن إخضاعه للموت قيم بشكل مختلف، فليست كلية العالم تمامًا هى التى خلقت من جسده، وإنما المعادن فقط، أو بعبارة أخرى: الأجرام، ومن منيه المطهر بنور الشمس نبتت عشبة الراوند التى حملت أول زوج بشرى، كما ذكرنا، وكما أن آدم قد منح فى آن واحد صفات كونية وفضائل روحية بارزة، كذلك جيومارت قد رفع إلى مركز استثنائى فى التاريخ المزدى المقدس، يصنف بالقرب من زرادشت وساوشيان. والواقع أن جيومارت فى الخليقة المادية كيتيك هو أول من يتلقى الكشف للديانة الجيدة، ديانة مزديسنا، وبما أنه عاش ٣٠ عامًا تحت ضغط أهريمن فيمكن له أن ينقل الكشف إلى مشيا ومشيانة للذين أوصلاه إلى أبنائهما، وتعلن الثيولوجيا الزرادشتية جيومارت، وكأنه الإنسان الكامل العادل بامتياز، وأنه المساوى لزرادشت وساوشيان، وأن الإنسان كان تمامًا مثل جيومارت، طبيًا وموهوبًا بروح وجسد، وإن الموت أدخل إلى العالم المادى من قبل أهريمن على أثر خطيئة الأجداد نتيجة المعصية، ولم يصنع الجسد من الظلمات

وإنما من مادة الروح ذاتها، وفى الأصل كان الجسد وضاءًا ومعطرًا ولكن الشبق جعله نتنا، ومع ذلك، وبعد الدينونة الأخروية ستجد الروح جسدًا مبعوثًا وماجدًا.

ساووشيان: (المنقذ)

قامت الثيولوجيا الزرادشتية على أمل التغيير الوشيك الوقوع للعالم (فرازو كيريتى) وكما ذكرنا، فإن دور الإنسان يتحدد بالقيام بدور فاعل فى هذا التغيير، من خلال المساهمة فى التغلب على الشر الاهريمنى، وبذلك تعضيد الإله فى النصر الإلهى، لأن أهورامزدا خلق البشرية للتغلب على الشر الاهريمنى.

«أنستطيع أن نكون من أولئك الذين يجدون هذا الوجود؟» (يسنا ٣٠ ـ ٩) وبذلك يكون الزمان الخطى موجودا لدى الزرادشتيين. بحيث يعد الإنسان فى الزمن، لأخروية متفائلة تعلن الانتصار للخير والسلام العالمى، وتبعث الأجساد كمبدأ سائد، وبذلك أنكر زرادشت، السيناريو القديم الذى ينشد التجدد السنوى للعالم، وأعلن تغييرًا جذريًا نهائيًا منجزًا مرة واحدة وللجميع والمقررة من قبل أهورامزدا، وبذلك تلغى الأيديولوجيا القديمة لدورة كونية مجددة، ويعلن لأخروية عاجلة الوقوع لا مرد لها، والتجديد سيحصل بإرادة أهورامزدا. إن زرادشت يعلن مرارا عن نفسه بأنه ساووشيان أى منقذًا للبشرية.

سيولد ساووشيان من عذراء ستطفو فى بحيرة كاسنويا، وستحفظ موجات البحيرة فى زرادشت، وأن التجديد النهائى «فرازو - كيريتى» سيحصل على أثر تضحية منجزة من ساووشيان، تصف الكتب الفهلوية بإسهاب التفاصيل المتعلقة بهذه النهاية الدراماتيكية للدورة الكونية.

بدئيا، وخلال السنين الثلاثة آلاف الأخيرة، سيمتنع البشر تباعا عن أكل اللحم، وعن اللبن والنبات، لكى لا يتغذوا سوى بالماء، وحسب البند هش، إن هذا ما سيحصل بدقة للشيوخ المقتربين من نهايتهم، وبالفعل وبهدف الغائها، تعاود الأخروية أخذ أعمال وحركات الأجداد، ولأجل هذا فإن الشيطان آزو AZO

(الطمع الذى لم يعد له سلطة على البشر) سيكون مكرها على افتراس الشياطين ولقتل ثور بدئى من قبل أهريمن، يناسب التضحية الأخروية لثور هاذايوس Hathayos المنجزة من قبل ساووشيان وأهورامزدا، والشراب المحضر من شحمه أو نخاعه الشوكى، المخلوط بالهاوما البيضاء، سيجعل البشر المبعوثين خالدين، وبصفته الإنسان الأول، فإن جيومارت سيكون المبعوث الأول، والمعارك التى حصلت على البدء ستعاد: التنين آرى دهاكه سيعاود الظهور ويطالب ببعث تريتونه (أفريدون) الذى كان غلبه فى بداية الزمن.. وفى المعركة النهائية سيتواجه الجيشان، لكل محارب خصمه المحدد.. وأهريمن وآزو آخر من يسقط تحت ضربات أهورامزدا وسروش.

وحسب بعض المصادر فإن أهريمن، قد تراجع دوما لعدم قدرته، وحسب غيرها، أنه أعيد دفعه فى الثقب الذى دخل منه إلى العالم، أو أنه تلاشى، وقد سال حريق جبال وأهرق المعادن من الجبال، وفى هذا النهر من النار، المحرقة بالنسبة للأشقياء، والمشابه للحليب الساخن بالنسبة للعادلين والمؤمنين، تتطهر الأجساد المبعوثة خلال ثلاثة أيام، وينتهى الحريق بإزالة الجبال، وتمتلئ الوديان، والفتحات التى توصل مع الجحيم ستغلق والأرض المسطحة هى الصورة لعالم فردوسى أولى كما هو أخروى، وبعد التجدد فإن البشر الناجين من خطر الخطيئة سيبعثون أبديًا متمتعين بالسعادات التى هى جسدية وروحية معًا.

■ ■ ■

الأبطال الأسطوريون

خلال الثلاثة آلاف سنة، التى تفصل مقتل جيومارت وانبثاق الزوج الأول مشيا ومشيانة عن ظهور زرادشت، وجدت سلسلة من ملكيات أسطورية، والتى يبدو أن أكثرها شهرة هو «بيما بن فيفهانت» مؤسس الحضارة وأول إنسان ناجى أهورامزدا، وحكم العالم ألفا من السنين، وهناك أيضاً «سئيريمه»، و«سئتامرو»، و«كرساسبه»، و«كوى اوسن».

فى عهد بيما «يمه خشئيته» (الذى ورد فى الشاهنامة للفردوسى تحت اسم جمشيد خامس ملوك البيشداديين، وهى الأسرة الحاكمة الأولى فى تاريخ إيران)، وخلال ألف عام لم يكن يوجد الموت والألم، واستمر الناس شبابا، ولكن عندما بدأ «بيما» يتحدث بالأكاذيب فإن (الكزافرناه) الملكية الخاصة به قد هجرته، وفى آخر المطاف فقد الخلود أيضًا.

بينما كان زرادشت يقدس النار ويتلو الكاتات تقرب منه الهاوما ودعاه لقطافه،وبالسؤال منه علم النبى أن فيفهانت كان أول من عصر الهاوما، وحصل كمكافأة على ولادة ابن هو الملك Yima الأكثر تدينا بين البشر، وأن بيما هذا كان قد أنبأه أهورامزدا عن الطوفان (وهى حكاية مماثلة لطوفان نوح، والطوفان البابلى الذى نال بعده أوثانا بشتم الخلود): بأن شتاء قاسيا لمدة ثلاث سنوات، سيتلف كل حياة على الأرض، وطلب أهورامزدا من بيما، أن يقوم بإنشاء مكان مسور (فارا) وفيه سينقذ حياة البشر الخيرين، وبذورا من كل نوع من أنواع الحيوانات، وجرى تخيل الفارا وكأنه مستقر تحت الأرض وهى قلعة مربعة يوقد فيها النار، وتتألف من ثلاثة طوابق، يضع فى الأعلى بذور ألف رجل وامرأة، وفى الوسط بذور ستمائة رجل وامرأة، والأسفل ثلاثمائة رجل وامرأة وعلم الممرات بحلقات من ذهب، وأرسل أهورا قائد الطيور «كرشيت» كى يحمل دين

أهورا مزدا إلى القاطنين هناك، كانت الشمس والنجوم تظهر كل عام مرة واحدة، فيبدو العام كيوم واحد في نظر القاطنين.

أما «تريتئونه» وهو الذى ورد اسمه فى الشاهنامه «فريدون» ورويت من قبل الفردوس كصراع بينه وبين مغتصب أجنبى، التنين أزى دهاك (الضحاك)، الذى كان قد أسر وتزوج شقيقتى الملك الشرعى جمشيد، وتقسيم فريدون مملكته بين أولاده الثلاثة.

١- بينما كان زرادشت قائما على ناره يشعلها

ومكبا على أناشيد الكاثا يرتلها

مضى إليه هاوما فى السحر

فقال زرادشت: من أنت أيها الإنسان؟

ياأجمل من شاهدته عينان

على وجه هذه الدنيا

فأجابه هوما قائلا:

أنا من يذود الموت عن هذه الحياة

أنا من يدفع الموت بعيدًا بعيدًا

فصل ياسبيتاما لى

وهيئ الشراب لأجلى

وامدحنى فى صلاتك كما فعل النبيون الأقومون

فسألة زرادشت قائلا:

من أول رجل هيأك للعالم المادى؟

وأى جدوى كانت له وأى جزاء؟

فأجابه هوما قائلاً:

هو الذى يذود الموت عن هذه الحياة

فيفهانت هيأنى للعالم المادى

وهذا جزاؤه وهذه جدواه

فقد رزق بذلك ولدا هو «بيما»

السيد المطاع صاحب القطعان

وشبيه الشمس من بنى الإنسان

جعل الماء جريا لا ينضب والنبات زاهيا لا يذوى

فالزاد موفور والخير كثير

لا هجير فى مملكة ييما ولا زمهرير

ولا وجود فيها لهرم أو حمام

ولا تحاسد من نزعات الشيطان

والولد لا يكبر ولده فكلاهما غض الشباب

ما دام ييما صحب القطعان حاكما

ييما ولد فيفهانت

فأسة زرادشت قائلاً:

من هو الرجل الثانى ياهوما الذى هيأك للعالم المادى؟

وأى جدوى كانت له وأى جزاء؟

فأجابه هوما قائلاً:

هوما الذى يذود الموت عن هذه الحياة

«أتويجا» هيأنى للعالم المادى

وهذا جزاؤه وهذه جدواه

فقد رزق بذلك ولدا هو تريتونا

تريتونا من قبيلة الأبطال

الذى قتل التنين دهاكا

ذا الرؤوس الثلاثة والأفواه الثلاثة

والعيون الست والقوى التى تبلغ الألف

والذى يعد من أخبث شرور الشيطان

فهو أشد ما يكون عداوة للإنسان

وقد خلقه أهريمن أشام بلاء

يصبه على رؤوس الأتقياء

وسأله زرادشت قائلاً:

من هو الرجل الثالث ياهوما

الذى هيأك للعالم المادى؟

وأى جدوى كانت له وأى جزاء؟

فأجابه هو ما قائلاً:

هوما الذى يذود الموت عن هذه الحياة

هيأنى البطل «تريتا» للعالم المادى

هذا جزاؤه وهذه جدواه

فقد رزق بذلك ولدين معا

كرساسبا وارفخشايا

الأول منهما نبى وتقى

والثانى مضفور الشعر وكمى

لقد أسقط ذلك التنين الأخضر ميتا

فهو يزدرد الرجال ويبتلع الجياد

ويفيض سما فاقع الصفرة

وعلى ظهره طبخ كرساسبا لحما

فى قدر من حديد للغذاء

إلا أنه قام من تحتها ودفق الماء الحار

ويسأل زرادشت أهورامزدا عن أول الذين كلمهم الإله فيجيب أنه «ييما»، الذى يرفض أن يكون نبيًا عندئذ يطلب منه أهورامزدا أن يسعد خليقته.

- ما دمت لا تريد أن تكون نبيًا ومعلمًا شرعيًا

فأسعد خليقتى لتكثر

وأطعمها وأرعها واحفظها

فأجاب ييما قائلاً:

نعم سأسعد خليقتك وستتكاثر

وسأطعمها وأرعاها وأحفظها

فجئته أنا أهورامزدا

بقضيب ذهبى وخنجر مذهب

ليتسلم ييما زمام الحكم

- ويمضى على حكمه ثلاثمائة عام

وتمتلئ الأرض بالقطعان

وبالناس والكلاب والأطيار

وبالنيران الوهاجة

حتى تضيق الأرض بما رحبت

فقلت ليما: يابيما الصبح ابن فيفهانت

لقد امتلأت الأرض بالقطعان وبالناس والكلاب والأطيار

وبالنيران الوهاجة الحمراء

حتى ضاقت الأرض بما رحبت

فتقدم بيما جنوبا ليقابل الشمس

وثقب الأرض بالقضيب الذهبى

وشقّها بالخنجر المذهب قائلاً:

أيتها الأرض ميدى واتسعى

حتى تحمل القطعان والناس

وهكذا وسع بيما الأرض ثلثا

فجاءت الناس والقطعان ووجدوا فى الأرض متسعا

كما كانت مشيئة بيما..

.. وبعد ستمائة عام يتكرر الموقف وكذلك بعد تسعمائة عام فيقوم بتوسيع الأرض كى تسع الناس والقطعان.

■ ■ ■

الديو: الشياطين

الشياطين من مخلوقات «أنكره مينو» أى الروح الخبيثة والشريرة وهى عموما تجسيدًا لكل الصفات والمزايا السلبية التى يتمتع بها الإنسان فى دنياه مثل الكذب والغضب والطمع والجشع.. فنلاحظ أن الشياطين تحمل الأسماء ذاتها: دروغ، آزو، ايشمة (خشم) نتراد، مزاكردة، فرادادا.

وبما أن الديو أرباب الدين التقليدى قد اختاروا الغش فإن زرادشت يطلب إلى المؤمنين به أن لا يقدموا لهم العبادات فى أى مكان وأن لا يضحوا لهم بالبقريات.

وأن كل ما يعتور الإنسان والطبيعة من موت وجدب وضعف ومرض تسببه هذه الشياطين التى هى «مخلوقات» أنكره مينو (أهريمن) أو هى تجليات الشر، ومن خلال الإيمان والطهارة، يتم التخلص من المرض والشيخوخة والجدب والقحط، أى على تلك الشياطين.

التكوين:

حسب الفصل الأول من البندهش فإن أهورا مزدا وأهريمن يوجدان منذ الأزل، ولكن فى حين أن أهورامزدا غير محدود فى الزمن، فأنه محدود بأهريمن فى المكان، وأهريمن محدود فى المكان، مثلما هو محدود فى الزمان، لأنه فى فترة ما سوف يجرى القضاء عليه وتصفيته إلى الأبد، وذلك فى نهاية الدورة الكونية، وهذا الوضع سيمتد إلى الأبد، إذا لم يهاجم أهريمن من قبل أهورامزدا وملائكته والمؤمنين به.

إن الأمر الذى يسمح لأهورامزدا بأن يصبح لا نهائيًا أيضًا فى المكان، هو مقاومته بهجوم مضاد عبر خلقه العالم، وهكذا فإن أهريمن يساهم فى كمال

أهورمزدا، وبعبارات أخرى، أن الشر بدون إدراك منه، وبدون إرادة، يساهم فى انتصار الخير، أن أهورامزدا، قد تبصر المعركة مسبقا، فأنتج خليقة مثالية «روحية» (مينوك) هى الأرواح الأولى قبل خلق الكون والإنسان، وحسب داستانى دينيك فإن ماهو مينوك (روحى) هو تام وكامل (كما فى المثل العليا الأفلاطونية). ويؤكد «دين كرد» أن العالم كان فى البدء كان خالدًا، ومن جهة أخرى يصف البندهش أن الخليقة فى حالة «المينوك» خلال الثلاثة آلاف سنة التى دامت كما لو أنها دون فكر ودون حركة وغير محسوسة، ولكن هذه، بشكل خاص هى الصفة السماوية والروحية للحالة مينوك المشار إليها «لقد أتيت من العالم السماوى» مينوك (وهذا ما ورد فى منتصف القرن الرابع) ليس فى العالم الأرضى «كيتيك» بدأت التكون، لقد ظهرت أصلا الحالة الروحية، حالتى الأصلية ليست الحالة الأرضية، وقد حكم أهورا العالم الروحى هذا لمدة ثلاثة آلاف سنة.

فى الدراما الكونية لتاريخ العالم تميز أربع مراحل، فأثناء الزمن الأول يحصل عدوان أهريمن والظلمات ضد عالم النور لأهورامزدا، إنه يتعلق بثنائية من نوع لاكونى، لأنه فى مذهب زرادشت، أهورامزدا هو الخالق للنور كما هو خلق الظلمات:

«أسألك ما يلى، أصدقنى القول، ياأهورا: من الذى خلق الضياء الخير والظلام؟ من الذى خلق النوم الخير واليقظة؟ من الذى خلق الصبح والظهر والليل حتى تذكر المؤمنين بالعهد» (يسنا ٤٤ ـ ٥)

وبالنسبة لعملية التكوين وتسلسلها، فإن الأدبيات الأفستية تذكر أن أهورا قام خلال الآلاف الثلاثة التى قضاها «أهريمن» فى جوف من الظلام، بخلق العالم من النور اللانهائى، خلو النار من ذلك النور ووضع الضياء والشعاع من النار، وأنشأ من النار الهواء على هيئة فتى بلغ الخامسة عشرة من عمره، ثم الماء من الهواء والتراب من الماء، وعندما تهيأت العناصر الأربعة بدأ يصنع عالمنا، فخلق أولا قبة السماء من الفولاذ المنصهر وجعله سياجا للعالم وذلك

خلال أربعين يوما وعكست النور اللانهائى وكأن السماء درع يرتديه أهورا، ثم أوجد البحار، والرياح الممطرة كى لا تجف البحار خلال خمسة وخمسين يوما وثالثا: الأرض فى سبعين يوما وجعلها فى كبد السماء وأحدث الجبال ووضع فيها الفلزات، رابعا: أنبت النباتات فى خمسة وثلاثين يوما، وقد أوجد فى وسط الأرض نباتا حلوا ريانا «الراوند» خاليا من الفروع والأشواك وجعل هذا النبات يحتوى بذور النباتات عامة خامسا: الثور الأولى على يسار نهر دايتى سادسا: الإنسان الأولى جيو مرت على الضفة اليمنى للنهر.

لقد بنى أهورا سماوات سبع وضع فى السماء الأولى القمر والشمس والكواكب واختار من بين الكواكب والنجوم أربعة وأمرها على الأخرى وهى المقدسة.. والسماء الرابعة فيها بذور الحيوانات.. والسادسة مأوى الملائكة.. والسابعة عرش أهورا.

وقبل نقل الخليقة من الحالة الروحية «مينوك» إلى الحالة المادية الجسمانية (كيتيك)، طلب أهورا من الفرافاشى: فيما إذا كانت تقبل بوجود جسدى على الأرض بهدف مقاومة الشر، فرضى الفرافاشى بذلك، وفى الواقع فإن الخليقة المادية كيتيك، قبل هجوم أهريمن، كانت بذاتها طيبة وكاملة، ولم يتلفها سوى غزوة أهريمن بإدخالها الشر إلى داخل هذه الخليقة فامتزجت الطهارة والطيبة مع الشرور والسوء، ومنذئذ توجد الخليقة فى حالة «الخلط» بين حالات الخير والشر (Gumecino). إن أهريمن وجحافله الشيطانية تفسد العالم المادى باختراقه وتوسيخه من قبل مخلوقاته الضارة، وبخاصة باستقرارها فى أجساد البشر، والواقع، أن بعض النصوص، يفهم منها أن أهريمن لا يرد على الخليقة المادية لأهورامزدا، بخليقة كيتيك من نظام سلبى: فمن أجل إفساد العالم يكفيه أن يدخل إليه وأن يسكنه، وبالنتيجة، عندما لا يكون له سكن فى أجساد البشر، فإن أهريمن سيزول من العالم قاطبة، وحسب اللاهوت المزدى، أن الزمن ورغم أنه ليس لابد منه للخليقة، إلا أنه هو الذى يجعل من الممكن دمار أهريمن وهزيمة الشر. خلال الآلاف الستة الأولى يتصارع الإله وروح الشر من أجل

السيادة، ويبدو الشر منتصرًا، فيرسل الإله ملاك الشمس ميثرا الذى يسود الألف السابعة، وفى نهاية الزمن الأخير تتوقف المذنبات ويجدد العالم حريق شامل، وفى الواقع أن أهورا مزدا خلق العالم بهدف قهر الشر وإبادته، وفى أسماء الأشهر نجد أن اسم ميثرا يطلق على الشهر السابع، وكما أن الأشهر عددها اثنا عشر شهرا فإن الدورة الكونية أيضا (١٢) ألف سنة.

إن هجوم أهريمن، موصوف بتفاصيله وبعبارات عاطفية: فهو يمزق محيط السماء، ويتدخل فى العالم المادى كيتيك، ويوسخ المياه، ويسمم النباتات والأعشاب ويؤدى ذلك إلى موت الثور الأولى: إنه يهاجم جيومارت Gayamart الإنسان الأولى الذى توسخه العاهرة وعبره توسخ كل البشر وبعدئذ يلقى أهريمن بنفسه على النار المقدسة ويوسخها بإثارة الدخان، ولكنه فى أوج سلطته غالبا ما يكون أسيرا فى العالم المادى؛ لأن السماء، التى تحرسها الأرواح المجردة «الفرافاشى» بانغلاقها تحبسه فى الخليقة كما لو أنها أوقعته فى مصيدة.

■ ■ ■

زرادشـــت

أثناء اكتشاف الغرب للديانة الزرادشتية، انقسمت الآراء بحدة بين أولئك الذين اعتبروا الأمر حقيقة تاريخية، والذين اعتبروا هذا الدين مجرد اختلاق وأوهام وهراء، ورغم ترجمة معظم النصوص الدينية الزرادشتية، وتأكيد الوثائق والمعطيات التاريخية حقيقة هذا الدين، فإن الحقيقة التاريخية لشخصية زرادشت قد ظلت محور جدال استمر طويلا، ولايزال الجدال يدور حولها، فقد اعتبره بعضهم شخصية تاريخية ظهرت فى فترة زمنية معينة وإن تباينت الآراء حول تاريخ ظهوره والمرحلة التى عاش فيها، واعتبره آخرون مجرد شخصية خيالية خلقتها العقلية الأسطورية والمخيلة الجماعية، ونسجت حولها القصص والحكايات وأحيلت إليه تلك الديانة، وأسندت إليه بعض كتبها.

وحسب الروايات الزرادشتية، فقد وجد ثلاثة أشخاص سموا بـ«زرادشت» وكان هذا الاسم بمثابة لقب دينى لهم، فقد اعتبروا «هوشنكك» الذى أوجد النار، الزرادشت الأول ويفرضون أن الثالث هو «إبراهيم» أما الثانى فهو «زرادشت» المعنى صاحب الأناشيد.

يطلق على زرادشت، فى النصوص الأفستية، اسم زرادشت سبيتاما، وورد اسمه حرفيا «زرتوشتره» وفى اللغات الإيرانية الحديثة «زرتشت» وكان اسمه يسبق بكلمة «اشو» والتى تعنى الطاهر والنقى، أما معنى كلمة «زرادشت» فقد جرى حولها أيضا خلاف، وهى تتألف من كلمتين: زرت + اوشتره، أى الذهب + الجمال، لذلك، فقد ذهب بعض المستشرقين إلى أنها تعنى صاحب الجمال الذهبية، ولكن بعضهم اعتبر اوشتره بمعنى النور والضياء واعتبر اسم زرادشت=ذو النور، والضياء الذهبى أو الشخص ذو الهالة الربانية.

ولكننا إذا تتبعنا أقدم النصوص الدينية، التى تعتبر من تأليف زرادشت

نفسه، ويسودها التوتر الوجودى، والقلق والتساؤل، والتعبير عن حالات الضعف والاحباط والرغبة الشديدة فى معرفة الثواب، فإننا نلاحظ ما يعبر عن وجود شخصية حية وراء هذه النصوص، والتى تتضمن فى الوقت نفسه إشارات تاريخية وأسماء مؤيديه ومعارضيه وأعمالهم، وأسباب فشله والعقبات التى كانت تعترض سبيل نشر ديانته:

«وعرفتك طاهرا، يامزدا أهورا، عندما جاءنى بهمن وسألنى، من أنت، وابن من أنت؟ بأى علامة سوف تعرف عائلتك ونفسك، فى أيام الحساب عن الأعمال الدنيوية؟».

«حينذاك قلت له، أولا أنا زرادشت، سوف أكون ما استطعت بالحق، عدوا لعابد الكذب، والملاذ الآمن لتابع الحق، حتى ذلك الوقت العاجل الذى سأنال فيه دار الخلود الذى أملته، حتى ذلك الوقت الذى فيه يامزدا سأحمد وأنشد» (يسنا ٤٣ ـ ٧و٨).

«أعلم يامزدا، لماذا أنا عاجز: لأننى قليل المال، والرجال عندى قليلون أشكو إليك، انظر بنفسك، ياأهورا، امنح العون، مثلما يمنحها الصديق للصديق، خبِّر عن دين الحق كل ذى روح خيِّره» (يسنا ٤٦ ـ ١).

«أسألك مايلى، أصدقنى القول، يا أهورا: كيف يا أرديبهشت سوف أنال ذلك الثواب، عشرة إناث مع «زوج» ذكر وحمل مما وعدتنى يامزدا وكذلك التقوى والخلود، فى ظل مغفرتك» (يسنا ٤٤ ـ ١٨).

سواء كانت شخصية زرادشت حقيقة تاريخية أم لم تكن، فإن ما يهمنا هنا هو تلك الشخصية فى التصور الدينى الزرادشتى، التى نسجت حولها تلك الديانة، واعتبر النبى الذى أوحى هذا الدين من قبل الإله أهورا مزدا، وكلف بنشر هذه الرسالة، وتبليغ البشر بها، ومثل معظم الشخصيات الأسطورية والمقدسة، أحيكت حول حياة زرادشت قصص وحكايات تضمنت الواقع مع الخيال، والإمكان مع الإعجاز، والقدرات البشرية المحدودة مع الطاقات ذات المصدر الربانى، فإذا أضفنا الروايات السائدة عنه بين معتقى دينه إلى تلك

المعطيات التاريخية التى وردت فى النصوص الدينية المقدسة، تتشكل لدينا ترسيمه عن حياة زرادشت، تبدأ بالنبوءة التى تعلن عن ميلاد نبى، وتنتهى بموت قدسى فى أحد المعابد أمام النار.

تشير الدراسات التى تتناول الزرادشتية، أن زرادشت قد عاش فى القرن السابع قبل الميلاد، فى تلك المرحلة التاريخية التى كانت الامبراطورية الميدية قد بسطت نفوذها على إقليم «اثروبايكان» (غرب إيران الحالية) والمناطق المحيطة بها بالقرب من بحيرة أورمية التى كانت تدعى «جيجيست» فى النصوص الأفستية.

ورغم قلة الوثائق الأثرية والإشارات التاريخية حول الإمبراطورية الميدية، فإن المعلومات المتوافرة تشير إلى أنها كانت (اتحادا فيدراليا) يضم (٢٧) قبيلة (كما يذكرها ول ديورانت)، والتى استطاعت أن تقضى على الإمبراطوريات السائدة فى المنطقة وتبسط هيمنتها، قبل سقوطها على يد «كوروش» وإذا قبلنا التقليد المزدى الذى يتحدث عن ولادة وحياة زرادشت بـ(«٢٥٨) سنة قبل ميلاد الإسكندر المقدونى، حينئذ يمكن تثبيت حياة زرادشت ما بين ٦٢٨ ـ ٥٥١ قبل الميلاد.

ويستفاد من النقوش الأثرية الآشورية أن الزرادشتية قد شاعت فى ميديا قبل كوروش (٥٥٨ – ٥٣٠ قبل الميلاد) بنحو قرنين، أى حوالى سنة ٧١٤ قبل الميلاد، بدليل أن اثنين من أمراء ميديا كان كل منهما يسمى «مزداكا»، وهو اسم مشتق من مزدا إله زرادشت، والدلائل التى تشير إلى أن زرادشت فى المرحلة التى سادت فيها الإمبراطورية الميدية، وفى المنطقة الغربية من إيران الحالية، هى أن لغة أقدم نصوص الأفستا «الأناشيد» أقرب إلى اللغة السائدة فى إيران الغربية، بالإضافة إلى أن أكثر الشعائر والطقوس التى انتشرت مع الديانة الزرادشتية، قد كانت شعائر وطقوسًا تعود إلى منطقة غربى إيران، ويطلق زرادشت على موطنه اسم «اريانا ويج». ويبالغ الزادشتيون فى وصف موطنهم هذا – الذى استقروا فيه بعد انفصالهم عن الموجات الآرية التى هاجرت إلى الهند – إلى درجة وكأنه النعيم والفردوس.

أما الإغريق فإنهم منحوا زرادشت مكانة رفيعة فى فكرهم، ويتجلى ذلك فى أنهم يعتقدون أن زرادشت قد عاش فى فترة سحيقة فى القدم تعود إلى آلاف السنين قبل الميلاد (٥٥٠٠ ق.م).

يطلقون على زرادشت الذى ورد اسمه فى النصوص الأفستية على الشكل التالى «زرئوشتره» اسم «زرادشت سبيتاما» لأن اليشت التاسع توصل نسبه إلى «سبيتاما» الذى يعتقد أنه الجد التاسع لأبى زرادشت والذى اشتهر بتقواه، وزهده أو هى إحدى الصفات التى أطلقت على زرادشت وتعنى الطاهر والقدسى، وكان يطلق على دينه دين «مزديسنا» Mazdiyasna أى دين عبادة الإله الواحد الأحد، واعتبر زرادشت زاوتر Zeoter كاهنًا ومضحيًا ومرتلاً.

«لكم، أيها الهجتسبيان أقول، لكم أيها السبيتمانيان حتى تميزوا العاقل عن الجاهل..» (يسنا ١٥).

كان والده يدعى بوروشاسبا وأمه تدعى دغدهو، وبالفهلوية دغدوء وبالفارسية الحديثة دغدويه Dughdhaova واسم جده هائيكات اسبا، والقبيلة أو الجماعة التى كان ينتمى إليها تدعى «هجستبيان». ومثل كافة الروايات التى تتحدث عن ولادة المعجزات، فإن ولادة زرادشت أيضًا حسب الروايات المزدية، تبدأ بالنبوءة التى تسبق ميلاده، وتتحدث عن أن ثورا تكلم وتنبأ بميلاد منقذ سوف ينقذ العالم من سيطرة قوى الشر، أو أن جمشيد (الملك البيشدادى الذى أسس الحضارة) قد أنذر الشياطين عندما كان يحاربها، بمولد رجل سوف يكون على يديه فناؤهم، أو أن ثورًا آخر قد تنبأ معلنا الميلاد الوشيك لهذا النبى.

اعتقد القدامى بأن زرادشت هو من جوهر روح الله، وقد تقمصت جسد هذا المخلوق، بعد أن مر جوهر الروح بسلسلة الكائنات والأجرام العلوية، وحلت فى رحم المرأة التى ولدت زرادشت، تقول الروايات إن أمه كانت تشع نورا، فأرسلها أبوها إلى أورمية، فتزوجت هناك من أحد الفلاحين ويدعى «بوروشاسبا» وبينما كان هذا الفلاح عند النهر، عائدا من أرضه، تراءى له

شيخان نورانيان وهما وهومنو «بهمن» وآشاوهيشتا «أرديبهشت». يغمى على هذا الفلاح إلا أن وهومنو يكشف له عن شخصيته، ويقدم له غصناً من أغصان الهاوما، ويأمره أن يحمل النبات إلى داره، ويقدمه إلى زوجته بعد أن يمزجه باللبن الذى ستشربه زوجته، وتتشكل مادة الجسد أما الروح فقد نزلت مع المطر، الذى عمل على تفتح النباتات التى تأكلها البقرتان العائدتان لأقارب النبى، فمر الجوهر الروحى فى اللبن الذى شربته والدة زرادشت، ولأول مرة اقترن والده، علقت به أمه، وقبل ولادته عمل عبثا، أهريمن وشياطينه، كى يقضوا على زرادشت وهو جنين فى بطن أمه، وعندما حاول أهريمن والشياطين الهجوم على زرادشت فى بطن أمه، أنيرت السماء بوهج نارى، حيث نزلت «الفرافاشى» من السماء، وقامت بحماية الطفل، ولمدة ثلاثة أيام، قبل أن يولد ويستقبل الحياة، أنيرت القرية بوهج مضىء، حتى أن «السبيتاميد» - رجال الدين القديم - قد اعتقدوا بوجود حريق، فهاجروا القرية وقد قدم إلى العالم وهو يضحك ويشع بنور ربانى، وما أن قدم إلى الدنيا، حتى هوجم من قبل الشياطين، ولكنه باستخدامه العبارات المقدسة، جعلها تهرب منه وتفر بعيداً.

وقد ورد ذكر حاكم يدعى «دوران سرون» كان يحكم ميديا، فى المرحلة التى ولد فيها زرادشت، نائبا عن لهراسب أبا وشتاسبا (كشتاسب) وقد حاول عدة مرات أن يقضى على الطفل الذى سمع عنه من خلال نبوءات العرافين، بأنه سيقضى على الدين القديم وأنصاره.

ويقال بأنه عندما علم بولادة الطفل، استل خنجره وتوجه بنفسه للقضاء على الطفل فى المهد، ولكنه، حين اقترابه منه، تجمد فى مكانه ولم يستطع أن يتحرك. وفى محاولة أخرى، رموه فى النيران الملتهبة الموقدة فى المعبد، إلا أن النار كانت برداً وسلامًا عليه (قارن هذه الواقعة مع إبراهيم عليه السلام عندما رموه فى النار).

وعندما مرض الطفل فإن «بروتوش» زعيم السحرة، قد تقمص هيئة الطبيب المعالج، كى يقضى على الطفل المقدس، ولكنه يفشل فى مسعاه بعون أهورامزدا،

ويرمى الطفل بين الحيوانات فى الحظائر والمراعى، ولكنها تحميه بدلا من أن تدوسه بحوافرها، وكل محاولات رميه بين حوافر الجياد والأبقار.. قد باءت بالفشل.

وقد عهد والده بتربيته إلى العالم والتقى «برزين كروس» الذى اشتهر فى عصره بعلومه ومعارفه وقام بتلقينه جميع علوم عصره، وقامت الامشاسبندات بتعليمه العلوم الربانية، وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره وضع الحزام المقدس «ايويا انكهن Eyvia Enghen» ويطلقون عليه «كشتى» أيضا وهو حزام يتألف من (٧٢) خيطا ترمز إلى أجزاء اليسنا أحد أقسام الأفستا المكون من (٧٢) فصلا، تترك (٦) خيطان غير معقودة ترمز إلى الأعياد الدينية الرسمية، والأطراف (١٢) إلى المنازل العلية والكواكب، يشد الحبل ثلاث مرات، وكان الحبل يعقد مرتين من الأمام ومرتين من الخلف إشارة إلى العناصر الطبيعية الأربعة، الحبل أجوف يرمز إلى الفضاء، ويتلى دعاء الكيمنا عند لبسه.

تزوج زرادشت ثلاث نســـاء، أنجب منهن ثلاثة أبناء وثلاث بنات وهم: ايسدواستر، ارفاتدنر، خورشيدجهر، البنات: فرين، تهرت، بوروجستا، والأخيرة تزوجت جاماسبا وزير الملك كشتاسب، وكان أحد أقرب مساعدى زرادشت.

كان زرادشت قد أنجب من الأولى ابنًا وثلاث بنات، ومن الثانية انين أوكل إليهما قيادة جماعتين؛ جماعة المحاربين وجماعة الفلاحين، أسند إلى خورشيدجهر (هفاريكحثرا) قيادة الفلاحين، وأسند إلى أرفاتدنر Urvatadnara قيادة المحاربين، أما الزوجة الثالثة فكانت تدعى هفوفى Huvvi بنت فراشا اوشترا Oshtra Frasha أحد وزراء كشتاسب ومن أقرب مؤيدى زرادشت. ومع أنه لم يكن لهذه الزوجة أولاد، فقد شاع عنها وعن مصيرها نبوءة عظيمة تقول بأنها ستكون أما لثلاثة من أبناء زرادشت الروحانيين، كذلم ساؤوشيان Saoshy- ant الذى سيخلف زرادشت ويظهر بين الزرادشتيين مسيحا أو مهديا منقذا.

«لقد وعدنى فراشا اوشترا أن يهبنى ابنته ذات المحيا الجميل، المحببة إلىّ، فتفضل أيها الملك العظيم كى تهديها الصراط المستقيم، حتى تدرك روحها تمام

الإدراك معنى السلوك القويم فتصلح بها نفسها».

وفى العشرين من عمره يهجر وطنه ويتنقل كثيرا، وفى الثلاثين من عمره، يتخلى عن كل شىء، كى يعيش خلوة وجدية فى جبل «اشيدرنه» Oshiderena، كما أوحى إليه أهورا مزدا، وتمتد به العزلة عشر سنوات وعندما ينتهى من خلوته فى رياضة النفس، ويهبط من الجبل، يلتقى عند عودته بالقرب من نهر دايبتى Daiti فى آذربيجان الحالية، هالة نورانية، يغمى عليه من شدتها، يتجلى له الملاك «وهومنو» ويكشف له هويته كملاك ورسول للإله الأعظم أهورامزدا، ويقوم باصطحابه وهو روح خالصة، متجردا من ماديته، لكى يمثل فى حضرة الإله الأعلى، وأثناء مروره نحو السماء يمر بالأفلاك السماوية الاثنى عشر حسب معتقدات الزرادشتيين، ويعود محملا بالرسالة التى سيبلغها للبشر، وكذلك محملا بطلسم من أهورامزدا وهو الدعاء القدسى الذى يتلوه الزرادشتيون فى صلواتهم ويدعى يتهااهو وئيريو وقد أنشده زرادشت لأول مرة فى آريانا فيجو أربع مرات.

«يقول بهمن: إن الشخص الوحيد الذى عرفتى هنا، والشخص الذى سمع دينى هو زرادشت سبيتمان، يامزدا، حيث ينشد فكرنا، وعقيدة دين الحق؛ لذلك وهبته الكلام المحبوب». (يسنا ٢٩/٨).

وتقوم الملائكة، فيما بعد، بتعليمه حقائق الحياة الكبرى، يعود زرادشت بعدها، مرورا بالمنازل العليا والكواكب، إلى موطنه، ويبدأ بنشر ديانته، دين الحق، دين عبادة الإله الواحد أهورامزدا: مزديسنا.

كان فى الأربعين عندما أوحيت له ديانته وكلف بتبليغ الدين الجديد من قبل أهورامزدا وتبين «الكاتات» ـ لدى الزرادشتيين، أن زرادشت قد بدأ بنشر ديانته، فى مسقط رأسه أولا:

«هكذا أتحدث: اصغوا، اسمعوا الآن، أيها الناس القادمون من الأقاصى، والقادمون من الأماكن القريبة، تبغون المعرفة تذكروا جميعكم كل ما هو ضال، لا

تكن معلم السوء القاضى على الحياة مجددا..» (يسنا ٤٥ ـ ١).

وكانت الجماعة التى يتوجه إليها برسالته، ويدعوها إلى اعتناق دينه، تتكون من رعاة مستقرين لهم رؤساؤهم الذين كانوا يسمون بـ«كافى Kavi» وكهان يدعون بـ«كارابان» وهؤلاء الكهان كانوا حراس الديانة القديمة:

«بكل قواهم يثير الكاربانيون والكافيون الناس على الأفعال الشريرة من أجل القضاء على الحياة، أما أولئك الذين ستخشى أرواحهم وضمائرهم، عندئذ، سيصلون إلى المكان الذى يقع فيه جسر جينوات» (يسنا ٤٦ - ١١).

وقد لاقى زرادشت فى بدء التبشير برسالته، كثيرا من المصاعب والعقبات التى كانت تعترض تقدمه فى نشر دينه، وقد قاومت تلك الجماعات والأشخاص المذهب الجديد، وأساءت إلى صاحبها. وترد بين ثنايا الأناشيد أسماء تلك الشخصيات التى قاومت ديانته، وأشهرها، بالإضافة إلى الـ«الكارابان»، «بندفا»، ونلاحظ زرادشت يطلب من أهورامزدا العون، ويناشده القضاء عليه:

«هكذا، بندفا ألد أعدائى منذ القدم، أرغب بإهداء الضالين إلى الحق، يامزدا، توجه نحوى بالثواب الخير، امنحنى القوة، واقض عليه بالموت بايهمن».

«فى العالم (الآخر) سوف يهبط كرهما إلى أسوأ منزلة للروح فى الدار والمال، إن الذين يعيثون فى هذا العالم فسادا، يامزدا، سوف يتعذبون من وحى نبيك الذى سوف يمنعهم من رؤية اشا» (يسنا ١٣/٣٢).

ومن الأسماء الأخرى: الأمير «فيبا» الذى شتم زرادشت على جسر الشتاء، رافضا المحط له ولحيواناته المرتجفة من البرد، بوصوله لعنده.

كانت تحيط بزرادشت مجموعة من الأتباع والمقربين، تؤيده وتعينه وتساعده فى توسيع محيط معتنقى ديانته وتدعى: «درغو» Dergv أى الفقراء و«فرايا» أى الأصدقاء، «فيدفا» أى العارفين، «اوركاتها» أى الأنصار، وفى الجهة المعارضة، المناوئة لزرادشت، وجدت جمعيات أشخاص «آيسما» Aesma (الرغب) . ولهذه الجمعيات السرية فى إيران القديمة ما يشابهها لدى الهنود وهى: مجموعات

الشباب المحاربين الهنود «ماروت» Marut الذى وصف رئيسهم بـ«أدهريغو» (أى والذى ليس فقيرا).

أما أوائل الذين اعتنقوا دين زرادشت، وناصروه فى دعوته ووقفوا معه فى وجه أعدائه، كان ابن عم زرادشت ويدعى مديوماه: «هذا الرجل «مديوماه» قد وضع هذه الطريقة الدينية نصب عينيه، بعد أن أدركت روحه أسرارها، وكل من يدرك حقيقة الحياة، وتتجلى له أسرار هذا المذهب، سوف يوهب العلم بمشيئة مزدا، التى ترشد المؤمن إلى إصلاح أمور الحياة».

وتبقى مسألة المجوس، مع الزرادشتيين متعارضة أيضا فقد اعتبروا على سبيل المثال، كقبيلة من أهل البلاد الأصليين من السحرة ومناجى الأرواح المسئولين عن انحطاط الزرادشتية أو على العكس، كتلامذة حقيقيين لزرادشت ومبعوثيه فى إيران الغربية، ويبدو أنهم كانوا فى عصر الإمبراطورية الميدية (القرن السابع) طائفة هرطقية من الكهنة الميديين القابلة للمقارنة باللاويين والبراهمانيين، وقد مثلوا الطبقة الكهنوتية فى عصر الاخمينيين، وأخذت بعض الفتاوى والطقوس من زرادشت فى حين نلاحظ أن الإغريق اعتبروا زرادشت مجوسيا.

بعد أن فشل زرادشت فى دفع أبناء قومه إلى اعتناق ديانته، وتلقيه المعاملة السيئة منهم، لم يجد سوى الهجرة عن وطنه، والتوجه شرقا نحو «ويشتاسبا» حاكم «فريانا» ـ الذى يعتقد أنه الملك الكيانى «كشتاسب» ـ كما أمره الوحى الأهورامزدى:

«إلى أى أرض أتجه، إلى أين أذهب، أنا بعيد عن الأحرار والزعماء، الزراع لا يرضوننى (...) ولا الرؤساء، أولئك العابدين للكذب، كيف أستطيع أن أرضيك، يامزداهورا؟» (يسنا ٤٦ ـ ١).

فى الطريق أثناء مروره متوجها نحو «كشتاسب» يمر بمدينتين، ويدعو حكامهما إلى اعتناق دينه، دين الحق، ولكنهما يرفضان، ويطردانه من مملكتيهما، ما يؤدى إلى أن يدعو زرادشت ربه كى يعاقبهما على فعلتهما

وإساءتهما إليه، حينئذ تهب أعاصير شديدة تؤدى إلى الدمار والخراب، وترفع الحاكمين نحو عنان السماء، حيث يبقيان معلقين ما بين السماء والأرض، فتنهش الطيور الجارحة أجسادهما، ويسقطان على الأرض عظاما، وبعدها يتوجه زرادشت إلى «وشتاسبا كشتاسب»، خامس ملوك الكيانيين، فى البداية، يمنع حراس الملك دخول زرادشت إليه فى القصر الملكى، رغم إلحاح زرادشت، يلحق بالملك، وهو خارج إلى الصيد فى حدائقه مع أعوانه وحاشيته، وفى الحقول يتوجه نحو الملك، حاملاً فى يده كرة نارية، دون أن تحرق جسده يلعب بها كأنها كرة عادية لا تؤثر فيه.. وتجربة المعدن المذاب والمصهور دليل على مصداقية الرسالة والأقوال، وهى شبيهة بتجربة الحساب الأخروية حيث لا تؤثر المعادن المذابة فى أجساد المؤمنين - يثير هذا الوضع اهتمام الملك فيسأله عن هويته وقومه وحاجته يخبره زرادشت عن نفسه وعن الرسالة التى حمله إياها أهورامزدا، يدعوه الملك إلى قصره ويطلب منه الدخول فى مناظرة مع علماء وكهان قصره، يغلبهم زرادشت، مبديا سعة اطلاع، وذكاءً خارقًا، وفكرًا عميقًا وقدرة على الإحاطة بكل شيء، ويكون نجاحه فى تلك المناظرة، والتأثير العميق الذى خلفه لدى الملك، سببا فى انضمامه إلى حاشية الملك، وفيما بعد، يصبح أحد المقربين، وصديقا للملك، ولكن الملك لا يعتنق دينه، ويفرد له الملك جناحا خاصا فى قصره ويستشيره فى جميع شئونه. إن نيل زرادشت تلك المكانة المرموقة لدى الملك، أثار حقد حاشية الملك والعلماء والكهان المحيطين به، ودفعهم ذلك إلى تدبير مكيدة توقع بالنبى؛ وتثير غضب وحنق الملك عليه، فقد قاموا برشوة خادم جناح زرادشت، كى يضع أدوات ووسائل كان السحرة يستخدمونها فى السحر حينذاك مثل أعضاء الحيوانات والشعر والأظافر.. ويقومون بالوشاية لدى الملك، ويخبرونه بأن زرادشت ليس إلا ساحرا يدعى النبوة بغية خداع الملك ونيل الحظوة لديه، وعندما يعلم الملك بالأمر، ويكتشف أدوات السحر فى جناح زرادشت، يغضب الملك غضبًا شديدًا، ويأمر بسجن النبى وكان «جاماسبا» وزير الملك، مناصرًا لزرادشت معتنقا لدينه، قد حاول

كثيرا أن ينقذ زرادشت من تلك التهمة، ويحرره من سجنه، عبر تدخله لدى الملك، دون جدوى. ولكن الفشل لم يستمر طويلا، إذ حانت الفرصة المناسبة، فقد مرض جواد الملك المدلل لديه والذى تعلق به تعلقًا شديدًا، كانت قوائم هذا الجواد قد ولجت فى بطنه، ورغم محاولات الأطباء والسحرة والعرافين فإن كل الجهود باءت بالفشل، وعجزوا عن معالجة الجواد وإعادته إلى حالته الطبيعية، ووصلت الحالة بالملك إلى الإحباط، وفقدان الأمل فى معالجة الجواد، عندئذ يشير «جاماسبا» الوزير، الذى رأى الفرصة سانحة لإنقاذ زرادشت - إلى أن زرادشت، إذا كان نبيًّا بالفعل، يستطيع أن ينقذ الجواد، ويكون ذلك محكا لمصداقية قوله، يطرح الوزير الأمر على زرادشت وهو فى سجنه، يوافق زرادشت على الأمر بشروط محددة، وهى أربعة: أن يعتنق الملك وزوجته دين الحق، ويعمل على نشر الديانة الزرادشتية، أن يقوم الملك بمعاقبة الذين حاكوا المؤامرة ضده وأدوا به إلى السجن، اطلاق سراح ابنه اسفنديار «سبنتوداته» الذى سوف تكون على يديه انتصارات الزرادشتيين وانتشار الدين الجديد.. وبالفعل، فقد نفذ الملك كل شروط زرادشت أولا بأول، عند خروج كل قائم من قوائم الجواد من بطنه، وبذلك استطاع زرادشت أن يقنع الجميع بصدق نبوته، ويكون ذلك برهانا قاطعا على القدرة الإلهية التى وهبها إياه أهورامزدا، وقد ذكر زرادشت فى أناشيده كشتاسب وأعطاه مكانا مرموقا، ويطلب من أهورامزدا أن يمنحه الثواب الذى يليق به، وكذلك جاماسبا، واسفنديار.

«إن الملك «وشتاسبا» قد اعتنق العقيدة التى أوجدها أهورا مزدا الحق المقدس، لقد قبل بالعهد، وأقر بحجته، كما تقبل الدعوة إلى طريق الكرم والإحسان، فليتم هذا طبقا لمشيئتك».

وقد آمن «جاماسبا» فى تقوى وطهارة، بهذه العقيدة الكريمة، وكل من اشترك فى إسداء الإحسان، والاتصاف بالكرم، فهو مخلص لهذه العقيدة، خاضع لسلطانها، فتفضل، ياأهورا، بالإنعام عليهم حتى يجدوا فيك حصنا منيعا يحميهم».

«أطلب منك الأفضل أيها الأفضل، أنت يا أهورا نظير الصدق الأسمى،

رغبتى من أجل فراشا اوشترا الشجاع ومن أجلى ومن أجل الأشخاص الذين وهبتهم الروح الخيرة، هى الخلود».

وحسب الروايات الزرادشتية، فإن زرادشت قد قتل عن ٧٧ سنة من قبل الطورانى براتفاركش فى معبد للنار فى بلخ (Bratvarkesh) عندما كان يصلى أمام النار، وذلك عندما شن الطورانيون هجوما على الزرادشتيين للقضاء على الديانة الجديدة التى انتشرت انتشارا واسعا. وبعض المصادر المتأخرة تذكر أن القتلة الذين أنهوا حياة زرادشت مع ثمانين من مريديه وأتباعه، كانوا مختبئين على شكل ذئاب، وأن الخرافة تعبر بروعة عن دلالة القدر لزرادشت، لأن الذئاب كانت أعضاء «الجماعات البشرية» التى وصفت بالعار من قبل النبى بكل جرأة. وقد طالت الحرب بين أنصار الزرادشتية والطورانيين وهى قبائل وحشية من الآريين وانتهت بانتصار ساحق للزرادشتيين، وانتشرت الزرادشتية فى كل الجهات إلا أنها فشلت فى الغرب وهى مسقط رأس زرادشت، وربما يمكننا أن نعزو ذلك إلى البنية الاقتصادية - الاجتماعية وإلى تجذر العقائد القديمة مصدر الزرادشتية. وأخيرا فإن زرادشت قد سيطر على الفكر الفلسفى المعاصر من خلال عمل نيتشه الفلسفى رغم أنه يختلف لدى نيتشه أو حتى يتعارض مع نموذجه فى التصور الدينى.

■ ■ ■

الأفستــا

إن أى دراسة عن الديانة الزرادشتية، لابد أن تعتمد على، وتتطرق بشكل أساس إلى كتابهم الدينى المقدس. والديانة الزرادشتية مثل معظم الأديان الأخرى، تستند بمعتقداتها وعباداتها وطقوسها على كتاب قديم ومقدس، يؤمن الزرادشتيون إيمانا كاملا بما ورد فيه، ويستخدمونه إطارا مرجعيا دينيا فيما بينهم، وكتابهم هذا، هو: الأفستا. والأفستا، تلفظ باللغات الإيرانية بأشكال مختلفة فهو: أوستا، ابستا، أفستا وهو الأشهر، وفى الفهلوية: أفستاك، والسريانية: ابستاكا، والعربية: الابستاق. وسمته نقوش بهيستون «ابستام»، وهناك أيضًا، خلاف حول دلالة الكلمة يعتقد بعضهم أنها تعنى المتن والأصل، باعتبارها مشتقة من كلمة Upasta بمعنى الأساس والبنيان أو الأصل، وآخرون يعتقدون أنها بمعنى المعرفة (الحكمة)، حيث يمكن أن تكون مشتقة من الكلمة الآرية «فيد» وتعنى يعرف، وذلك بإقامة نوع من المقارنة بينه وبين الكتاب الدينى الهندى: فيدا.

يذكر المؤرخون العرب أن الأفستا برمتها كانت مكتوبة على ١٢٠٠ رقيقة من جلود البقر ومن الروايات: أن الأمير كشتاسب قد أمر بنسخ الأفستا فى نسختين، أحرق الإسكندر إحداها عندما أشعل النيران فى القصر الملكى فى برسيبوليس، واستمدوا منها كما يقول أتباع الزرادشتية، كل مآثر اليونان من علم ومعرفة، فلما كان القرن الثالث الميلادى، أمر ملك من ملوك البارثيين، ومن الأسرة الاشكانية (بالاش) أن يجمعوا النصوص المتفرقة من الأفستا، سواء كانت مدونة أو متناقلة بالتواتر بين أتباع هذا المذهب، فأصبحت هذه المجموعة عبارة عن الكتاب المقدس فى القرن الرابع.

إن الأفستا التى بين أيدينا اليوم، هى ربع الأفستا التى كانت فى عهد

الساسانيين. يقول كلدنر Geldaner إن ظهور هذا الكتاب لا يمكن أن يكون قبل سنة «٥٦٠» ق.م ويزعم ويست West أن الأقسام التى تتألف منها الأفستا كانت تحتوى على ٣٤٣ ألف كلمة، لم يبق منها فى الأفستا الموجود الآن سوى ٨٣ ألف كلمة، ويتضمن الأفستا الحالى سفرًا واحدًا وصلنا بشكل كامل، من الأسفار الواحد والعشرين التى تم جمعها وتدوينها فى العصر الساسانى، وذلك هو سفر «الونديداد» فى حين أن الأسفار الأخرى قد أدمجت فى سفر «يسنا» والبندهش.

وفى الكتاب الفهلوى دين كرد الذى شرع بكتابته فى النصف الأول من القرن التاسع الميلادى برعاية الموبد آتورفرنبع، وانتهى فى القرن نفسه فى عهد آثور بادين أميد، جرى الحديث فى الفصلين الثامن والتاسع عن (٢١) فصلاً من فصول الأفستا، حتى قبل قرون عدة من الحوادث التاريخية، ويذكر كتاب دينكرد أسماء الفصول بالترتيب فصلاً إثر آخر، وتم شرح كل فصل بدرجات متفاوتة، باستثناء الفصل الخامس (ناثرناسك) الذى فقد مع تفسيره الفهلوى (الزند)، وكذلك الفصل الحادى عشر (وشتكك ناسك) وتفسيره الفلهوى، لم يذكر دينكرد شيئا عن هذين الفصلين سوى العناوين.

والأفستا مجموعة مضطربة من الأدعية والصلوات والأغانى والأساطير والوصفات وقواعد الأخلاق والطقوس.. إذا سلكها الباحث تكشفت له أسماء الآلهة والملائكة ودلالات الأفكار موزعة فى أنحائها المختلفة، وقد يعثر أحيانًا على نفس الكلمات والتعابير المستعملة فى «رج فيدا» وربما صادف القارئ مقطوعات مشتقة من أساطير المنطقة، مثل نشأة الخليقة على ست دفعات، مبتدئة بالسموات ثم المياه، الأرض، النبات، الحيوان، الإنسان، وتصوير الجنة بصورة أرضية، وكغضب الخالق على خليقته وتصميمه على إهلاكهم جميعا بالطوفان، فيما عدا قلة قليلة استثناها من المخلوقات.

إن الـ(٢١) كتابا من كتب الأفستا قد جرى توزيعها على ثلاثة أقسام بالتناسب مع صلاة «يتهاهووئيريو» أشهر صلوات الزرادشتيين إطلاقا، كان زرادشت يتلوها أمام النار، وهى قصيدة شعرية ثلاثية المقاطع، مثل نشيد

اهونودكات، وبذلك توافق كل شعبة من الأفستا مقطعا من تلك القصيدة - الصلاة، يدعى القسم الأول: كاسانيك، الثانى: هاتك مانسرين، والثالث: دايتك، على الشكل التالى:

كاسانيك ـ مانسرين ـ دايتك

ستوت يشت ـ دامدات ـ نيكاتوم

سوتكر ـ ناثر ـ كتب سرغيت

ورشت مانسر ـ باجك ـ هوسبارم

بغ ـ روتودات ائيتك ـ سكاتوم

وشتكك ـ بريش ـ ونديداد

هادوخت ـ كشكيسروب ـ جيتهردات

سنبد ـ ويشتاسب ساست ـ بغان يشت

من الـ٢١ كتابًا من الأفستا التى دونت فى العصور الساسانية فقدت أقسام بأكملها وبقيت بعض المقاطع من بعض الأقسام وبقى قسم من الأفستا الموجود حاليا، وبقيت أقسام بكاملها كما كانت سابقا: منها الأناشيد (الكاتات) التى وصلتنا كاملاً، والأفستا حسب دينكرد كان يتضمن ألف فركرد (فصل أو سورة).

وقصة اكتشاف الأفستا الحالى هى: أن عالما فرنسيا اسمه انكتيل دوبرون Duperron قد كان فى زيارة عالم مستشرق فى عام ١٧٥٤م، فشاهد صحائف مخطوطة، لفتت نظره الكتابة والخط العجيب الذى كتبت به، وقيل له إنها نسخة من مخطوطة أرسلت من الهند، عجز المستشرقون فى أوروبا عن قراءة خطها الذى لم يكن لهم عهد بمثله، وقد عقد دوبرون العزم على إتقان أمر هذه المخطوطة، وبذل الطاقة فى الكشف عما يكتمن فيها من مغلق أسرارها، فرحل إلى الهند. وفى مدينة سرات وهى المركز الأهم للبارسيين المعروفين (بعبدة النار)، عقد علاقات مع عالمين من رجال الدين الزرادشتيين المعروفين هناك

بالبارسيين استقاضت لهم الشهرة بالتضلع فى لغة الأفستا واللغة الفهلوية، وعاد إلى أوربا عام ١٧٦٠ يحمل معه مائة وثمانين مجلدا مخطوطا، وفيما بعد وجد الأجزاء الأخرى من مخطوط الأفستا فى مكتبة بودليان، وحينذاك انتشر فى أوروبا كتاب دينى جديد لا عهد لهم به، وهو كتاب الزرادشتيين الدينى: الأفستا.

فيما يلى أهم أقسام الأفستا الحالية:

١ـ **اليسنا:** وردت هذه الكلمة فى الأفستا يسنا Yasna وتعنى العبادة السلام، الحمد، الدعاء وهى مصدر الكلمة الحالية جشن وتعنى العيد، واليسنا هى افتتاح أقسام الكتاب الدينى وتتألف من ٧٢ فصلا (سورة) ويطلق على كل فصل هات أوها، وبالافستائية haiti هايتى وبالفهلوية هات، وتتضمن اليسنا الأناشيد «الكاتات» وهى عبارة عن مجموعة أوراد وأدعية، وتبدو لغة هذا القسم من أقدم أقسام الافستا، وقد كتبت الأناشيد بلغة تختلف عن اللغة التى كتبت بها الكتابات الأخرى، ويعتقد أنها لغة غرب إيران (الميدية)، وهى منظومة وقديمة وتحتوى على مباحث دينية بسيطة وأولية تتضمن ماعدا الأوراد والأدعية والمناجات، بعضا من الفقرات الدينية والأدبية التى تذكر حياة (زرادشت) وأسرته وعشيرته. إن الأناشيد لتشكل أهم أجزاء الأفستا وأعظمها قداسة، وهى منظومات كان يتخللها نصوص من النثر، وزنها مقطعى كوزن كتان الفيدا الهندى الخاص بالبراهمة، فهى أبيات يؤلف كل عدد منها منظومة. والملحوظ أن كثيرا من فصول كتاب الافستا يخلو من بداية ونهاية، مما يرشد إلى أن هذه الفصول فى ذلك الكتاب قد حذفت منه وطرحت عنه، ونعنى بتلك الفصول ما يتألف من النثر، لا من الشعر، وهى التى تعد شروحا للمنظومات، ولعل الحاجة لم تعد ماسة إليها، ذلك أن المنظومات الشعرية فيها البلاغ والكفاية، ورغم كل التقطع والتبعثر للأناشيد التى ألقاها زرادشت، ينبغى عدم الظن أنها غير مترابطة الفصول أو غير مطردة الأغراض متكاملة ومتداخلة فى الفكر والخيال.

وتتألف الأناشيد من خمسة «كاتات»: تتوزع على ١٧ يسنا تبدأ من اليسنا ٢٨ حتى ٣٤ تتخللها السباعية ومن ٤٣ – ٥١ وكذلك ٥٣. وهذه الأناشيد

الخمسة هي: اهونودكات - اشتودكات - سينتمدكات - وهوخشتركات - وهيشتوايشت وكل فصل من فصول الأناشيد قد سمى بأحد هذه الأسماء التى هي الكلمات الأولى منها.

٢- **الونديدا:** وهو السفر الذى وصلنا كاملا، ويطلق على كل فصل من فصوله «فركود أو بركرداد»، وهو القانون المضاد للشياطين، ويتألف من اثنين وعشرين فصلا يعرض أولها للأمور نفسها التى تعرض لها الإصحاحات الأولى من سفر التكوين وهى. خلق العالم والسموات والأرض، فيتحدث عما خلقه الله من الأراضى الطيبة المباركة واحدة بعد الأخرى، وعما أوجدته قوى الشر «انكره مينو» من الأرواح الخبيثة، وتعرض بقية فصوله للنظم التى يخضع لها رجال الكهنوت من الزرادشتيين (وهو فى هذه الفصول يشبه سفر اللاويين فى العهد القديم) وبيان العقائد والشرائع الزرادشتية المتعلقة بالموت والزواج وما إليه من نظم لأشهر مشكلات الحياة الاجتماعية والنجاسة والغسل والطهار وغسل الموتى وتطهير الملابس والبدن والصحة والقسم وحفظ العهود ونقضها.

٣- **ويسبرد:** يبحث فى الأدعية التى ترفع إلى رئيس الآلهة أهورامزدا الذى هو الإله الأعظم، ويتكون من ٢٤ فصلا ويطلقون على كل فصل «كرده».

٤- **اليشت:** وهى الأدعية التى تتلى فى الصلوات، وعند تقديم الضحايا أمام النار المقدسة، وكذلك لتقديم قربانا الهاوما، يطلق علي كل فصل «كردة».

٥- **خرده أفستا:** سمى فى الكتاب الفهلوى: خورتك ابستاك وبمعنى الأفستا الصغرى، وتشمل سلسلة من الأدعية والصلوات المختصرة التى يجب على كل زرادشتى تلاوتها فى كل الأوقات فى الصلاة والأعياد الدينية الرسمية مثل حشنها، كهنبارها، وسدره،.. وهى أكثر الكتب الدينية المنتشرة بين العامة من معتنقى الزرادشتية لبساطتها، حيث لا يخلو بيت منها وتبدأ بأشهر صلاتين لدى الزرادشتيين وهى اشم وهو، يتهاهو وئيريو..

أما «الزند أفستا» التى اشتهرت حاليا فهى تعنى باللغة الفهلوية اسم تفسير

الأفستا التى وصلتنا منذ عهد الساسانيين، وقد وردت زند فى الأفستا ازئينتى Azainti أو آزنتى Azanti من مصدر Zan وتعنى المعرفة والعلم، وقصد بذلك التفسيرات لكتاب الأفستا.

أما الكتب الدينية الأخرى، المفعمة بالتأليف والنصائح التعليمية فيرد فى طليعتها كتاب «مينوخرد» أى روح العقل، والكلام فيه يدور حول الأمور الدينية والدنيوية ويعالج الموضوع كتاب «صد در» أى المائة باب، و«دستان دينيك»، أى الأحكام الدينية، وكذلك «دين كرد» Dinkard، الذى كتب بالخط الفهلوى، والاسم الأصلى للكتاب هو «زندا اكاسية» ويبحث فى المواضيع والمسائل الدينية وكتب فى تسعة مجلدات، والقسم الأعظم كتب بقلم آذرفرنبع بورفرخزاد مويد الزرادشتيين فى القرن التاسع، فى عهد الخليفة العباسى المأمون، وهناك «البندهش» وهو من أعظم الكتب الدينية أهمية لاحتوائه على قصص وحكايات قديمة لها قيمتها عن خلق العالم وغير ذلك مما يعود على معظم الأجزاء التى ضاعت من الأفستا. وفى الفارسية الوسطى قليل من النثر الذى يفصل ما جاء مجملا فى الأفستا وذلك بالطريقة اللامحة المجملة التى نعهد بها، ويتألف هذا الكتاب من قسمين: القسم الأول يتحدث بشكل خاص عن خلق الكون، أما القسم الثانى فيحتوى قصصا وأساطير، وذكرا لملوك الدولة البيشدادية، وهى أولى الدول فى تاريخ الهضبة الإيرانية، ويمتد فيه السرد التاريخى إلى عهد ويشتاسبا وظهور زرادشت، كما يتضمن الكتاب وصفا للجبال والبحار والمدن. ومن الكتب المتأخرة أيضًا: «أرده ويراف تامة»، و«زات سبرم» وهو مؤلف من ثلاثة فصول وأهم فصوله قصتان عن كايوس وسريتو البطل.

■ ■ ■

الطبقات (بيشوران)

وردت بيشه فى الأفستا بيشترا Pishtra، وفى الفهلوية «بيشاك» وتطلق على الجماعات، الطبقات الأربع من البشر وهى: بيشوايان، وزميان، كشاوززان، دستورزان، أى الزعماء، المحاربون، الزراع، الحرفيون، وفى البداية جرى توزيع البشر إلى ثلاث مجموعات، أما الطبقة الرابعة فقد أضيفت فيما بعد، وقد نتجت عن تقسيم الطبقة الثالثة، ذكرت المجموعات الثلاث فى أناشيد زرادشت بأسماء، وفى الفصول الأخرى من الأفستا وردت بأسماء أخرى، ففى الأناشيد ذكرت تحت أسماء: خوئتو «Xoatu» وتطلق على المحاربين والأحرار النبلاء، و«وارزانة» على الزراع والفلاحين الذين يعملون فى الأرض والزراعة، وأطلقت تسمية «ايريمان Airyaman» فى اليسنا (٣٢ـ ١) و(يسنا ٣٣ ـ ٣ ـ ٤) وقد وردت هذه الأسماء معا فى الأناشيد، باستثناء اليسنا (٤٦/٥) حيث وردت كلمة خوئتو بمفردها والمعنى الحرفى لهذه الكلمة، كما وردت فى الأناشيد، وكذلك فى التفسير البهلوى (زند): هى الذات/النفس، ومصدرها من كلمة خو Xoa وقد أصبحت فى الفهلوية خويش خويشيه، وفى اللغات الإيرانية (خو ـ خوه ـ خود..) أما كلمة «وارازان»، وهى من مصدر Varez بمعنى الفل، وهى كذلك فى الفهلوية «ورزيين»، وقد أصبحت هذه الكلمة فى التفسير الفهلوى ورزشن «Varzishn» وأحيانا واروا أو والون، وارونية Varunih، ومن أجل الإيضاح أضيفت كلمة همساية وتعنى: الجار، ورز: ترد فى الأفستا بمعنى مكان، قصر، ضريح، مربع.. أيضا وتقابل الكلمة السنسكريتية: «Varjana» وقسم من العلماء اعتبرها وردن «Vardana» التى تعنى فى الاخمينية (مدينة).

أما اثيريمن التى أصبحت فى التفسير الفهلوى ايرمان erman وايرمانية وأصبحت تعنى فى المعاجم الضيف، وفى السنسكريتية فإن Aryaman تعنى

الصاحب، وفى أماكن أخرى من الأفستا نلتقى كثيرًا بائيريمن، ويعد من مجموعة ملائكة الديانة الزرادشتية، ففى الفركود ٢٢ من الونديداد جرى الحديث عن اهريمن الشيطان قد أظهر فى أرواح البشر ٩٩٩، ٩٩ نوعا من المرض، وأن ائير من (ايرمان)، (الحى، الروح) نزل من العالم الروحى بأمر من اهورامزدا، وجلب الدواء والعلاج لكل مرض من تلك الأمراض، وهكذا ينبغى أن نعتبر «ايرمان» الطبيب الأول، والملاك الذى يوكل إليه العلاج والدواء.

قلنا إن هذه الطبقات قد ذكرت بأسماء أخرى فى الأجزاء الأخرى من الأفستا وتلك الأسماء هى: اسهرون Athravan أو آتهئورن Athavran أو اتهورون Athavrun وفى الفهلوية آسروك أو آسرون Asrvn وتعنى «الموكل على النار» ويقصد منها طبقة العلماء أو الزعماء الدينيين (الطبقة الروحانية) ثانيا: رتهئيشتر Rathaeshtar أو رتهئشتاأو رتهوئشتا، وفى الفهلوية ارتشتار Arteshtar وتعنى «المحارب» «الفارس» وتطلق على المجموعة الثانية وهى (المقاتلين والمحاربين والفرسان).

ثالثا: واستريا Vastrya وفى الفهلوية واستريوش وتعنى المزارع، وهذه الطبقات الثلاث تقابل الطبقات الثلاث الهندية البراهمن: الزعماء الروحيين، خشتريا: Xshatriya المقاتلين والمحاربين، ويسيا: طبقة المزراعين.

ورد فى البند هش الفصل ١٧: فى عهد حمشيد نزلت نيران ثلاث من السماء من أجل رعاية كل طبقة من الطبقات الثلاث، ووضعت فى المعابد الخاصة بكل طبقة». وذكرت فى تاريخ إيران هذه المعابد تحت أسماء: معبد النار «آذركشسب» فى شير (آذربيجان) ومعبد النار «آذرفروبغ» فى كاريان (فارس القديمة)، ومعبد النار آذر برزين مهر فى ريوند (خراسان)، وقد كانت فى عهد الساسانيين من المزارات الشهيرة. اذركشسب: هى النار الملكية والحربية، آذرفروبغ: هى النار المؤبدية والزعامة الدينية، آذر برزين مهر: وهى نار الزراعة والفلاحة.

بــرج الصمــت

الزرادشتية كأكثر الأديان، لها طقوسها التى تتعلق بالموت.

وبالنسبة لها، فإن الإنسان يظل جسده طاهرًا مادام على قيد الحياة، فإذا فارقتها الروح استحالت الأجسام إلى رجس ونجس لا يجوز لمسها، إلا بطقوس خاصة، ولا يجوز اتصالها بالعناصر المقدسة، فلا يجوز أن تدفن فى باطن الأرض، أو تحرق بالنار، أو تلقى فى مياه الأنهار.. لأن التراب والنار والماء عناصر مقدسة لا يصح تلويثها بإلقاء النجس فيها، ولذلك أقيم لجثث الموتى فوق قمم الجبال أبراج منعزلة عالية الجدران لاسقف لها، يسمى كل برج منها (الدكما) Dekhme أو «دائيتيو كته». وتعنى مكان العدل والإنصاف. وتحمل إليها جثث الموتى نهارا على نعش من حديد، ثم تلقى فيها طعاما لجوارح الطيور.

كان كل من يلمس جثة ميت يعد ملوثا، ولا يطهر إلا بعد طقوس دينية معقدة كل التعقيد، بل إن نجاسته هذه كانت تنتقل إلى كثيرين من المجاورين له وإلى غيرهم فقد ورد فى الأفستا أنه إذا مات شخص، وكان جالسا بجواره وقت موته شخص آخر، فإن هذا الشخص الآخر يصبح متلبسا بجريمة لمس الميت، على الرغم من أنه لم يقصد هذا اللمس ولا أحدثه، ويجب عليه أن يولى مسرعا حتى يصادف فى طريقه أول رجل حى فيقف على بعد منه ويطلب منه، بصوت مرتفع أن يطهره من خطيئته بعد أن يبين له مجمل ما حدث له، فيخاطبه قائلاً: «إننى قد لمست ميتا لا حراك به ولا قدرة له على التفكير ولا على النطق وألتمس منك أن تطهرنى».

وإذا ما مات شخص بين جماعة متلاصقين، فإن الاثم إذا كان الميت من رجال الدين، ينتقل إلى ٩ أشخاص يلونه، وإذا كان من رجال الحرب إلى ٨ يلونه، وإذا كان مزارعا إلى سبعة أشخاص يلونه، وإذا رفض أحد ما طلب منه أن يقوم

بالتطهير، فإن ثلث جرم اللمس ينتقل إلى الشخص الرافض، وإذا طلب من ثان، ورفض انتقل إليه نصف الباقى من الإثم، وينتقل الباقى إلى الثالث إذا رفض.

وهناك دعاء خاص لتطهير الشوارع والطرق التى تلوثت من الجثة ويسمى هذا الدعاء «كمنامزدا».

«مزدا من يستطيع أن يحمى شخصًا ضعيفًا مثلى حينما يستعد الكافرون للاعتداء علىّ؟! أى كائن غيرك، بما لك من عقل وقوة نارية، يقوى نشاطه على تنفيذ مبدأ التقوى والاستقامة؟! مزدا، اكشف لى عن أسرار هذه المعرفة، كى تساعدنى على نشر دينك، من غيرك يستطيع لطم الأعداء، ويمدنى بكلماتك المقدسة، التى هى درعى والمجن الذى يحمينى، دلنى يامزدا على قائد مخلص حكيم متلطف يقودنى إليك، ثم اجعل زعيم ملائكتك المزود بالروح الخيرة المستنير يدنو ممن تحب، كائنا من كان تفضل فاحمنا من أعدائك أيها المقدس، هلاكا للكذب الشيطانى، وهلاكا لجميع الشياطين، وهلاكا لجميع أتباع الشياطين، الهلاك التام لك أيها الكذب! اخسأ واذهب بعيدًا عنى إلى الشمال حتى لا تعبث بخلق مزدا المبدأ المقدس».

وقد خصصت الزرادشتية طائفة معينة من الناس لإعداد جثث الموتى، وحملها إلى برج الصمت، وقررت أنه «لا يجوز أن يستقل شخص واحد من هذه الطائفة بهذا العمل، بل يجب أن يشاركه اثنان آخران يشهدان عليه، وعلى الثلاثة أن يتطهروا بعد الانتهاء من عملهم، ولا يجوز لهم مع ذلك أن يختلطوا بالناس».

■ ■ ■

سفر الروح: ارده ويراف

وجدت أدبيات كثيرة تصف أحوال الجنة وجهنم، وقد اشتهرت اثنان منهما فأشهرها لأبى العلاء المعرى وهى رسالة الغفران والأخرى الكوميديا الإلهية لدانتى، والأدب الزرادشتى أيضا لم يخل من هذه الروايات التى تجسد مصير الإنسان إلى النار أو النعيم، وهى قصة العروج إلى السماء «ارده ويراف»: وتتضمن وصفًا لرؤيا رآها مؤمن من الزرادشتيين اسمه ارده ويراف فى العهد الساسانى بطلب من الملك. وتقول الحكاية إن جماعة من حاشية الملك اختارته لتلك الرؤيا، فقد أجلسوه على منصة، تحلق حولها قادة الجيوش ورجال الدين، وقدموا له كأسا من الشراب المقدس، فترشفه حتى غلب عليه الوجد، وراح فى غيبوبة حالمة.. وبعد أن فاق من سباته بعد سبعة أيام قام بتدوين ما لاقاه فى هذا الإسراء والمعراج الزرادشتى.

وورد فى هذه الحكاية: أن سروش الملاك قد قاده ومضى به حتى بلغ موضعا يسمى مرتبة الكواكب، وهناك شاهد من لم يركنوا إلى الزهد فى دنياهم، ولم يقرأوا الكتاب المقدس، ثم مضى به إلى مرتبة القمر حيث رأى أرواح من أحسنوا عملا، وانتقلا به إلى مرتبة الشمس، ليشهد روح من ساسوا الناس بالحزم والكياسة ووصلا به إلى مرتبة الجلالة (الكزافرتاه) حيث السعادة فى غايتها، وفى خاتمة المطاف رأى إله الخير الذى أمره بأن يقص على الناس ما رأى، وكان قد شاهد نورًا ولم ير جسمًا، وهناك أيضا يطلعه على أرواح أشهر الذين يتعذبون.

يخبرنا ارده أن روح الميت تجثم على هامته لمدة ثلاثة أيام بعد الموت، وأن روح البار تنعم فى هذه الفترة، بما يهب عليها من روائح الأشجار والزهور الطيبة ويدرك الرائحة، وعقب انتهاء هذه الفترة، تأتى الروح إلى صراط جميل حيث

تتراءى لها صورة فتاة جميلة تقدم للروح الشكر، وهى صبية جميلة، متألقة، ذات ذراعين بضين، متيقظة، وذات مظهر أنيق، وبجسد مستقيم، كبير، وذات نهد بارز.. لها خمسة عشر عاماً (هادوخت ناسك) وبإظهار هويتها تضيف (قائلة للروح): محبوبة كما كنت لقد جعلتنى محبوبة أكثر بأفكارك الحسنى، وبكلماتك الحسنى، وبأفعالك الحسنى، وبدينك الجيد، جميلة، أعدتنى أيضا أكثر جمالا، مرغوبة أيضا، مرغوبة أكثر (هادوخت ناسك ـ ١٤) ثم بأربع خطوات تجتاز الروح الأفلاك السماوية، وتصل للأنوار التى لابداية لها أى الفردوس، أما بالنسبة لروح الإنسان الشرير، فإن الفتاة التى تقابله فى صباح اليوم الرابع، تكون قبيحة وتتقدم نحوه بعد رياح وأعاصير شديدة، وتخبره بكلام ينم عن السيئات التى ارتكبها.

إن بعض الموتى يستفسر عن الطريق التى اجتازها من الوجود الجسمانى إلى الوجود الروحانى، من الوجود الملىء بالأخطار إلى الوجود بدون خطر ولكن اهورامزدا يتدخل: «لا تسألها» لأنك تذكرها بالطريق المرعب الخطر، المتصل بالمفارقة، التى مرت به والتى يتركب بفصل الجسد عن الشعور»، وهذه إشارة لتحارب السفر المأساوية، ويأمر اهورامزدا بأن يقدم لها من «سمن الربيع» الذى هو بالنسبة للمستقيم غذاؤه بعد الموت.

إن هذه الفتاة الجميلة، أو الشريرة، هى الداينا: أى الروح الخاصة بالإنسان أو بشكل أصح، الذات الخاصة وهى صورة الروح فى الحياة الدنيوية، فإذا كانت الأعمال الشريرة، كانت الدانيا قبيحة، وتتمايز الداينا عن «الفوهر» (الفرافاشى) التى هى الأرواح الإلهية المجردة التى تودع لدى المؤمن لتهديه إلى الصراط المستقيم، حيث إن الفوهر تعود، بعد الموت إلى مقرها الأصلى، ولا تقدم حسابا على الأعمال، وإنما هى «الداينا» التى تقدم حسابا عن أعمالها الدنيوية، وفى نهاية المطاف تصل الداينا مع كلابها، وتقود الروح نحو جسر جنيفات ـ (الصراط) لينتهى الإنسان إما نحو النعيم، أو الجحيم، وذلك حسب الخيار الذى أنجزه الإنسان فى حياته الدنيوية.

جسر جينفات

(الصراط)

«معهم جميعا سأعبر جسر جينفات»

عندما يتجه الإنسان، فى يوم الحساب، نحو الآلهة، كى تزن له أعماله وتفرز الصالح عن الطالح، المؤمن عن الكافر، الخير عن الشرير، تقوده «الداينا» (الذات الخاصة) نحو جسر جينفات، وهناك تستقبله الملائكة على الجسر، وكما يبدو من مدلول الكلمة المركبة، فإنها تعنى تجربة امتحانية لأرواح كل العابرين من أرواح طاهرة وشريرة، وعلى هذا الجسر، سوف يتحدد مصير الإنسان نحو النعيم أو النار.

لقد انتقلت فكرة هذا الجسر إلى الكثير من الأديان الأخرى، بشكل أو آخر، وهذه الكلمة تتألف من Vi + Cl والتى تعنى المختبر، الامتحان، العارف مجددا، المقرر، وقد ذكرها النبى عدة مرات فى أناشيده، فقد ذكرها فى المقاطع (١ ـ ١١) من الفصل (٤٦) وفى المقطع (٣) من الفصل (٥١)، وفى النصوص الأخرى للأفستا جرى ذكر هذا الجسر أيضا فى يسنا (٧١) المقطع (١٦) وويسبرد الفصل (٧) المقطع (١).

«إن ذلك الرجل أو المرأة، يامزداأهورا، الذى حقق لى كل ما اعتبرته الأمثل من أجل العالم: أمنحه الجنة ثوابا على عمله المستقيم، وكذلك الأشخاص الذين أكلفهم بالدعاء لك، مع كل هؤلاء سوف أعبر جسر جينفات».

يتميز هذا الجسر بأنه رفيع مثل الشعرة، وحاد مثل هذا السيف والإمكانية الوحيدة التى تسمح بعبور هذا الجسر هى الأعمال الطاهرة، لأن الجسر يتسع أمام الإنسان الخير حيث تسمح له بالمرور، أما بالنسبة للشرير، فإن ذلك مستحيل وتؤدى به إلى السقوط فى الجحيم، وهناك نص (فيدفادا ١٩ ـ ٢٩) يؤكد بدقة أنه قبل الوصول إلى جسر جينفات المخلوق من قبل أهورامزدا، فإن أرواح الصالحين والكفار تتقدم على الطريق المخلوق من قبل «ذورفان» وذورفان:

يرد هناك كملاك للزمن.

إن الوصف الكلاسيكى يروى أن «الداينا» تصل مع كلابها وتقود روح المستقيم (أو الكافر) على جسر جينفات - (لا توجد إشارة إلى جسر جينفات فى الهادوخت ناسك رغم أن النبى زرادشت قد تكلم عنه كثيرا) وهذا الجسر يمتد من مفرق الهارا - البيرزيتى (الجبل الكونى، والواقع أن الجسر الذى يوجد فى وسط الدنيا، يصل الأرض بالسماء، أن الأرواح المستقبلة من قبل وهومنو (بهمن) تمر أمام الإله أهورامزدا والامشاسبندان، أما بالنسبة لدينونة الروح التى تكلمت عنها النصوص الفهلوية، وحيث القضاء، وهم «ميثرا» يساعده «سراوش»، و«راشنو» مزودا بالميزان، فهى غير معروفة فى الأناشيد (نلاحظ شبيها بهذا القضاء الثلاثى فى الميثولوجيا الإغريقية) إنها من جهة أخرى زائدة فى السيناريو، وأضيفت على ما يبدو، فيما بعد.. لأن عبور الجسر قابل للمقارنة بتجربة مسارية، يشكل فى حد ذاته الدينونة، والفاصل بين ذوى الأعمال الخيرة والأعمال الشريرة؛ لأن الجسر حسب مفهوم عام - إلى حد ما - يتسع تحت أرجل المستقيم، ويصبح كحد الموسى عندما يقترب الكافر.

إن الروح إذا كانت خيرة، أى حائزة لصفات ثلاث (القول الصالح، والعمل الصالح، والنية الصالحة) تصل، ولا شك، إلى عالم أرقى مما هى فيه، وهذا العالم الذى تدخل فيه الروح هو ما يسمى فى اللغات الآرية القديمة والحديثة (نينوه هيشت - بهشت) أى الفردوس. وكانت تسمى فى الأفستا القديمة (وهشتم اهيماشونام) أى مكان الطهارة، وكانت أعلى مرحلة من الجنة تسمى (كروسمان) وفى الأفستا كرونمان Grav-Nemana وإذا كانت الروح شريرة ومذنبة، تدخل عالم الآلام والمشاق أى (جهنم) حيث تلاقى العذاب الذى تستحقه على أعمالها الدنيوية وجهنم فى الأفستية هى: دوز نكهه Dujanha وتتألف منه دوز: وتعنى السى + انكهه: وهى الدار والمكان.

وهناك بين المنزلتين منزلة ثالثة تدعى هيمستيكان، وتقع بين الجنة والنار، وهى مخصصة للذين تتساوى أعمالهم الطيبة والرديئة وزنا ومقدارا، فيبقون

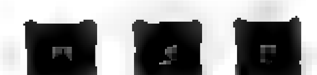
فيها منتظرين التناد، وفى هذا المكان لا يجدون أى عذاب سوى رياح تهب عليهم لا هى باردة ولا ساخنة، وهى شبيهة بالأعراف لدى المسلمين، وفى النصيحة التى يقدمها سروش لـ«دارده ويراف» عندما يسأله الأخير عن أحوال هؤلاء الذين يقيمون فى الـ«هيمستيكان» يقول له سروش: خير الناس ألا يتجاهلوا الأعمال الخيرة الصغيرة، لأنها قد تكون بالنسبة لهم ذات فائدة جمة، بحيث تحدد مصيرهم.

«أيها الحكيم، أية مكافأة تعينها للفريقين، بنارك الموقدة، وبالمعدن المذاب، أعط عنها آية للأرواح، لتسبب الضرر للخبيث والخير العادل». (يسنا ٥١ ـ ٩).

«أسألك هذا، أصدقنى القول، ياأهورا: كيف سوف يمنح الثواب النافع، فى بداية الحياة المثلى، للشخص الذى سوف ينالها؟

نعم إنه هو، أيها الحق، ذلك الطاهر، يرى كل النتائج، ذلك الصديق الذى يمنح دواء الحياة، يامزدا» (يسنا ٤٤ ـ ٢).

«أتحدث الآن عن ذلك الذى قاله لى الحكيم أهورامزدا فى بداية الحياة: إن الذين لن يتعلموا الدين بينكم، سوف تكون لهم، مثلما فكرت وقلت، أسفا فى نهاية الحياة» (يسنا ٤٥ ـ ٣).



الطقوس والشعائر في الزرادشتية

يتوجه الزرادشتيون في صلواتهم نحو النار أو الشمس، وينفون أنهم من عبدة النار، إذ يعتبرونهما تجسيدين رمزيين للإله أهورامزدا، وينبغي على المرء أن يرتل الصلوات خمس مرات في اليوم، ويقسمون اليوم إلى خمسة أوقات فهي:

١- هاون: من الفجر حتى الظهر.

٢- رفتون: من الظهر حتى الثالثة بعد الظهر.

٣- ازيرن: من الثالثة حتى الغروب.

٤- ايوسريترم: من الغروب حتى منتصف الليل.

٥- اشهن: من منتصف الليل حتى الفجر، وأشهر الصلوات عندهم هي اشم وهو، يتها اهو وئيريو، كشتي.

اشم وهو:

«الطهارة هي أفضل نعمة.

الطهارة هي السعادة.

السعادة لدى ذلك الشخص الذي يطلب الطهارة المثلى».

يتها اهووئيريو:

«مثلما يكون الرب قادرا وقويا، فإن الروح (رتو) تكون، بالدرجة نفسها، قوية بطهارتها ونقائها.

إن الروح الخيرة (وهومنو) هي من نصيب ذلك الشخص الذي يسلك مثلما تفرضها إرادة مزدا.

والسلطة الاهورائية هي لذلك الشخص الذى يساعد الدراويش والعجزة».

الأعياد والاحتفالات الدينية لدى الزرادشتيين عديدة ولها مناسبات مختلفة، من أهمها:

كهنبار: ويحتفل به فى السنة ست مرات، وفى كل مرة لمدة خمسة أيام، وهى أعياد فصلية بمناسبة الحصاد، أو قدوم الربيع، أو انتهاء الصيف.. وكهنبار هى الأيام الخمسة بين المراحل الست التى خلق فيها الله العالم واستراح فيها.

واج يشت: وهو احتفال يقام قبل مراسم كهنبار، حيث يحضر كل الموبدون فى آدريان معبد النار، ويقرأ أحدهم اليسنا وتسمى أيضا واج يشت كهنبار.

سدره بوشى: فى سن العاشرة يلبس الفتى الحزام المسمى كشتى ويجرى قراءة أدعية خاصة بذلك.

نوزودى: وتسمى دار طلب الموبد، فالشخص المختص بالعلوم الدينية، تجرى له احتفالات خاصة للقبول فى جماعة الموبدين ونوزود: تعنى الموبد الجديد.

وسابقا كانت اليسنا تتلى بشكل أكثر احتفاليا من الآن، حيث تختصر الآن على شخصين، وكانت تعتمد على ثمانية موبدين، وردت أسماؤهم فى الكتب الدينية، وكانوا يتعاونون، وحدد لكل منهم وظيفة معينة، ورئيسهم كان يسمى «زوتار» (زودى) وكان يقف وسط المعبد مقابل النار وأمامه البرسيم والأدوات الأخرى، والثانى: هاونان كان يسحق جذور الهاوما فى الهاون عند ترتيل اليسنا ويخلطها بالماء القوى، الثالث: آثره وخش كان يهتم ويعتنى بالنار، الرابع: فره بره تار موكل بتقديم كل ما يلزم زوتار، الخامس: آبرت أبا باك، يقوم بتحضير وجلب المياه، السادس:آسنه تار، يعتنى بالآلات قبل تلاوة اليسنا، السابع: ريتوشكر: ويسمى اليوم «براسفى» ويقوم بتحضير الماء القوى وتوزيعه على المؤمنين، الثامن: سروشاورز: يهتم بأمور تنظيم المعبد.

أما آيات الشهادة فقد وردت تحت ثلاثة أشكال فى الأفستا:

١- **فراونه:** وهى مختصرة جداً وواضحة، ومثلما ورد فى «سروش ياج» فإن على كل فرد أن يرتلها عدة مرات فى اليوم ويعترف بزرادشتيته.

٢- **مزديسنو اهمى.**

٣- **بيمان دين:** ولأنها لم تكن مفهومة فى عهد الساسانيين فقد وردت بلغة «بازند».

آية «فروانة»: لرضى أهورامزدا - تلاوة اشم وهو ثلاث مرات - أقر وأحمد على دين مزديسنا الذى أتى به زرادشت المناهض للشياطين، وهو مذهب أهورائى.

آية «مزديسنو اهمى»: أقر وأثبت على مذهب مزديسنا الذى أتى به زرادشت، أحمد النية الخيرة، أحمد القول الخير، أحمد العمل الخير، أحمد الدين الخير مزديسنا المناهض للحرب وسفك الدماء والسلاح، وواهب السعادة والطهارة - الأكبر من كل العقائد الحالية والأفضل والأطهر هو هذا المذهب الاهورائى - نعرف أهورامزدا خالق كل الوجود - هذه هى كلمة دين مزديسنا «آية بيمان دين: «الدين الجيد، الصادق والمستقيم الذى أرسله الله للبشر، هذا هو ما جلبه الطاهر زرادشت، دين روح اورمزد، قانون زرادشت الطاهر، صاحب الدين الجيد، نبى طاهر، طريق الطاهر زرادشت مهراسبنتمان، إنه روح غرف، بدون شك، بصدق واستقامة الدين الطاهر للإله..».

وقد شجعت الزرادشتية على الابتعاد عن الصيام، ولاسيما بالنسبة للزراع، وكذلك حثت على الزواج وتأسيس الأسر «الشخص الذى لا يأكل الطعام، لا يستطيع القيام بالأعباء الدينية، لا يستطيع القيام بأعمال الزراعة، لا يستطيع أن يزيد النسل، أثر الأكل يبقى الإنسان حيا، وأثر عدم الأكل يموت».

«الشخص المتزوج مرتبته أعلى من الشخص العازب، الشخص الذى يملك بيتا أرفع من من لا بيت له، والغنى أعلى منزلة من الفقير والذى لا يملك شيئًا، والشخص الذى يأكل من بين شخصين أفضل وأحسن من الذى لا يأكل، الشخص الأول له نصيب من الروح الخيرة، والأخير مثل الميت فى حين أن الفرد

الأول يستطيع الصمود أكثر فى مواجهة شيطان الموت، فى مواجهة الشقاء يصمد أكثر، فى مواجهة ظالم مخرب» (ونديداد ـ كرده ٣ ـ ٤).

وللطب مكانة مرموقة فى الديانة الزرادشتية، وجرى ذكر الطبيب فى فصول عديدة من الأفستا، وقد ذكر طبيب حاذق يدعى «تريته» (طرت) فى الهوم يشت الآية (١٠) «الشخص الثالث الذى عبد الملاك هو (ايزدهوم) كان يدعى «طرت».

الحق (الصدق):

جرى التأكيد فى الديانة الزرادشتية، على صراط واحد هو صراط الصدق «ايوبتا ويو آشهه» أى هناك طريق واحد وهو طريق الحق (الصدق). إن الأسس الأخلاقية لهذا الدين تحتويها الكلمات الثلاث التى تتردد على ألسنة كافة معتنقى هذه الديانة، تلك الكلمات الثلاث هى عبارة عن: هومت، هوخت، هوورشت، أى النية الخيرة والقول الخير والعمل الخير، ورغم أن الإنسان فى هذا الدين، حر الإرادة فى أن يختار صراط الصدق أو الكذب القبيح والجميل إلا أنه مكلف باختيار صراط الصدق، الصراط المستقيم، والقيام بالأعمال الصالحة، والابتعاد عن الشرور والسيئات، وكل إنسان يستطيع من خلال سعيه للعلم والمعرفة، أن يتحلى بالصفات الإلهية التى تتجلى فى ملائكته الستة «الامشاسبند»، بذلك يستطيع أن يصل إلى السعادة والكمال فى هذا العالم، ويلج دار الرب القدوس فى العالم الأخير، إلى دار الغناء: الجنة.

إن دعاء الزرادشتيين هو التالى: «أعمل كى نكون من زمرة الأشخاص الذين يساهمون فى سبيل رقى وكمال هذا العالم»، ولكى يستطيع المرء أن يساهم فى معركة انتصار الخير على الشر، والعمل من أجل التغيير الشامل للوجود عليه أن يسعى كى يتصف بصفة اشاوهيشتا، التى تعنى الصدق والاستقامة، الصدق هو الخطوة الأولى نحو الفضيلة، الصدق هو السعادة، وكذلك ينبغى على المرء أن يبحث فى نفسه عن خصائص وهومنو (بهمن) أى الروح الخيرة، حيث يجب أن يصل العقل البشرى إلى الكمال من خلال العلم والمعرفة حتى الاقتراب من نبع المعرفة الأزلى والأبدى، وكذلك ينبغى أن يتحلى المرء بصفات «سبنتا آرميتى»

التى تعنى التقوى والعطف والتواضع والمحبة والعمل من أجل سعادة ورقى العالم، وأن يعمل المرء فى سبيل بناء مجتمع عادل لكافة الناس دون تمايز أو تفاوت، وهذه تسمى الرحمة «وهوخشترا» وأن يسعى المرء لكى يتمتع ببدن صحى سليم، ومن الواجبات الدينية الحرص على نظافة الدار والحى والمدينة، من خلال التمتع بهذه الصفات نستطيع أن ننال الكمال «خرداد»، والخلود «امرداد».

يقول زرادشت: «إن على كل شخص أن يسعى حتى يتغلب من خلال النوايا والأقوال والأفعال التى توازى تغلب الحياة على الموت، الخير على الشر، الجميل ضد القبيح، والعلم على الجهل، والنور على الظلام، والعدل على الظلم.. وينبغى أن يتوكد ويترسخ فى وجدان كل إنسان أنه يحب السعى والعمل فى سبيل ذلك حتى اليوم الذى سوف تتخلص فيه البشرية من الشر الاهريمنى، وتشرق شمس العزة والاستقلال الاهورامزدى على الكرة الأرضية:

«ياأهورامزدا، بواسطة النية الصالحة وبواسطة الاستقامة المثلى وبواسطة الأعمال والأقوال الصالحة، نستطيع فى النهاية التقرب منك».

«إن الإنسان يشكل ضميره من خلال النوايا الصالحة الطاهرة»

(يسنا ٣٦ ـ ٤ ـ ٥) المنيرة (ونديداد، فركرد ١٠/١٨).

لذلك نرى أن الصدق هو الركن الأساسى الذى تتبنى عليه المزدية، ونجد الزرادشتيين يمقتون الكذب الذى هو من أكثر الشياطين المسيئة، فهم يحرمون الاستدانة لأنها تدفع المرء إلى الكذب.

«من يملك النية والفعل والقول الأفضل تجاه سبنتامينو ودين الحق، يكون (الثواب) الذى يهبه أهورامزدا هو، الكمال والخلود، وكذلك القوة والتقوى».

(يسنا ـ ٤٧/١).

«لقد ابتعد عبدة الكذب عن الروح القدس هذا، يامزدا، ولم يقم بذلك عبدة الحق، ينبغى أن يكون الأشخاص الذين هم قادرون قليلاً أو كثيرًا، عطوفين مع عابد الحق وقساة مع عابد الكذب». (يسنا ٤٧/٤).

الهاومــا

كان شراب الـ«هاوما» المسكر، هو الشراب القدسى لدى الزرادشتيين، وكانوا يعتقدون أنه يبعث فى شاربه روح الاستقامة والعفاف على عكس غيره من أنواع الأشربة التى لا تولد فى النفوس إلا الميل إلى العربدة وسرعة الغضب، وكان هذا الشراب ينتج من نسغ نبات الهاوم الذى ينبت فى المناطق الجبلية فى إيران وأفغانستان وقد كان الموبد يسحق الساق فى الهاون فى الحفلات الدينية عند تلاوة الآيات المقدسة من اليسنا وكان يخلط مع الماء القوى، ويخلط مع البرسمن (برسم) Barsvm وهى سيقان من شجر الرمان أو أشجار أخرى، وتقلم بطريقة خاصة، وكان يصب عليه أيضا الماء القوى عند تلاوة اليسنا، وكان هذا الشراب المحضر من البرسم والهاوما يشرب بعد التلاوة.

ونبات الهاوما لا يحقق ما ينشد من غاية إلا بعد أن يعصر ويرتشف على أنه قربان، بيد أن هذا النبات لا يفى بالغرض لو اقتلع ولم يعصر، وفى تلك الحالة، يكون من صنع ذلك بالنبات كمن وارى لصًا محكومًا بالموت «أنت يامن تنحينى بعيدا عن المعصرة، كأنك مثل الذى يتلصص وله الجزاء ضرب العنق». (يسنا - ١/٣).

ويشرب الهاوما شعائريا فإن المضحى، سيجاوز شرطة البشرى، ويتقرب من أهورامزدا، ويسبق ماديا التجديد الشامل، وكذلك فإن الهاوما غنى بالكزافرناه (فرايزدى) وهو سائل حلو، نارى ومنعش ومقو للباه ومبض فى آن واحد، ويذكر أن زرادشت كان يتناوله فكان يعيش حالة وجدية.

وزالت الهاوما كشراب مسكر، ولكن أبدلت بخليط من عصير ونباتات وماء ولبن، وقد أظهرت البحوث أن شعائر الهاوما، كما هو الأمر فى كثير من العبادات، هى ذاتها لدى الهنود فى الرج فيدا حيث ورد النبات تحت اسم «سوما» وهو نبات مقدس.

الماجـــا

«اجعلنا من الذين يجددون هذا الوجود»

إن الإنسـان بفضل حريته فى الاختيار بين الخير والشر لا يضمن السلامة لنفسه فحسب، بل يستطيع أن يساهم فى العمل الغفرانى لأهورامزدا، كما رأينا، فإن كل مضحى يساهم فى ظهور «العالم» وهو يعيد، فى شخصه الخاص، شرط الطهارة التى سبقت الخلط الحاصل بغزوة اهريمن.

إن وظيفة العبادة هى الأكثر اعتبارا وتبعا لشرح حديث فإن الفاعل يكتسب بواسطة (الشعيرة = يسنا) على شرط الماجا Maga، أى أنه يتمتع بتجربة وجدية تنتج التنوير وأثناء هذا التنوير يتوصل الكاهن المضحى لفصل جوهره الروحى عن طبيعته الجسدية (أى المينوك عن الكيتيك) إذ إن خلط الجوهرين كان موجودا على أثر مهاجمة اهريمن «انكره مينو» فبعد إخراج «انكره مينو» من الثقب، الذى دخل منه إلى ملكوت السماء، وذلك عن طريق الفرافاشى (فروهو) فإن الشر عن طريق انكره مينو، قد استوطن أجساد البشر، لذلك فإن الماجا تحقق شرط الطهارة والبراءة التى سبقت الخلط، وعليه فإن المضحى يساهم فى إحياء الوضع الأولى «لتغيير» العالم، وهو عمل فدائى استعمل لأول مرة من قبل المضحى زرادشت، وحتى أنه يمكن القول بأن المضحى يساهم آنئذ بعالم متحول.

إن حالة الماجا يحصل عليها، بصورة خاصة، بأضحية الهاوما (شراب الخلود) الذى يشربه الكاهن أثناء الحفلة، ويشرب الهاوما شعائريا، فإن المضحى، قادر على تجاوز وجوده المادى، ويكون قريبا من أهورامزدا، ويسبق ماديا التجديد الشامل، وهذه كان لها تأثير جلى فى التجارب الصوفية اللاحقة.

■■■

الكـزافـرنـــاه
(فرايزدى)

إن (الكزافـرناه) هـى فكرة زرادشـتـية مـحض، وهى شـعلة الهـيـة يملكهـا أهورامـزدا بامتياز، ولكنها تنساب أيضا من جبهة ميترا (مهر) وكضوء الشمس ينبثق من رأس الأسياد، ومع ذلك فإن كل كائن بشرى يملك الكزافرناه الخاصة به، والهاوما غنى بالكزافرناه.

يمكن أن نعـتـبر اليشت التاسع بأنه يتميز باحتوائه على قصة الكزافـرناه (فر)، فالملك بأمس الحاجة إليها؛ لأنها بركة سماوية تجعل العالم تحت هيمنته، فإن افتقدها قلت جدارته وعجز عن البقاء طويلا فى مكانه على العرش الملكى، وهى تظهر جليا فيمن وهبها، فقد قال الملاك آش مرة عن زرادشت «إن بدنك موهوب بالكزافرناه»، وكذلك تملكها معظم الملائكة.

على أنها فى اليخت التاسع عشر تتجسد بأشكال مختلفة، فهى تارة طائر، وتارة أخرى تتخذ صورة غير معينة وتغوص فى الماء حيث تظل مختفية، وهى على هيئة كبش جسيم فى قصة أردشير مؤسس الدولة الساسانية، وهى منقسمة إلى أنواع متباينة كالملكية والآرية والمنسوبة إلى النصر والملائكة، وفى طول العصور وعرضها ذاعت فكرة عنها، بأن كل من تسمو به الرغبة إلى الملك، وشاء التربع على العرش، عليه أن ينال الكزافرناه الخفية، ولذلك فإن المغتصبين كبهرام جوبين وبسطام لم يجدوا عونا من الشعب وقت الشدة، وأن من يملكها يجد السلطان على الأرض، وهى لا تلعن صاحبها ولا توره موارد الهلاك، وإذا لم يقع منه ما يجعله غير جدير بها، فإنها تفارقه وسلطته وتذكر الأسطورة، أن الكزافرناه بعيدة المنال، فيحاول التنين دهاكه الاستيلاء عليها، لكى يبسط نفوذه، ولكن نار أهورامزدا، تنقذ الكزافرناه الملكية، فتهرب إلى بحيرة فوركاشا حيث

تتخذ شكل ملاك الماء وتصبح «بنت المياه»، ومع ذلك يريد أهورامزدا أن تعود إلى الإنسان، فيخاطر افراسياب التورانى لاستخراجها من أعماق البحر، ويغوص فى الماء ثلاث مرات، ولكنه يفشل لأنه ليس آريًا، وفى النهاية تهرب الجلالة إلى هلمند فى سيستان وتظهر الدولة الكيانية.

المقدسات

إن احترام الثور يحتل مكانا قدسيا مرموقا فى الديانة الزرادشتية، ومما يؤكد ذلك هو أن الإله أهورامزدا قد خلق الثور والإنسان فى آن واحد، ونرى فى هذا الصنيع، الانعكاس بين المزارعين المستقرين والبدو الرحل، ولكن التناقض المعلن من قبل زرادشت يتجاوز بمشتملاته المستوى الاجتماع، إنه جزء من التقليد الدينى الوطنى الآرى الذى جرى إهماله فيما بعد، فقد وضع زرادشت بين الآثمين بيما بن فيفهانت «الذى من أجل أن يتملق شعبنا جعله يأكل قطعا من الثور» (يسنا ٣٢ ـ ١٨) وزيادة على ذلك وكما سنرى فإن النبى قد طلب عدم التقدم بالقرابين لهاوما، رغم أن بحوثا حديثة قد أظهرت أن شعائر الهاوما، كما هو الأمر فى عبادة ميثرا، لم تدان بتمامها من قبل المزدية حتى ولا فى الكتاتات، وأكثر من هذا، فإن الأضاحى بالحيوانات قد طبقت بدون انقطاع، على الأقل بالنسبة لمنفعة غير المتدينين، ومع أن الزرادشتيين الحاليين يؤكدون أن القرابين محرمة فى الديانة الزرادشتية، وهى غير مقبولة لدى الإله أهورامزدا، وقد خص الثور وهو «أشرف الحيوان» باليسنا (٢٩)، فتراه يشكو إلى أهورامزدا سوء معاملة الفلاح له، وهو يؤدى خدمته بكل أمانة.

«هل كانت الشياطين أربابًا جيدة؟ وأسألك ما يلى، إنهم يرون كيف يدفع الكارابان والأسيغ الثور للغليظ فى سبيلهم، وكذلك فإن الكافيين يعرضونه للعذاب ولا يرعونه إمنح للزاع من دين الحق» (يسنا ٤٤/٢٠).

والكلب فى الديانة الزرادشتية له أكرم منزلة، ولا أدل على ذلك من أنه مذكور ذكرا طويلا فى الكتاب المقدس، فهو مخصص بفصل ومشار إليه بعدة

فصول، وكان يجرى التأكيد على تحديد صلة الراعى بكلبه، والنص على ضرورة الرأفة به، وتهيئة مرقد له صيفا وشتاء، وعلى صاحب الكلب ألا ينساه من شريحة لحم، أما إذا غفل عن طعامه ثلاثة أيام، فللكلب الحق فى أن ينشب أنيابه فى حمل من القطيع ليسد جوعه، وذلك تشريع فيه الرعاية لحقوق ذلك الحيوان الذى يعين الراعى على حراسة غنمه، ويدفع عادية اللصوص عن داره. أما إيذاء الكلب فمن كبار المآثم والذنوب التى لا كفارة لها: مثل إلقاء عظم صلب إليه، تتهشم منه أسنانه، أو طعام حار يلتهب منه لسانه، وإذا ما زجرت أو فزعت كلبه ذات جراء، فالذنب لا تنفع معه توبة، وفى الآخرة يتولى حراسة الصراط كلبان، وهذان الكلبان لا يغيثان روح من مد يده بإيذاء كلب فى دنياه. إن نباح الكلب يطرد الشياطين، وللكلب فى الونديداد ثمانى طبقات وثمانى مهمات.. وهى التى تقود الداينا فى يوم الحساب.

والزراعة أصيلة فى الزرادشتية، مثلها مثل تأسيس الأسر، فالأرض إلى الحرث حنين «كمليحة ممشوقة القوام، طال عليها الأمد وما لها من ولد، فحنينها أبدا إلى زوج همام» (الونديداد)، ومن يحرث الأرض ويزرعها له ثواب عند الإله: «ياخالق العالم المادى! أيها القدوس! من هو الشخص الرابع الذى يوهب سعادة للأرض؟ أجاب أهورامزدا: يازرادشت اسبيتمان! إنه ذلك الشخص الذى يزرع الغلة والخضراوات والفواكه الكثيرة، الشخص الذى يروى الأرض اليابسة..» إن الزراعة من أشرف المهن الإنسانية وتختص بها طبقة الزراع: «إن من يبذر الحب يبذر القدسية، إنه يجعل قاموس مزدا يخضر ويزدهر، إن عملا مثل هذا يساوى مائة عمل من أعمال محبة الله الخالق».

«حيثما ينمو الشعير، تنزعج الشياطين، وحينما يخرج الحب تتألم الشياطين، وحينما يحصد القمح، تفر الشياطين، عندئذ لا تستطيع الإقامة فى البيت؛ لأن البيت الذى يدخله القمح تخرج منه الشياطين مذمومة مدحورة، كأن حلوقها تكوى بحديد مصهور حينما يوجد كثير من الحب لذلك لا تنسوا، أيها الناس، هذه الآية».

من أسس الديانة الزرادشتية تقديس العناصر الأربعة: النار، الهواء، الماء، التراب فلم يكن يسمح بتدنيس هذه العناصر الأربعة بوجه من الوجوه. وقد أوكل أمر كل عنصر من هذه العناصر إلى ملاك من الملائكة، والنار من أكثر العناصر تقديسا فى الزرادشتية، وقد كانت شعارًا ورمزًا لزرادشت نفسه ولدينه، ونجد زرادشت نفسه يتلو الصلوات أمام النار: «إلى من تريد أن أوجه عبادتى.. إلى نارك يجعل القربان لها من التمجيد» إن النار والشمس هما تجسيدان رمزيان للإله، فالشمس هى الشكل المرئى للرب، والنار متطابقة مع النفس المقدسة «سبنتامينو».

وتقول الروايات المزدية إن هذا الدين قد أوحى لأول مرة إلى هوشنكك الملك البيشدادى، وهوشنكك هذا هو الشخص الأول الذى أوجد النار، ودعا الناس فى ذلك إلى عبادتها، واعتبر الزرادشتيون اليوم الذى أوجد فيه النار يوما مقدسا وسموه سده، حيث هو من أيام الأعياد عندهم، ويشعل الزرادشتيون فى اليوم العاشر من بهمن نارا كبيرة، ويحتفلون بالعيد، وهو اليوم الذى انتصر فيه كاوا على الضحاك أيضًا.

وكما رأينا فإن لكل طبقة من الطبقات نارًا إلهية خاصة بها، تمنحها القوة والعون، وفيما يتعلق بالنار الأخروية التى ستلتهب عند نهاية الدورة الكونية، فإنها كما فهمها زرادشت، تقوم بمهمة التطهير الشامل، وروحنة العالم، عبر قضائها على الشرور والآفات.

«وعرفتك طاهرا، يامزدا أهورا، فى ذلك الوقت الذى توجه نحوى بهمن بسؤاله: بأى شىء سوف تعرف نفسك أيضا؟ (قلت مجيبا): مع هبة الصلاة عند نارك، حتى ذلك الوقت سوف أستطيع التفكير بالحق».

■ ■ ■

الأدب الأخلاقى فى الزرادشتية

تشكل ضمن إطار المفاهيم الدينية للزرادشتية، أدب أخلاقى فى النصائح والمواعظ التى توجه سلوك الإنسان، وتعزز له مواقع متقدمة فى المجتمع، وترفع من مكانته الروحية لينال رضى الإله ويفوز بنعمة الخلود فى دار الغناء: الفردوس. وأهم كتب النصائح التى اشتهرت، يذكرها مؤلف كتاب دينكرد: وهى آدرباد مهر اسفند - زرتشت اذرباد - اردباد زرتشت - اوشتر - بزر كمهر - خسروقبادان.

وفيما يلى مجموعة من النصائح المرشدة:

«إن الطبيعة الخيرة، هى تلك التى تملى على صاحبها أن لا يصنع بغيره أمرًا لا يريده لنفسه».

«أن يسعى إلى جعل العدو صديقًا، وجعل الشرير صالحًا، وجعل الجاهل عالميًا».

«إن الشخص الذى لا يتغلب على نفسه، لن يتغلب على أى شىء»

(مينوخرد ٨ـ٤١).

«القوى هو الشخص الذى يبعد عن نفسه الغضب والشهوات والحرص وعدم الرضى».

«النية فى الطاعة الصادقة تهلك نية الغضب» (مينوخرد ١٤/٧).

- انس كل ما مضى، ولا تقلق على ما لم يأت بعد.

– كن حميميا مع الإله والأصدقاء

– ابتعد عن كل شخص يتصرف معك بغضب وحقد.

ـ لا تشارك الغنى جدا الطعام.

ـ لا تنصت إلى الثرثار والكذاب.

ـ لا تقل سرك للرجل الثرثار.

ـ لا تطلب شيئًا من الذى لا يخجل.

ـ اختر بنفسك زوجتك.

ـ أحب المرأة الخجولة والحكيمة واطلبها للزواج.

ـ لا تسخر من الإنسان العاجز.

ـ لا تطلب من الملوك القرارات غير العادلة.

ـ لا تجلس فى الاجتماعات إلى جانب الإنسان السيئ حتى لا تعرف كرجل سيئ.

ـ لا تكرر الأحاديث.

ـ لا تكن صديقًا جديدًا للعدو القديم؟ لأن العدو القديم مثل الثعبان الأسود، لا ينسى الحقد حتى بعد مائة عام.

ـ كن للإنسان الحر، الخبير بالأعمال، الذكى والخير صديقا واسأله عن الأمور.

ـ كن صديقًا جديدًا للصديق القديم؛ لأن الصديق القديم مثل الخمر المعتق كلما عتقت، كانت لشرب القادة أفضل وأحسن.

ـ لا تحنث بوعدك أبدًا، حتى لا تفقد ماء وجهك.

■ ■ ■

أسطورة الإسكندر[1]

ذكر نوبة داراب بن بهمن بن إسفنديار

لما جلس داراب على تخت السلطنة، واحتفل مجلسه بالأكابر والأمراء والأعيان قال: «إنا لم نرزق هذه الدولة بسعى ولا جهد بل الله تعالى تفضل علينا عفوًا، ولم ير أحد أعجب من أمرنا أمرًا، فلا نؤدى شكر هذه النعمة إلا بالعدل والإحسان وما يخلد لنا بالذكر الجميل إلى آخر الزمان، والله تعالى يجعل قلوب الرعية بنا مسرورة وصدورهم بأيامنا مشروحة.

قال: فدخلت الملوك تحت طاعته، وحملت الإتاوات من الهند والروم وغيرها من الأقاليم إلى حضرته، ثم إنه ركب ذات يوم إلى الصحراء ليشاهد الخيول السوائم فى المروج والرياض فصعد فى الطريق إلى جبل عال فرأى تحت الجبل بحرًا عظيمًا فأمر بإحضار المهندسين من بلاد الروم والهند، وأمرهم أن يشقوا من تلك البحيرة نهرًا فامتثلوا أمره، ثم أمر ببناء مدينة كبيرة على ذلك النهر وسماها داراب كرد، وهى معروفة بدار ابجرد من بلاد فارس، وبنى بها بيت نار، وأسكن المدينة أصحاب الحرف الصناعية.

ولما استقر على سريره بث الجنود فى جميع أطراف الممالك واستسخر جميع الملوك ثم إنه خرج عليه رجل من العرب يسمى شعيب ين قتيب فجمع مائة ألف فارس من أولى النجدة والبأس، وأبناء الرماح والصفاح فنهض إليهم داراب فى عدد كثير فالتقوا واتصلت الحرب بينهم ثلاثة أيام، ولما كان اليوم الرابع انهزمت العرب وقتل شعيب، فأطاعه سائر ملوك العرب والتزموا الخراج إليه،

---

(١) نص الأسطورة من ترجمة البندارى لشاهنامة الفردوسى.

فنفذ داراب إلى بلادهم من يأخذ منهم خراج السنة الماضية مع خراج السنة الحاضرة، وسار من ذلك المعترك بجموعه متوجهًا نحو بلاد الروم، وكان ملكهم يسمى فيلقوس فنهض إليه من عمورية فى أكابر حضرته وأركان دولته مع عسكر عظيم فالتفوا وجرت بينهم وقعتان عظيمتان، ولما كان اليوم الرابع هرب فيلقوس وأصحابه وتركوا جميع ما كان معهم من الخيل والأسلحة والعتاد والعدة، ومضوا ورماح الإيرانيين فى أدبارهم حتى دخل فيمن سلم إلى عمورية فتحصن بها، وأرسل إلى داراب بعض دهاة حضرته مع صندوقين من الجواهر الشاهية وتحف ومبار ومماليك وجوار يسأله أن يجيبه إلى الصلح ويجنح معه إلى السلم، ويقول: «لما قصد الملك قتالى وتوغل بلادى وعزم على أخذ عمورية التى هى دار ملكى ومقر عزى لم أجد بدًا من ملاقاته وممانعته، وبعد أن جرى ما جرى فليفعل الملك الآن ما يليق بكرمه وحسبه ونسبه»، قال: فاستحضر داراب عن ذلك أعيان حضرته وأرباب دولته وعرض عليهم رسالة صاحب الروم، واستشارهم فى الأمر فقالوا: «إن الملك أعلم وهو بالرأى والتدبير أبصر، وإن وراء ستارة هذا الملك بنتًا فى غاية الحسن كأنها الشمس الطالعة، ذات قد كالسرو الباسق، وشعر كالليل الغاسق، وثغر كاللؤلؤ المتناسق، فإن رأى الملك خطبها إليه»، فأحضر الرسول وأمره بأن يقول لقيصر: «إن كنت تريد ألا ينتهك ستر الحشمة من وجه حالك فزوجنى ابنتك ناهيد التى هى وراء سترك، وجهزها إلى مع ما تقرر من الخراج»، فرجع الرسول بهذا الجواب إلى قيصر فسر بما التمسه من المصاهرة، وترددت السفراء بينهما فى تقرير الخراج وكميته، فاستقر الأمر على أن يؤدى إلى داراب كل سنة مائة ألف بيضة وزن كل بيضة أربعون مثقالاً من الذهب الأحمر، فقسمها قيصر على جميع أمراء الروم، ثم أمر جميع فلاسفة بلده أن يستعدوا للتأهب للخروج فى صحبة ابنته، ثم خرجت فى مهدها محفوفًا بالأساقفة يقدمهم سكويا وهو أعلمهم وأزهدهم، وخلف المهد ستون جارية بالأكاليل والشنوف، على يد كل واحدة منهن جام من الذهب مملوء من الجوهر، مع عشرة أحمال من الديباج الرومى المنسوج بالذهب

والجواهر، وثلثمائة حمل من الملابس والمفارش، إلى غير ذلك من النفائس التى تجلب من الروم، فلما وصلت العروس وسلمها سكويا إلى صاحبها داراب ثنى عنانه وعاد إلى بلاد فارس.

قال: فاتفق أن ابنة قيصر كانت ذات ليلة مضطجعة مع داراب فى الفراش فتنفست فشم من نكهتها رائحة كريهة فنفرت نفسه منها واهتم بسبب ذلك فجاءوا بالحكماء والأطباء فعالجوا تلك العلة منها بدواء يسمى الإسكندر فى بلاد الروم فشفيت وطابت نكهتها، غير أن تلك النفرة استمرت على قلب داراب، وكان لا يميل إليها ولا يقرب منها، وبلغ به الأمر إلى ردها إلى أبيها، فانصرفت مهمومة حزينة وقد احتوت على حمل منه ولم تطلع عليه أحدًا فلما تم لها تسعة أشهر ولدت ابنًا فسمته أمه الإسكندر تيمنًا باسم الدواء الذى وجدت عليه الشفاء، فلم يظهر ملك الروم أنه ولد داراب، وأظهر أنه ولده ثم إنه شب وترعرع فكان تظهر عليه الشمائل الخسروانية، وتسمع من منطقه المعانى البهلوانية، وكان قيصر يحبه ويؤثره على ولده إلى أن كبر ولبس وجهه طوق الشهامة، وطال منه نجاد الصرامة، فجعله فيلقوس ولى عهده والقائم مقامه من بعده، وعلمه جميع الآداب الملوكية حتى صار لا يصلح إلا للسلطنة والجلوس على سرير المملكة.

قال: وكان لداراب ولد ذو شكل ومنظر سماه دارا باسمه، ولما مضت عليه اثنتا عشرة سنة من ملكه مرض فأحضر أرباب دولته، وقال: إنى قد عهدت إلى دارا وجعلته ولى عهدى فاسمعوا له وأطيعوا، ثم مات وصار الأمر بعده لولَده.

ذكر نوبة دارا بن داراب

قال صاحب الكتاب: كان دارا هذا ملكًا قوى البطش، صعب العريكة، ريض الطبع، ذلق اللسان، مهيب المنظر، فلما جلس على السرير قال لمن حضر من أعيان المراء والأكابر: «ألا من خلع ربقة الطاعة خلعنا رأسه من جسده، ومن أضمر سوءًا أخرجناه بالسيف من خلده، ولست أريد وزيرًا ولا مدبرًا وظهيرًا، بل أنا الملك والوزير، والمستشار والمشير»، واستحضر الكاتب وأمره فكتب إلى كل

ملك من أصحاب الأقاليم كتابًا كأنه خنجر يكاد يقطر دمًا مشحونًا بالتهديد والإيعاد والمحافظة على طرائق السداد والرشاد، ثم فتح أبواب خزائن أبيه، وأطلق أرزاق العساكر، وفرق لهم شمل الخبايا والذخائر، ثم عرضهم وجعل كل طائفة منهم تحت راية إصبهبذ أصيل، وأمير كبير، ونفذ كل واحد منهم إلى طرف، وأطاعه جميع ملوك الأرض، وانثالت على حضرته رسل الهند والصين والروم وسائر الأقاليم بالهدايا والتحف والإتاوات والخدم، وبنى بالأهواز مدينة سماها زريوش، وبنى بأرض الجزيرة مدينة أخرى واسعة وسماها دارنو، وهى التى تسمى اليوم دارا، على ما قاله غير صاحب الكتاب.

قال: ومات فى عهده فيلقوس صاحب الروم فاضطربت بموته أمورة بلاده حتى قعد الإسكندر مقعد جده من السلطنة فأصلح الفاسد ولم الشعث، وكان فى ذلك العهد فى بلاد الروم الحكيم سطاطاليس ذو الذكر الشهير، فدخل على الإسكندر وقال: «أيها الملك! إن هذا التخت قد رأى مثلك كثيرًا، ولا يدوم مع من تسنمه إلى قليلاً، وأجهل من تحت السماء من لا يقبل مواعظ العلماء، وإنا من التراب خلقنا وله ولدنا، وعجز بنا أن نميل إليه ونحرص عليه فإن أحسنت بقى ذكرك ودام ملكك، وإن أسأت لم تحصد غير ما زرعت، وعن قريب تفارق التاج والتخت، وليس يأخذ بيد الملوك إلا الإحسان وبالإساءة يحرم الخير الإنسان».

فاستحسن الإسكندر كلامه، واستغزر فضله فصار لا يصر إلا عن رأيه، ويبالغ فى إكرامه حتى يجلسه معه على تخته، فجاءه رسول دارا لطلب الإتاوة المعينة المذكورة فعظم ذلك على الإسكندر، واستشاط من الغضب مستعرًا كاللهب وقال للرسول: «أخبر صاحبك بموت الطائر الذى كان يبيض بيض الذهب، وقل له إنه قد مات وإن حظك قد فات، فارتاع الرسول لجوابه وانصرف مختفيًا إلى صاحبه فجمع الإسكندر جيوشه وفرق عليهم ذخائر جده وكنوزه، وأعد واستعد، وخرج يخفق على رأسه لواء أخضر، فجاء إلى مصر ونزل عليها فاتصل الحرب بينه وبين صاحبها أسبوعًا فغلب الإسكندر واستأمن إليه أكابر أهل مصر وانضموا إليه، فارتحل بهم من مصر قاصدًا قصد إيران، فانتهى الخبر بذلك

إلى دارا فخرج من اصطخر فى جنود قد سدوا بالرماح طريق الهبوب على الرياح، وسار حتى نزل على الفرات، ووصل الإسكندر وخيم بإزائه بحيث لم يكن بين العسكرين أكثر من فرسخين، فتنكر الإسكندر وركب فى زى رسول واستصحب عشرة من خواصه يعرفون لسان افيرانيين، وكل حول قلب، وقصد بذلك أن يقف على حال عدوه عيانًا، فأتى ميم دارا فأنهى إليه أن رسولا من صاحب الروم قد وصل فأذن له، فدخل وقبل الرض ومثل قائمًا ودعا له وقال إن الإسكندر يقول: «إنى لم أقصد قتال الملك ولا منازعته فى ملكه، وإن غرضى أن أجوب البلاد، وأجول فى أقطارها وأشاهد عجائبها، ولم أضمر غير الحسنى، فإن كنت تضن بتراب أرضك أن أدوسه وتمانعنى بخيلك ورجلك غير مطلع على ما فى ضميرى ومصممًا على قتالى فأنا موافقك على ما تختار، فاختر يوما للملاقاة، فلست بالمتنكب عن مقاتلة الملوك وإن كانوا فى العدد الكبير والجم الغفير». قال: فلما وقف دارا على عقله ورأيه وشهامته وذكائه ورآه كأنه داراب أبوه قاعدًا على تخته فى تاجه وطوقه قال له: «ما اسمك؟ إلى من تنتسب؟ فقد أعجبتنى بما أرى فيك من الشمائل الكيانية، وما أظنك إلا الملك الإسكندر، وكأنك لم تخلق إلا للتخت، ولست تصلح إلا للتاج والطوق»، فقال الإسكندر: «كيف يقدم على هذا مثل ذلك الملك مع ماخص به من الدهاء والعقل؟ وإنما هذه الرسالة هو الذى حملنيها كما تحملت فأمر به الملك فأنزل فى موضع يليق به ثم لما مدوا السماط استدعاه فحضر، ولما رفع السماط جلس للشراب فأخذت السقاة فى إدارة الأقداح الذهبية، فكانت النوبة كلما انتهت إلى الرسول شرب ووضع القدح فى حجره، ولم يرده إلى ساقيه، حتى اجتمعت عنده أقداح عدة، فأعلم الساقى الملك بصنيعه، فقال: «سله عن السبب فيما صنع»، فلما انتهى إليه قال له: «أيها الشهريار! لم تحط هذه الجامات فى حجرك؟! فقال: «هكذا رسم ملوك الروم أن الرسل إذا شربوا عندهم كانت الظروف لهم فإن كان رسم إيران على خلاف ذلك فردها إلى خزانة الملك»، فضحك الملك لمقاله، وأمر بإحضار جام مملوء من الجواهر الشاهية فوضعه فى يده قال: فاتفق أنه حضر

المجلس رجل كان دارا قد أنفذه إلى الروم لطلب الخراج فبطش به الإسكندر، فلما نظر إلى الإسكندر عرفه فدنا من الملك وأطلعه على الحال وقال: «إن هذا هو الإسكندر الذى مضيت إليه أطالبه بالخراج فأهاننى فخرجت من عنده وهربت، وإنه لإدلاله بقوته أقدم على هذه الحركة ليعاين أحوال الملك ويقف على كمية العسكر، فأكثر دارا عند ذلك النظر إلى الإسكندر، فأحس بذلك وتصبر إلى أن قرب وقت الغروب فاهتبل غرة الملك وقام إلى الدهليز وخرج فركب فى أصحابه ونجوا بأنفسهم طردًا وركضًا قال: فالتفت الملك إلى مكانه فلم يجده فنفذ إلى خيمته فما وجد فيها، فأركب فى طلبه ألف فارس فاتبعوا أثره ففاتهم ولم يدركوه وانصرفوا بعد أن شارفوا طلائع الروم، وعادوا وقد فاتهم الملك اليقظان وطرف سعادتهم ناعس وسنان.

قال: ولما طلعت الشمس ركب دارا وعبر الفرات فى جيشه أجمع، فصافه الإسكندر فى جنوده يقدمهم فيول كشم الهضاب ودكن السحاب، فالتقوا ودارت رحى الحرب بينهم أسبوعًا، ولما كان اليوم الثامن ثارت دبور الإدبار فلطمت وجوه الإيرانيين بعجاج أغطش نهارهم، وأعمى أبصارهم، فغلبت الروم بعد أن كانت مغلبة، وانهزم الإيرانيون فتبعهم اسكندر فى عساكره إلى شاطئ الفرات فقتل منهم خلقًا كثيرًا، وانصرف إلى مخيمه وقد شرع أمر الروم فى الاعتلاء وأخذت نار الفرس فى الانطفاء، ولكل أجل معلوم، ولا يدوم إلا ملك الواحد القيوم.

قال: ففرق دارا رسله فى أقطار بلاده، وطير كتبه على أطراف ممالكه، وحشد وحشر خلقًا عظيمًا، واستأنف الأمر فعاد بعد انقضاء شهر وعبر الفرات، ونهض إليه الإسكندر فالتقوا واتصلت الحرب بينهم ثلاثة أيام، فقتل من الإيرانيين خلق، وكانت الدبرة عليهم، فدارت على دارا دائرة السوء فولاهم ظهره، وركب الإسكندر كالريح العاصف أثره، وأمر بأن ينادى نداء الأمان فى المنهزمين، وأوعز باستمالتهم أجمعين، فاستظل الإيرانيون عند ذلك بظل أمانه، وتمسكوا بعصم إحسانه، فأقام الإسكندر بعد هذه الوقعة فى مكانه ذلك أربعة أشهر، وفرق ما غنم من الإيرانيين على عساكره.

وسار دارا حتى وصل إلى جهرم، فاستقبله أكابر الفرس متوجعين لما أصابه فمضى إلى اصطخر، وكتب إلى أصحاب الطراف وإلى الأمراء والأعيان يستحضرهم فحضروا فجمعهم فى إيوانه وقال: «إن ملوك الروم كانوا من قبل صيدًا فى أيدينا وأضحوا الآن يصيدوننا، وأنهم كانوا أذل من الثعالب فصاروا كالنمور، وكانوا أعجز من البغاث فعادوا كالصقور، وقد رضوا من قبل أن يتركوا فى أطمار الخمول ضارعين فصاروا الآن جبابرة فى ملابس القهر رافلين فإن تعاضدتم متوازرين وتظافرتم متظاهرين كفينا شرهم ونفينا ضرهم»، وكانت عينه فى أثناء خطابه تدمع، وقلبه يكاد يتصدع، فوثب الحاضرون وقالوا: «إنا ملاقو عدونا وباذلون جهدنا فى الدفاع عن أنفسنا وأهالينا، ونصابر العدو، ويشد كل منا ذيله بذيل صاحبه» فأمر بتفريق الأموال والخيل والأسلحة عليهم حتى تجهزوا وأخذوا أهبتهم، فبلغ الخبر الإسكندر وهو بالعراق بانتعاش دارا وارتياشه وإعداده واستعداده، فأقبل إلى فارس فاستقبله دارا فى عساكر كثيرة لا يحويهم الحصر لكنهم قلوا حين خانتهم السعادة وفاتهم النصر، فالتقوا وجرت بينهم وقعة أخرى عظيمة فانهزم دارا أيضًا وهرب إلى كرمان، وأقبل الإسكندر حتى استولى على اصطخر التى كانت مستقره ومستقر الملوك الماضين قبله، فأمر فنادى مناديه: «ألا من لاذ بعصمة الأمان وآثر الطاعة على العصيان أوطأناه بساط النعم، وآمناه من مخاوف النقم، وأسونا كلمه، ورقعنا خرقه، ومن لم يقابل أمرنا بالامتثال عركناه عرك الرحى للثقال».

وأما دارا فإنه لما وصل إلى كرمان افتقد من أصحابه مقدار الثلثين، وجمع من حضره من وزرائه وقال لهم: «ماذا ترون؟ وبماذا تعالجون هذا الداء العضال؟ فقالوا: «أيها الملك! اتسع الآن خرقنا على الراتق، وغمرتنا أمواج الدواهى والبواقع، وصارت نساؤنا وأولادنا فى أسر اسكندر وتحت يده، واحتوى أيضًا على مخدرات الملك وكنوزه وكنوز آبائه الماضين وذخائر أسلافه الأكرمين، وقد انسدت علينا الأبواب سوى باب المسالمة والمداراة والرضى بأن تكون مرعيًا لا راعيًا، ومحكومًا لا حاكمًا، فاكتب إليه فى هذا المعنى كتابًا تدفع به الشر عنك

فى العاجل إلى أن يفرج الله فى الأجل، ولا يمتنعن الملك فى مخاطبته بذلك، ولا يضيقن به جنانه، فإن من يذكر النار لا يحترق لسانه «فكتب إليه كتابًا مشحونًا بالخضوع والضراعة والطواعية والاستكانة، فسأله فيه أن يكف حد بأسه عنه ويجنح معه إلى السلم، ويعده فيه أنه إن رد إليه مخدراته وحرائره سلم إليه دفائن كشتاسب وذخائره، ولا يخرج بعد ذلك عن طاعته، ولا يعدل عما يعود بمظاهرته ومعاضدته، فلما وصل على الإسكندر كتابه كان من جوابه له أن قال: «إن مخدرات الملك مستقرات بأصبهان، ومعاذ الله أن يتعرض لهن أحد، أو يمتد إلى ذخائرهن منا يد، وأنت إن نشطت إلى الرجوع إلى إيران فليس لك من ذلك مانع ولا دافع، والممالك كلها لك وبحكمك، ونحن مطيعون لأمرك» فلما وصل الجواب إلى دارا قضى العجب من تصاريف الزمان ودوائر الحدثان، وقال: أصعب من القتل عندى أن أشد فى خدمة الرومى وسطى، وإذا آل الأمر إلى ذلك فالموت ولا هذا الصوت، والقبر ولا هذا الصبر، وإذا طما البحر زاخر العباب فلا موقع عنده لقطر السحاب».

ثم إنه لما عجز عن جميع وجوه الحيل كتب إلى فور ملك الهند كتابًا يذكر فيه ما دهاه من البائقة التى لم تبق له باقية، والداهية التى صارت منته لها واهية، ويسأله أن ينجده على أن يحمل إليه من الجواهر ما يملأ كنوزه ويغنى جنوده فبلغ ذلك إلى الإسكندر فركب وطار بجناح الكض إلى كرمان، فصافه دارا بمن كان معه من أصحابه فانتفضوا فى أسرع من رجع الطرف ولمع البرق، واستأمن إلى الإسكندر أكثرهم، وهرب دارا فى ثلاثمائة فارس.

وكان معه دستوران لا يفارقانه ليلاً ولا نهارًا ويصحبانه سرًا وجهارًا، يسمى أحدهما ماهيار والآخر جانوشيار، فقال أحدهما لصاحبه: «إن هذا الشقى لن يرى بعد هذا التاج والتخت، والرأى أن نغتاله ونتوسل بقتله إلى الإسكندر، فإنه يرفع بقدرنا وينوه بذكرنا، ويولينا بعض الأقاليم». فوافق الغادران على ذلك، فلما جن الليل بينا دارا يسير بينهما إذ ضربه جانوشيار بمزراق فأنفذه فيه فانقلب عن ظهر الفرس صريعًا، فتركاه على حاله وأقبلا على الإسكندر، وهو

على الأثر، فقالا له: «أيها الملك! إنا قتلنا عدوك منافسة، فليهنك التاج والتخت»، فقال: «إن كنتما صادقين فأوقفانى على مصرعه»، فسارا بين يديه إلى أن أوقفاه على دارا، فنزل إليه الإسكندر، وأمر بأخذهما والاحتياط عليهما فى حفظهما، فرع رأس دارا ووضعه فى حجره، ومسح وجهه بيده، وبكى حتى تساقطت عبراته على خده، ورفع التاج عن رأسه، وحل أزرار جوشنه، وأخذ يلاطفه ويقول: «أيها الملك! إن استطعت فقم واقعد فى المهد، وإن قدرت فاركب الفرس فإنى أجمع عليك أطباء الروم والهند حتى يعالجوك، وإذا شفيت سلمت إليك التاج والتخت وأفوض هذه الممالك إليك، وسأبكى عليك دمًا لما أراه بك وكيف لا يكون هذا وأنا وأنت تفرعنا من جرثومة واحدة وقددنا من أديم واحد وسأصلب الفاتكين بك المغتالين لك». فلما سمع دارا ذلك منه دعا له واثنى عليه ووصف له ما أوتيه من جلالة القدر وفخامة الأمر وعلو الشأن وروعة السلطان وكيف تقلب به الزمان حتى صار كما يراه ذليلاً وبأيدى عبيده قتيلاً، ثم أوصى إلى الإسكندر بتقوى الله والإحسان إلى الخلق عامة وإلى أولاده ونسائه وأقاربه خاصة، وسأله أن يتزوج بابنته المسماة روشنك، وقال: «لعلك ترزق منها ولدًا يجدد اسم إسفنديار، ويزين بدين زرادشت الديار، ويحافظ على خدمة النيران وإقامة مراسم النوروز والمهرجان، حتى لا تتمحى آثار كشتاسب ولا يزول رسم لهراسب». فتقبل الإسكندر وصيته، ووعده أن يقرن بالإسعاف مسألته، فأخذ دارا بيده ثم وضعها على فيه ثم ودعه وخرجت روحه، فبكى الإسكندر ونثر على تاجه التراب وشق على نفسه الثياب، فعمل له ناووسًا على مقتضى دينهم وشريعتهم، ونصبوا فيها تختًا كمن الذهب، وكفنوه فى الوشى والحرير، وعمروه بالمسك والكافور، ووضعوه فى تابوت من الذهب، ثم حملوه والإسكندر يمشى بين يديه راجلاً فى جميع أكابر الروم والفرس حفاة حسرًا إلى أن أدخلوه إلى ناووسه ووضعوه على سريره، ثم سدوا بابه، ثم أمر الإسكندر بنصب جذعين عند الناووس، وصلب اللذين غدرا به حيين، وأمر برجمهما فرجما عبرة لمن نظر وموعظة لمن اعتبر.

فلما رأى الإيرانيون حسن سيرة الإسكندر وما دارى به دارا فى حياته، وعامله به بعد مماته، تسارعوا إلى طاعته وتصافقوا على الرضى بسلطنته، وأطلقوا الألسنة بالثناء عليه، ورفعوا الأيدى بالدعاء له قال: فقدم من كرمان إلى أصفهان بعض أصحاب الإسكندر فبلغ سلام إلى مخدرات دارا وأصحابه، وأعلمهم بما جرى عليه، وأخبرهم بما فعل الإسكندر معه من المراعاة والمداراة وما أوصى به إليه، وأن الإسكندر حلف بالأيمان المغلظة أنه لم يضمر له سوء الذى جرى عليه ولم يرصده له، ولكنه من بيته نبغ عدوه، فوعدهم الرسول عن لسان الإسكندر ومناهم وسلاهم وعزاهم، وأخبرهم بأن الإسكندر قد أصبح داراهم، ثم ركب من كرمان متوجهًا نحو اصطخر معتصبًا بتاج الشرف والفخر، والله مالك الملك، يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير.

ذكر الخبر عن سلطان الإسكندر بممالك إيران

قال: لما جلس الإسكندر على سرير السلطنة وعظ من حضر، ونصح وقال: إن أبوابنا مفتوحة للمتظلمين، ولو أتونا فى جنح الظلام لكنا بأيديهم آخذين، وإذ توجنا الله بتاج السيادة وفتح لنا أبواب السعادة فحق علينا أن نحسن إلى الرعية برًا وبحرًا وحرثًا وسهلاً، وقد أعفيناهم عن خراج خمس سنين، ولا نتعرض إلا لمن يدعى مشاركتنا فى الملك أو كان من المارقين، وسنغنى بأيادينا جميع الفقراء، ولا نمد بأيدينا إلى ما فى أيدى الأغنياء.

ثم استحضر الكاتب فكتب إلى اصبهان إلى زوجة دارا كتابًا يعزيها فيه، وشحنه بأنواع من التلطف والتعطف، وقال فيه إن دارا زوجه ابنته روشنك، وشهادات الحاضرين بذلك ناطقة، فجهزوها وأرسلوها فى مهدها إلى إصطخر فى صحبة مويذ إصبهان وأكابر إيران، وكتب فى هذا المعنى كتابًا آخر إلى روشنك ونفذ الكتاب على يدى فيلسوف فلما وصل أكرمته زوجة دارا فأحسنت إليه وأحضرت الكاتب وأمرته أن يكتب جواب كتابه، فكتب كتابًا يشتمل على ذكر توجعها على صاحبها وتسليها بمكان الإسكندز بعده، وأنها تسأل الله تعالى إدامة

ملكة وقالت: «قد بلغنا ما عاملت به الملك وظهر منك من الشفقة والعاطفة، وما أقمته من مراسم عزائه، وصنعته من الاقتصاص له من أعدائه، وأنت الآن لنا بمنزلة ذلك الملك الدارج، فلازلت ممتعًا بشرف المراتب ورفعة المعارج، مخلد الذكر على تعاقب الأيام وترادف الشهور والأعوام، وأما ما ذكرت من حال روشنك فإنا قد سررنا بهذه المصاهرة المباركة، فالله تعالى يقرنها بالخيرات والسعادات، وهى أمتك ونحن جواريك مصرفات تحت أوامرك». وردوا الفيلسوف بجواب الكتاب فلما عاد إلى الإسكندر أخبره بجلالة قدر روشنك وفخامة شأنها، وما شاهد فى دارها من البهاء والأبهة والرواء والروعة، فأعجبه ذلك، ثم نفذ إلى عمورية واستقدم أمه، فلما قدمت عليه أرسلها إلى إصبهان، وأصحبها تاجًا وسوارًا وطوقًا مع أحمال من الثياب وغيرها، وثلاثين ألف دينار برسم النثار، وثلاثمائة من الجوارى الروميات، وصحبها عشرة من علماء الفلاسفة ليترجموا بين يديها فلما قربت من إصبهان استقبلها أعيان المدينة وأكابرها وعلماؤها وأماثلها وتلقتها زوجة دارا فدخلت بها وأنزلتها فى إيوانها.

ثم هيأت جهاز ابنتها وفيه من الذهبيات والفضيات والملابس والمفارش أحمال محملة مع ما انضم إلى ذلك من الخيل والأسلحة، ورتبت أربعين مهدًا لمن يصحب مهدها من النساء من الحرائر والإماء. قال: وأعدت لها خاصة مهدًا على رأسه مظلة مرصعة، فخرجت مع أم الإسكندر متوجهة إلى إصطخر فلما وصلت ورآها الإسكندر تعجب من جمالها وكمالها وحسن سمتها وحيائها. ولما تمت له هذه الوصلة وطنت ملوك إيران وأكابرها النفوس على طاعته وملازمة الإخلاص فى خدمته، فعمر من تلك الممالك ما خرب من بلادها، وغمر بالعدل والإحسان أهل رباعها وديارها. قلت: ومن آثار عمارة الإسكندر فى ممالك إيران مدينة بإصبهان يقال لها جىّ بنيت على مثال الحية وثلاث مدائن بخراسها منهن مدينة هراة ومدينة مرو، ومدينة سمرقند.

قال: ولما استتبت أموره بإيران عزم على قصد ملك من ملوك الهند يسمى كيدًا، وجر العساكر إليه، وسار إلى أن وصل إلى مدينته التى تسمى ميلاب،

فنزل عليها وكتب إليه كتابًا يأمره فيه بالخروج إلى خدمته، والدخول تحت طاعته، فلما وصل إليه الرسول ووقف على الكتاب أكرم الرسول وأجلسه بجنبه وأحسن إليه، وكان قد رأى رؤيا فقصها على معبر من البراهمة فأشار عليه فى تعبيرها بطاعة الإسكندر وترك مخالفته، فكتب جواب كتابه، وذكر فيه أن له أربعة أشياء لا يملكها أحد غيره، ولا مثل لها فى جميع العالم، قال: وإن أمر الملك نفذتها إليه ثم حضرت بنفسى بين يديه، فبعث الإسكندر إليه يسأله عن الأشياء الأربعة، فقال: أحدهما بنت وراء سترى ليس لها نظير فى الحسن والجمال وكمال الآداب، والثانى جام إذا ملأته بالماء أو بالشراب لم ينقصه الشرب منه وإن شربت منه مع الندماء عشر سنين، والثالث طبيب إن أقام مع الملك لم يصبه داء مدة حياته، والرابع فيلسوف يخبر الملك بجميع ما يكون قبل وقوعه، فنفذ إليه الإسكندر تسعة أنفس من ثقاته ومشايخ فلاسفته ليستوضح ما قاله، ويقف على صحته، فلما أتوه أمر بتزيين ابنته ثم أذن لهم فى الدخول إليها، فلما وقعت أبصارهم عليها بهتوا لما شاهدوا من صورتها وجمالها، واعترتهم حيرة، وغشيتهم سكرة حتى بقوا عندها زمانًا طويلاً وهم لا يشعرون، فلما أبطئوا على الكيد أرسل إليهم يستحضرهم فلما حضروا قال لهم: «قد أطلتم عندها المقام»، فقالوا: «أيها الملك! إنا لم ننظر إليها، ولما تمت رؤيتنا لها، ولا لبسنا عندها أكثر من سلام وجواب»، ثم أنهم كتبوا إلى الإسكندر يعلمونه بصفة البنت، فأرسل يطلبها مع الجام والطبيب والحكيم فبادر كيد الامتثال، وجهز بنته، ونفذها إليه الأشياء الأخر، فبنى بالعروس وأعجبه ما رأى من جمالها وكمالها، ثم تفرغ لتجربة الفيلسوف فنفذ إليه جامًا مملوءًا من السم، وأمره أن يطلى به أعضاءه حتى يزول عنه تعب الطريق ونصبه، فرمى العالم فى الجام ألف إبرة، ورده إليه فأمر الإسكندر فسبكت الإبر، وجعلت بيضة حديد ونفذها إلى الحكيم، فعمل الحكيم منها مرآة مصقولة وبعثها إليه، فأخذها الإسكندر ودفنها تحت الأرض حتى نديت وصدأت ثم ردها إليه فأخذها وجلاها وصقلها بأدوية مركبة بحيث لا يعود جوهرها يصدأ بعد ذلك وردها إلى

الإسكندر، فأحضره الإسكندر وسايله عن مقاصد ما جرى من الرموز. قال: «أردت بإلقاء الإبر فى السم الإشعار بأن السم ينفذ فى المسام ويتغلغل حتى يبلغ اللحم والدم والعظم مثل صنيع الإبر، وأما سبك الملك الإبر واتخاذها بيضة حديد فهو إشارة منه إلى أن قلبه قد صار فى هذه الخطوب والوقائع مثل بيضة الحديد، فهو لا يدرك المعانى الدقيقة والرموز الخفية، فعملت منها مرآة إشارة إلى أنى بحذقى فى صناعتى ومهارتى فى علمى أصير قلب الملك كالمرآة فى الصفاء، وأما رد الملك إياها صدئة فهو إشارة منه إلى أن قلبه كان كالمرآة ولكنه صدئ من كثرة إراقته الدماء، فصقلتها ثانيا ورددتها إليه إشعارًا منى بأنى سوف أجلو بالعلم السماوى قلبه، وأنفى عنه كل غين ورين، فاستحسن الإسكندر ذلك منه وأمر بإحضار جملة من الذهب والفضة والثياب مع جام مملوء جوهرًا، وأمر بدفع جميع ذلك إلى الفيلسوف فامتنع من قبوله وقال: «إن معى جوهرًا مكنونًا لا يحوجنى فى الليل إلى حارس، ولا أخشى عليه فى الطريق من سارق، ويكفينى من هذه الدنيا مطعم وملبس، ولا تسرنى الزيادة عليهما، وأكره أن أكون حارسًا لغيرهما»، فتعجب الإسكندر من ذلك وقال: «إنى مؤثر لرأيك الثاقب وكلامك النافع وعلمك الوافر».

قال: وأمر بإحضار الطبيب فسأله عن أعظم أسباب الأمراض فقال: «أن يأكل الرجل فاضلاً عما يحتمله المزاج، ولا يضبط نفسه عند حضور الطعام»، ثم قال: «وإنى سأركب لك دواء إذا استعملته كنت أبدًا صحيح الجسم، قوى النفس، مسرور القلب، مشرق اللون، منجذب الطبع إلى أعمال الخير، ثم لا يعتريك معه الشيب، ولا يضرك كثرة الأكل، ويزيد فى شهوتك وحفظك ودمك، ولا تحتاج بعده إلى شرب دواء آخر»، فقال الإسكندر: «إن فعلت ذلك كنت عندنا الموقر المكرم»، وخلع عليه وأكرمه وقدمه على جميع من بحضرته من الأطباء فصار إلى بعض الجبال وجمع الحشائش التى هى أخلاط هذا الدواء ولما فرغ من عمل الدواء الجبلى غسل به عقب الملك، وكان من بعد يلازمه ويحفظ صحته. قال: وكان الإسكندر كثير الباه مكثرًا من الاستمتاع بحظاياه، فأحس الطبيب بضعف

فى مزاجه، وقال: «أنا نشيط النفس قوى المزاج»، فلم يقبل الطبيب ذلك منه وركب دواء يزيل الضعف، فنام الإسكندر تلك الليلة وحده ولم يقرب أحدًا من نسائه، فلما أصبح الطبيب دخل بالدواء عليه فنظر إلى دليله فأراق ذلك الدواء، وقعد مع ندماء الملك فى مجلس العيش والطرب، فقال الإسكندر: «ما الذى أوجب إراقتك للدواء بعد أن تعبت فى تركيبه؟» فقال: «إن الملك قد نام البارحة وحده فزال عنه ذلك الضعف، وإذا نمت أيها الملك منفردًا لم تحتج إلى الدواء أبدًا» فضحك الإسكندر وتعجب من حذقه ثم أمر له بخلعة وبدرة من الذهب، وفرس أدهم ذهبى السرج واللجام.

ثم إنه أمر بإحضار الجام الأصفر فجاء به مملوءًا من الماء البارد فجعل الحاضرون يشربون منه من أول النهار إلى وقت النوم فلم ينقص ماؤه، فتعجب الملك وقال: «إنه لا نظير للهنود فى الصناعات والعلوم، وإنهم وإن كانوا قد حرموا حسن الوجوه فقد رزقوا حسن الأفعال، ونحن بعد هذا لا نقول فى بلادهم بلاد الهند بل نقول بلاد السحر» فالتفت إلى الفيلسوف وسأله وقال: «زيادة الماء فى هذا الجام مستندة إلى النجوم أم الهندسة؟» فقال: «أيها الملك! لا تستصغر شأن هذا الجام، فقد صرفوا إلى صنعته زمنًا طويلاً، وقاسوا منه تعبًا كثيرًا، ولما عزم الكيد على اتخاذه جمع عليه حذاق المنجمين، واستحضر من أهل كل إقليم أعلمهم بصناعة التنجيم، فطبعوه على طبائع النجوم فهو يجذب بخاصيته الماء من الفلك بإذن الله، ويستدره من الهواء بحيث لا تدركه حاسة نظر الإنسان، وهو كحجر المغناطيس فى جذبه الحديد فلا يزال مملوءًا لا يتطرق إليه نقصان، فتعجب الإسكندر وقال: «إنا نكتفى من الكيد بهذه الأشياء الأربعة، ولا ننقض عهده أبد الدهر، ولا نطالبه بشىء آخر مدة العمر»، ثم إنه أوقر مائتى دابة ذهبًا وجوهرًا، وصار بها إلى بعض تلك الجبال وحفر فيها حفائر كثيرة، وكنز فيها تلك الأموال الوافرة، وأهلك الذين تولوا حفرها وقاسوا أمرها.

– مسير الإسكندر إلى قنوج وما جرى بينه وبين ملكها

قال: ثم ارتحل الإسكندر من ميلاب وتوجه إلى قنوج، وكان لها ملك يعرف

بفور، فكتب إليه كتابًا قال فيه: «وإذا وقفت على هذا الكتاب فتحول من ظهر التخت إلى ظهر الفرس، وأقبل إلى الخدمة، ولا تشاور أحدًا فى ذلك حتى لا يطول عليك الأمر». فلما وصل الكتاب إليه استشاط الهندى وهاجت زبراوه وتنمر، فأجاب عن كتابه وقال فيه: «الحمد لله الذى لم يجعلنا ممن يتعدى فى كلامه وطوره، ولا ممن يتهجم على أمر لم يسبر غوره، كيف تستنهض مثلى إلى خدمتك ولا تشاور نفسك ولا تراجع عقلك؟ وكأنك لا تعلم أنى فور بن فور الذى لم يحتفل قط بأحد من القياصرة، فإن كان أبوك تجاسر من أبى على مثل ذلك فتجاسر عليه، وكأنك اغتررت بنكبة دارا حين انقضت أيامه، وأخفر ذمامه، فأقبلت مدلاً ببأسك وشدة مراسك، فلا تظهرن فى الإقدام علينا جسارة، ولا تأمنن فى الجرأة على معاملة الملوك خسارة». فلما وقف الإسكندر على جوابه استعد لقتاله وسار إليه، وكانت الطرق إلى بلاده وعرة فأبدع بأكثر عساكره، فضج الروم منهم إليه وقالوا: «الرأى أن نرجع عن هذا الوجه» فاغتاظ الإسكندر وزجرهم وقال: «حسبى الله ناصرًا، ثم فرسان إيران أنصارًا، فارجعوا أنتم فما لى فيكم من حاجة». فاعتذروا إليه عند ذلك واستقالوه العثرة فصفح عنهم الملك، ثم أنه قدم مائة ألف فارس من الإيرانيين وأتبعهم بأربعين ألفًا من الروم، ورتب خلف الروميين أربعين ألفًا من فرسان مصر وآسادهم المذكورين، وسار بنفسه خلفهم فى اثنى عشر ألفًا من أكابر إيران، وأقارب دارا المنتمين إلى الشجرة الكيانية والدوحة الخسروانية، ومعه ستون نفسًا من فلاسفة الروم وعلمائهم المنجمين، فلما بلغ الخبر بذلك إلى فور حشد واحتشد وبرز فى جنوده وفيلته فقال للإسكندر من كان معه من دهاة الهند: «إن مع فور فيلة عظامًا لا تستطيع خيلنا بين يديها ثباتًا ومقامًا». فاجتمع أصحاب الرأى وتفكروا فى الاحتيال لدفع معرة تلك الفيلة، فعملوا صورًا من الحديد مجوفة على أشكال الخيل، وعليها ركابها بصفتها وكيفيتها لكى يحشوها نفطًا ويطرحوا فيها النار عند الملاقاة، حتى إذا صدمتها الفيلة احترقت خراطيمها وولت، فارتضى الإسكندر ذلك واستحسن ما عملوا فأمر من كان معه من صناع مصر والروم وغيرهم فعملوا

صورًا كثيرة على ذلك المنوال وحشوها بالنفط، واجتروها إلى المعترك، ولما كان يوم القتال صف منها الإسكندر صفوفًا مرصوصة فأقبل فور في جموعه وفيوله، وشياطين رجاله وخيوله، فأمر الإسكندر بإلقاء النار في أجواف الصور فاضطرمت، فتقدمت الفيلة فأشرعت خراطيمها نحوها لتختطفها، فلما وجدت مس النار نكصت على أعقابها، وقلبت ظهر المجن على أصحابها، وأنحت عليهم بخراطيمها وأنيابها، فانهزموا وركب الإسكندر بأصحابه أكتافهم، وأتبعهم إلى أن غربت الشمس فنزل بين جبلين، وبث الطلائع وأمر بحفظ الطرق. ولما تنصب حاجب الشمس وتشعشعت أنوارها ارتجت الأرض بأصوات البوقات ونفخات القرون والنايات، واصطفت عساكر الهند كظلمات بعضها فوق بعض، فتلقاهم الإسكندر بصفوفه وجنوده، فلما تقابل الفريقان وتوازى الجمعان خرج الإسكندر من الصف وبيده سيف مهند فنفذ فارسًا إلى فور يسأله أن يبرز إليه من الصف ويسمع كلامه شفاهًا فخرج إليه فقال له الإسكندر: «إني وإياك ملكان متنازعان، وكل واحد منا يمت بشجاعته ويدل بقوته، فلا ينبغي أن يكون القتل والقتال نصيب عساكرنا، والرأي أن نتبارز، وكل من غلب منا يكون له الأمر على عساكر صاحبه ليستريح هذا العدد الكبير والجم الغفير من القتل والفتن، فأفكر فور فرأى نفسه في قوته كركن من علم، ورأى الإسكندر في نحافته كشقة قلم، ورأى تحته فرسًا كثعبان، ورأى تحت الإسكندر فرسًا كقضيب بان، فاغتنم إجابته إلى المبارزة، ووثق من نفسه، فتقدم الإسكندر، وكأنه خاطبه بما عبر عنه الشاعر حيث يقول:

هلم إلى نحيف الجسم مني ... لتنظر كيف آثار النحاف

ألم تر أن طائشه لظاها ... نتيجة هذه القضب العجاف

ولي جسد كواحدة المثاني ... له كبد كثالثة الأثافي

قال: فتبارزا وتصاولا ساعة فأوجس الإسكندر خيفة في نفسه وندم على مبارزته إياه، فاتفق أن سمع الفور جلبًا وشغفًا من خلفه فالتفت فضربه

الإسكندر بسيفه ضربة نزلت من عاتقه إلى صدره، فخر قتيلاً، وماج الهنود بعضهم فى بعض فعزموا على الثبات للحرب، فنادى منادى الإسكندر: «ياأكابر الهند! ما بالكم تقدمون على إراقة الدماء وتخوضون غمرة الهيجاء؟ اعلموا أن الإسكندر قد صار فورًا، فلا تستشعراو منه حذارًا ولا نفورًا. واستأمنوا إليه، وعولوا فى حفظ نفوسكم عليه»، فلما علموا بقتل ملكهم طرحوا الأسلحة فبادروا إلى خدمة الإسكندر حاسرين، وتمسكوا بعصم الأمان مستجيرين، فرد الإسكندر عليهم أسلحتهم، ووعدهم ومناهم وقال: «إن خزائن صاحبكم على حرام، وسأفرقها عليكم، فلا تطرقوا إلى قلوبكم حزنًا، وثقوا منى بالحسنى، فأنى سأجذب بأضباع الهنود وأجعلهم أصحاب الأعلام والبنود، ثم إنه دخل إلى دار ملك فور وجلس على تخته وأقام به شهرين وفرق جميع ذخائره ودفائنه على المعسكرين، وكان فيهم بهلوان كبير يسمى شورك فولاه ممالك الهند، وأقامه فيها مقام نفسه، وأوصاه وقال: «إياك واكتناز الذهب فإنه للذهاب ولا تعمر خزائنك فإن مصيرها إلى الخراب»، ثم ارتحل منها موصول الحاجة بالنجاح وسار قاصدًا قصد الحجاز.

وصول الإسكندر إلى بيت الله الحرام

قال: فسار الإسكندر موليًا وجهه شطر المسجد الحرام لزيارة بنية إسماعيل عليه السلام التى أضافها الله المنزه عن المكان إلى نفسه ودعا بيته الحرام، وإنما نسبه إلى نفسه ليعرف الناس طهره، ولكى يولوا وجوهم شطره، ويأتوه من كل فج عميق، وينثالوا عليه من كل مرمى سحيق، ولم يزل منذ كان موطنًا للطاعات ومهبطًا للخيرات قال: ولما وصل الإسكندر إلى القادسية بلغ الخبر إلى نصر ابن قتيب، وكان ممن يتزين به الحرم، فركب فى جماعة من فرسان العرب، وأقبل إلى الإسكندر، ولما قرب من مخيمه تقدمه فارس وأخبره بوصول نصر، وأعلمه أنه من أولاد إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن، فاستقبله الإسكندر وأوسعه تبجيلاً وإعظامًا، وتفخيمًا وإكرامًا، فسر نصر بذلك ثم أخبره بنسبه وأفضى إليه بعجره وبجره، وسأله الإسكندر ذات يوم وقال: «أيها السيد الصادق!

من الذى يتولى أموركم ويتقلد السلطنة فى بلادكم؟» فقال: «أيها الملك! إن صاحبها رجل يقال له خزاعة، وإن إسماعيل لما توفى جاء قحطان من البادية فى عسكر كثير فاستولى على ممالك اليمن والحجاز، وانتزعها من أيدى آل إسماعيل فملأها ظلمًا وجورًا، وقتل خلائق من أهلها صبراً، ولما مات قحطان خلفه خزاعة فبقيت البلاد تحت ظلمه وحكمه فهى الآن من أقصى اليمن إلى بحر مصر فى يده وبأمره، وآل إسماعيل مستشكون من جوره وحيفه»، فلما سمع الإسكندر ذلك قهر خزاعة ومن ينتسب إليه فانتزع الملك منهم وقرره فى ذرية إسماعيل، ثم قصد الكعبة المعظمة راجلاً وطاف بها، وأفرغ على أهل الحرم أموالاً كثيرة حتى أغناهم أجمعين، ثم أعطى نصرًا كنزًا من الذهب وارتحل من مكة مشكور السعى موفور الأجر.

عبور الإسكندر إلى ديار مصر وما جرى بينه وبين قيذافه ملكة الأندلس

قال: فجر العساكر إلى جدة، وأمر أصحابه باتخاذ السفن والزواريق، وركب البحر وعبر إلى ديار مصر، فاستقبله ملكها، وكان يسمى قيطون، بالهدايا والتحف والمبار والخدم، فدخل مصر وأقام بها سنة. قال: وكان ملك الأندلس إلى امرأة كانت تسمى قيذافه، وكانت ذات شوكة عظيمة وعساكر كثيرة وممالك فسيحة، وكانت قد نفذت إلى مصر مصورًا وأمرته أن يبصر الإسكندر ويرسم صورته على حريرة يحملها إليها، فجاء المصور وصور صورة الإسكندر قائمًا وقاعدًا وراكبًا، متبذلاً ومتجملاً، حاسرًا ومتسلحًا، فانصرف بها إلى صاحبته، فاتفق أنه جرى ذات يوم عند الإسكندر ذكر قيذافه، فسأل الإسكندر عن حالها قيطون ملك مصر، فوصف له ما تخصصت به هذه المرأة من بسطة ملكها ونفاذ حكمها، وذكر أن لها مدينة من الحجارة طولها أربعة فراسخ فى عرض مثلها وهى مشحونة بالأموال والرجال فكتب إليها الإسكندر كتابًا يأمر فيه بالتزام الخراج له وأدائه إليه، وتوعدها بأنها إن لوت رأسها عن ذلك لم يخاطبها إلا بالسيف، وجعل ينبهها على الاعتبار بدارا وفور، فإن فى الاعتبار بهما ما يغنيها عن ناصح يرشدها إلى سبيل الطاعة، فلما وصل الكتاب إلى قيذافه أجابت عنه على

مقتضى غلوائها بما لم يرضه الإسكندر، فارتحل فى عساكره قاصداً قصدها وسار مسيرة شمس فوصل إلى مدينة حصينة من حدود ممالكها، وكان عليها ملك يسمى فيران صاحب شوكة وثورة، فحاصرها الإسكندر ونصب عليها العرادات والمجانيق ففتحها بعد أسبوع، ولما دخل المدينة منع عساكره عن إراقة الدماء، وكان صاحب هذه المدينة قد زوج ابنة له من ابن لقيذافه يسمى قيذروش، وكان قد جاء إليه لإقامة رسم العرس فوقع هو وزوجته فى يد رجل من أصحاب الإسكندر يسمى شهركير فبلغ ذلك الإسكندر، فسنح له رأى فاستحضر وزيراً له يسمى بيطقون وأعطاه تاجه وتخته، وأمره أن يقعد فى مكانه من منصب السلطنة فى مجلس خاص لا يحضره عامة أصحاب الإسكندر، وواطأه على أنه إذا أتوه بابن قيذافه، يأمر بضرب رقبته فيشفع إليه الإسكندر وهو واقف على رسم الخدمة فيهبه له، ثم يدعوه - يعنى الإسكندر - ويرسله إلى قيذافه مع عشرة فرسان، ويأمره بأن يوصل رسالته ويعجل الرجوع بجوابها، قال: فلما كان الغد لبس وزيره التاج وجلس على التخت ووقف الإسكندر ماثلاً فى الخدمة فجاء شهركير بابن قيذافه مع عروسه، ودخل بهما عليه فلما رآه قال: «من ذا الرجل؟» قال الشاب: «أنا ابن قيذافه، وكنت تزوجت بابنة صاحب هذه المدينة فقدمتها بسبب العرس فأصبحت أسيراً فى يدى شهركير، جريحاً منكوس الطالع»، فتغضب عليه بيطقون وأمر بضرب رقبته مع زوجته، فبادر الإسكندر وقبل الأرض بين يديه وتشفع فيه واستوهبه منه فوهبهما له، ثم التفت الملك المعمول إلى ابن قيذافه وقال: «قد تخلصت برأس كاد يفارق جسدك، والآن أرسلك مع الشفيع فيك إلى أمك كى تبلغها رسالتى، وتخبرها بعظم ملكى وشدة شوكتى، وتحثها على التزام الخراج وأدائه، وهو دستورى وصاحب رأى فاعمل معه ما عمل معك، وإذا سمع الجواب من الملكة فسرحه إلى كما يليق بك» فقال: «ما حفظ على حياتى سواه، ولا أعامله إلا بما عاملنى»، فاختار الإسكندر عشرة أنفس من ثقات أصحابه وحفظة سره، واستصحبهم وأمرهم ألا يسموه إلا بيطقون، فتقدمه ابن قيذافه، وسار الرسول مقتفياً أثره فى سير حثيث فوصلوا فى طريقهم إلى جبل أحجاره بلور وعلى

الجبل ثمار كثيرة من كل نوع، وشاهد عليه قرودا كثيرة، فعبروا وساروا إلى قرب المدينة فاستقبلت الملكة ولدها، ولما اجتمع سرد عليها جميع أحوال الإسكندر وما عمل فى مدينة فيران من الأسر والنهب، ثم سرد عليها قصة أسره مع صاحبته، وما هم به الإسكندر من قتله وإراقة دمه، وأنه ماخلص إلا بشفاعة هذا الرسول، فارتعدت فرائصها من الفزع.

ثم استحضرت الرسول إلى إيوانها وسايلته وأكرمته ثم أنزلته فى موضع يليق به، وأدرت عليه الأنزال، ونفذت إليه التحف والمبار، ثم إنه لما أصبح ركب إلى خدمة الملكة فرفعت دونه الحجب وأدخلوه راكبًا إلى الدهليز، فدخل ورأى الملكة قاعدة على تخت من العاج معتصبة بتاج من الفيروزج، وعليها قباء صينى منسوج بالذهب، وهى كأنها فى إشراق الشمس، فى مجلس سواريه من البلور، وسقوفه من الجزع المرصع بالجوهر، على رأسها جواريها فى زينتهن، فبهت الإسكندر لما شاهد إذ لم يكن رأى مثل ما رأى فى بلاد الروم ولا فى بلاد إيران، ولما قرب من الملكة قبل الأرض وخدم فأكرمته وأكثرت من مسايلته، ثم مدوا السماط وطعموا، ولما خلا المجلس من الأجانب أمرت بإحضار الشراب والمغنين، وكان أول شربهم على اسم الملكة وكانت فى أثناء الشرب تكثر النظر إلى الإسكندر، فأمرت خازنها فجاء بالحريرة التى فيها صورة الإسكندر مصورة، فلما أحضرت نشرتها وجعلت تنظر فيها وتنظر إلى وجه الإسكندر فعلمت أنه الإسكندر وأنه جاءها فى زى رسول فقالت له: «أيها الرسول المسترسل! هات ما حملك الإسكندر»، فقال: «إنه أمرنى وقال: قل لقيذافه الطاهرة لا تطلبى غير سبيل السداد، ولا تخالفى أمرنا، ولتكن يقظتك لك نافعة، واعلمى أنه لما تحققنا من عقلك ورأيك ودهائك وحزمك لاطفناك فى المقال ولم نبدأك بالقتال، والأصوب لك بذل الخراج والتزامه لنا، فإنه لا يخفى عليك أنه ليس لك بمقاومتنا يدان»، فغاظها ما سمعت منه لكنها آثرت السكون والسكوت، وصرفته إلى منزله ووعدته بأن تجاوبه غداً عن رسالته، فانصرف الإسكندر وعاد إليها من الغد فدخل عليها فى مجلس من البلور منجد بالعقيق والزبرجد، أرضه من

العود والصندل، وسقفه من الجزع والزبرجد، فأدهشه ما رأى وبهره ذلك المنظر الأنيق، ثم تقدم حتى قرب من الملكة فأجلس عند التخت على كرسى من الذهب فقالت له: «كأنك قد قضيت العجب من هذا المجلس» فمدحها الإسكندر وقال: «إنك أعلى الملوك شرفًا ومنصبًا وأبهرهم جلالة ورفعة، وإن بحرك لحاوٍ لكل جوهر، وإنك مجتمع كل عز ومفخر»، فضحكت لقوله ثم انتفض المجلس وخلت به وقالت: «يابن فيلقوس! إن فتالك سرور، وإن نعيمك بوس» فعرفته بذلك أنها عرفته فاصفر وجهه، وأرعب قلبه فأنكر ما ذكرته فجاءت بصورته فلما رآها تحير وأظلم فى عينه النهار، وقال: «لو كان معى خنجر لقتلتك أو قتلت نفسى لصنيعى وتغريرى بروحى»، فضحكت وقالت: «لا تحتد أيها الشهريار ولا تغتر بنفسك، أين صحة دعواك فيما تزعم أنك عالم الأرض؟ وأى قيمة لعلمك وقد حملك على أن قدمت بنفسك بين أشداق الثعبان، وعرضتها لبائقة لا تبقى ولا تذر؟ ولكنى أعاف إراقة دماء الملوك، فكن آمنا على نفسك فإنى لا أسميك مادمت هاهنا إلا بيطقون، محافظة على سرك، ولكن لا ينبغى أن يقف ولدى طينوش على أنك محب للإسكندر أو ناصح له أو قريب منه، فإنه رجل خفيف الرأس، وهو ختن قتيلك فور ملك الهند، وأخشى أن ينالك منه مكروه، وانصرف الآن مسرور القلب منشرح الصدر آمن النفس».

فانصرف الإسكندر ولما كان من الغد ركب إلى الخدمة فدخل عليها فى مجلس من العاج منجد بألوان الجواهر، وعندها ولداها طينوش وقيذروش، ولما قعد فى مكانه سايلته وقالت له: «اكشف لنا عن سرك، وأخبرنا بما يريد منا الإسكندر أن أدعوك إلى طاعته والتزام الخراج له، وإن لم تفعلى ذلك رجعت وأتاك بجنوده التى لا قبل لك بها»، فلما سمع ذلك طينوش استشاط والتهب كالنار المحرقة، وقال: «كأنك أيها اللئيم الجاهل لا تدرى عند من تتكلم، ولا أشك فى خفة رأسك وامتلائه من العجب، أما تقول من صاحبك، وبماذا يعرف بين الملوك؟ ولولا روعة هذه الحضرة لقطعت رأسك كأترجة تقطف من شجرة»، فصاحت عليه أمه وأمرت بإخراجه وقالت: «هل هو إلا رسول بلغ ما حمل؟ ومن

سمع برسول قتل؟» ثم لما خرج ابنها قالت: «إن هذا صبى نزق، وأخاف أن يصيبك منه مكروه، وأنت أعقل الناس فأشر على برأيك فيه» قال: «فرديه إلى خدمتك» فأمرت برده إلى الحضرة. فلما عاد تملق له الرسول وأظهر بغضه له وكراهته لأمره، ثم قال له: «إن أخذت بيد الإسكندر وأضعها فى يدك أعزل فردًا ليس معه سلاح ولا عسكر فأى شىء يكون لى عندك؟» فانخدع بما قال وسر به وقال: «إن وفيت بذلك جعلتك على جميع عساكر الغرب أميرًا واتخذتك دستورًا». ثم قال له: «وكيف تقدر على ذلك؟» فقال: «تنتخب ألف فارس من شجعان أصحابك، وتأتى معى، ومعك مال كثير وتحف فاخرة، فأتقدمك إليه وأعلمه بمجيئك وأحمله على أن يركب فى جماعة من فلاسفته إلى استقبالك فتخرج إليه من المكمن فتأخذه وترى فيه رأيك»، فجعلت قيذافه تتعجب من حيله، وتعض على شفتها وتبتسم، فتصافقوا على ذلك وخرج الإسكندر إلى منزله، ولما أصبح عاد إلى الخدمة فدخل عليها وخلا بها فحلف بالله وروح القدس، قال: وبدين المسيح والصليب الأكبر وسائر الأيمان المغلظة أنه بعد ذلك لا يقصد أرض الأندلس لا بنفسه ولا بعسكره، ولا يغدر بولدها، وأن يعاملها بالوفاء ولا يسلك معها طريق الجفاء، وأن يكون لصديقها صديقا ولعدوها عدوًا، فلما ظهر للملكة صدقة استحضرت أكابر حضرتها وأركان دولتها فجلسوا على كراسى من الذهب وضعت لهم فى إيوانها، ثم أحضرت ابنيها وجميع أقاربها ثم فاوضتهم واستشارتهم فيما جاء به رسول الإسكندر، وذكرت لهم أن مصالحته أولى وأجدر، وكف عاديته بالمال أحرى وأحزم، فاستصوبوا رأيها واستحصفوا عقلها، ودعوا لها بحسن نظرها لهم، ثم إنها فتحت أبواب كنوزها، وأخرجت تاج أبيها، وكان مرصعًا بجواهر لا يعرف قيمتها أحد فقالت للإسكندر: «إن هذا لا يصلح إلا لك، ولما رأيتك مستحقًا لهذا التاج آثرتك به على ولدى»، وأحضرت تختًا فى سبعين قطعة بعضها يركب فى البعض عند نصبه، وهو مرصع باللؤلؤ والياقوت والزبرجد يشتمل من كل جنس منها على أربعمائة قطعة وازنة، وكان حمل أربعين جملا، وأخرجت أربعمائة قطعة من أنياب الفيلة، وأربعمائة عدد من

جلود النمور البربرية، وألف عدد من جلود الأوعال الملمعة، ومن أنواع الثياب ثمانمائة تخت، وكان بعض التخوت منحوتًا من خشب الشيزى وبعضها منحوتًا من العود الرطب الذى لو طبع بطابع لبان فيه أثره، وألف قطعة من السيوف الهندية، وألف جوشن ومغفر، ومائة فرس بآلاتها، ومائتى جاموس برعاتها، ومائة كلب سلوقى يسبق السهم المرسل فى الصيد، ثم أمرت بتسليم ذلك كله إلى بيطقون الرسول، وأمرته بالانصراف من الغد، فلما طلع الصبح ركب الإسكندر وركب طينوش فى فرسانه، وساروا متوجهين نحو الإسكندر، وكانوا يحطون ويرحلون إلى أن قربوا من المعسكر، وانتهوا إلى غيضة كثيرة الماء والشجر، فأنزل طينوش وقال: «أنا أسبقك إلى المعسكر، وأدبر فى إنجاز ما سبق به الوعد، وسار إلى أن وصل إلى مخيمه فتلقته الأمراء والملوك، واستبشروا بمقدمه، وقد كانوا أيسوا منه حين أبطأ عليهم، فانتخب منهم ألف فارس شاكى السلاح ورجع إلى تلك الغيضة، وأحدق بمن معه بها، فلما رأى طينوش ذلك ارتعد فزعًا، وعض على يديه ندمًا فقال: «أيها الشهريار! إنك عاهدت أمى على غير ما أرى منك» فقال: «لا تفزع فلست أنقض عهد أمك أبدًا، وقد حلفت أن أضع يد الإسكندر فى يدك، وقد أبررت يمينى حين ضربت بيدى على يدك عند أمك، وقد خرجت عن عهدة القسم فى ذلك اليوم، وأنا الإسكندر والرسول معًا، وعلمت الملكة بذلك ولم يخف عليها»، ثم جلس تحت تلك الأشجار وأمر بترتيب المجلس، ومدوا السماط وطعموا وشربوا ثم خلع عليه خلعة خسروانية تليق به، وأعطى أصحابه عطايا كثيرة وخلع عليهم خلعًا رائقة، وصرفه إلى أمه.

تطواف الإسكندر فى أقطار العالم وما رأى فيها من العجائب

قال صاحب الكتاب: ثم إن الإسكندر سار فى عساكره إلى أن وصل إلى مدينة البراهمة، فلما علموا بوصوله خلصوا نجيًا، واجتمع رأيهم على أن كتبوا إليه كتابًا يقولون فيه: «أيها الملك: ماذا تريد من مدينة سكانها عباد الله؟ فإن كنت تريد منهم المال فما أنقص عقلك، وهم قوم ليس عندهم سوى الصبر والعلم، وذلك مما لا يسلبونه ولو أقمت هاهنا لاحتجت أن تأكل الحشيش كما يأكلون»

وكان الواصل بهذا الكتاب إلى الإسكندر رجلاً حافيًا حاسرًا ملتحفًا بإزار منسوج من الحشيش، فلما قرأ الكتاب ترك المعسكر فى مكانه، وركب فى جماعة من فلاسفته، وصار إليهم إلى مدينتهم، فاستقبلوه وأحضروه من قوتهم الذى كانوا يزجون به وقتهم، ودعوا له وأثنوا عليه، فرآهم قومًا حفاة عراة قد ستروا عوارتهم بأزر من الحشيش، ورأى فيهم عابدًا قد اتزر بجلد غزال، فخاطبهم الإسكندر فى أمر ملبوسهم فقال: «من ولد عريانًا فلا ينبغى له أن يكون حريصًا على الملبوس على أنه إذا واراه التراب فهو على خوف من العذاب والبؤس» فسأله الإسكندر عن أعظم الذنوب فقال: «الحرص على الدنيا، وإن أردت أن تقف على حقيقة ذلك فاعتبر بنفسك فإنك مع احتوائك على جميع ممالك الأرض طالب إليها الزيادة غير قانع بعظيم ما أوتيت من الملك والسيادة»، ثم قال لهم: «ارفعوا إلى حوائجكم فلن أدخر عنكم شيئًا، وأسعفكم بمطالبكم عفوًا» فقال لهم أحدهم: «أيها الملك! غلق دوننا باب الشيب والموت» فقال له: «كيف تسلم من الموت وهو لا محالة يهدم بناء عمرك وإن كان من حديد؟ وكيف تنعم بالشباب ومشرعه لابد أن يكدر برنق المشيب؟» فقال له البرهمى: «إذا كنت تعلم أنه لا مفر من الموت ولا سلامة من غصة الشيب فما بالك تطلب الاحتواء على العالم بجهدك؟ والشيب بين يدى الموت نذير؟ وإذا طمعت فى الحياة بعده فليس لك عذير»، ثم إن الإسكندر وهب لهم هبات كثيرة فما قبلوها، واستعرضهم حوائجهم فما عرضوها، فانصرف عنهم، وسار حتى وصل إلى بحر عظيم فرأى عنده رجالا متقبين كالنساء لا يعرف لسانهم عربى ولا فهلوى، وكان قوتهم من السمك وحيوان البحر، ثم إنه لمح وسط البحر جبلا أصفر كالشمس فأمر بإلقاء سفينة فى الماء ليركبها ويشاهد عجائب ذلك الجبل، فمنعه من ذلك بعض الفلاسفة وقال: لا تخاطر بنفسك وليركبها غيرك ممن يأتى بخبره، فأركب تلك السفينة ثلاثين شخصًا من الروم وغيرهم، فلما قربت السفينة من الجبل تحرك، وإذا به حوت فالتقم السفينة بمن فيها، وانساب فى البحر فتعجب وقال: «العلماء حفظة أرواح الملوك، فطوبى لمن عرف قدرهم واتبع أمرهم».

سار الإسكندر إلى أرض قصباء كبيرة القصب كأنها أشجار الدلب عظمًا وفيها غدير عظيم ماؤه زعاق كأنه سم ذعاف، فعبر منه، وانتهى إلى ساحل بحر آخر عظيم فصادف أرضًا طيبة العرف كأنها تتأرج بأريج المسك، وماء عذب المذاق فى حلاوة الشهد، فنزلوا واستراحوا فبيناهم فى منزلهم إذ خرجت من الماء أفاع كثيرة، وطلعت من الأجمة عقارب كالنار ملتهبة، وأتتهم من جميع جوانبهم فحول من الخنازير ذوو أنياب كالحراب، وضوارى سباع ما لأحد بها طاقة، فهلك من الأكابر والأمراء خلق كثير، فارتحلوا وانحازوا عن ذلك المكان، وطرحوا النار فيما كان هناك من القصب حتى احترق، وقتلوا كثيرًا من السباع، فسار من ذلك المكان إلى أرض الجشة فاجتمعت منهم آلاف مؤلفة من كل غرابى ترتج الأرض بنعيبه، ويمتلئ الجو بنعيقه فقاتلوه برماح أسنتها من العظام فقتلوا كثيرًا من أصحابه، فأمر عند تلك رجاله بالجد فى قتالهم فتدججوا وصافوهم فكانت الدبرة على الحبشة فأفناهم القتل.

ولما جن الليل سمعوا صوت الكركدن فتصدى لهم، وهو حيوان أعظم من الفيل له قرن فى أم رأسه فى لون النيل، فأهلك خلقًا من أصحابه، ثم رشقوه بالسهام فانهد كأنه جبل من حديد، ثم لما أصبح رحل وسار حتى وصل إلى أرض فيها خلق عراة كأنهم أشجار باسقة، فلما رأوا الإسكندر صاحوا واجتمعوا وقاتلوهم بالحجارة وأمطروها عليهم، فواقعهم أصحاب الإسكندر وقتلوهم حتى لم يبق منهم إلا قليل، وسار حتى وصل إلى مدينة كبيرة بين يديها جبل عظيم يكاد يمس السماء فاستقبله أهلها بالتحف والمبار والخدم فأحسن إليهم، ثم سايلهم عن الطريق فقالوا: «أيها الملك: كان الطريق على هذا الجبل، وقد قطعه الآن ثعبان عظيم لا يتجاسر معه أحد على العبور فيه، وله علينا كل يوم وظيفة خمسة ثيران نلقيها إليه فيبتلعها وينكف بذلك عن أن يتقدم إلى هذا الجانب، فأمر الإسكندر بخمسة ثيران فذبحت وسلخت جلودها وحشيت سما ونفطا. فأمر بإصعادها إلى الجبل وإلقائها إلى الثعبان. فابتلعها فلم يلبث أن تقطعت أمعاؤه من السم، وصعد بخار السم والنفط إلى دماغه فأخذ يضرب برأسه على الجبل حتى انفلق وتشقق فقطعوه بالسيوف.

وعبر الإسكندر بعساكره وسار حتى وصل إلى جبل آخر عال فى السماء فأصعدوا فيه فرأوا على رأس الجبل تختًا من الذهب منصوبًا وعليه شيخ ميت مسجى بديباج على رأسه تاج مرصع بجواهر تزهر للعيون، فلم يتجاسر أحد على القرب منه وكان كل ما يقدم إليه تأخذه الرعدة فى مكانه ويموت فى وقته، فلما صعد الإسكندر ذلك الجبل ورأى التخت سمع هاتفًا يقول: «أيها الملك! قد جهدت زمانًا طويلاً وأفنيت من الملوك كثيرا، وقد دنا وقتك وحان حينك»، فعظم عليه ذلك وأصفر لونه، وسار قاصدًا قصد مدينة هروم، وهى مدينة سكانها بنات أبكار لا يمكن أحدًا من القرب من المدينة، لم يخلق للواحدة منهن إلا ثدى واحد، وهو الأيمن فحسب، وهن فى الأيسر كالرجال قال: فكتب الإسكندر إليهن كتابًا يدعوهن إلى الطاعة، ويذكر أنه ما جاء لقصد قتالهن ولا لنهب بلادهن، وأنه لم يرد سوى رؤية المدينة والاعتبار بأحوالها، ونفذ بالكتاب فيلسوفًا وأمره بأن يلاطفهن فى الخطاب ويرجع إليه بالجواب فصادف الرسول أهل المدينة نساء كلهن ليس فيها رجل، فاستقبلنه على الخيول فى آلات الحرب فقرأن الكتاب وقلن فى جوابه: «إنك رجل كبير، وصيتك عال رفيع، فلا تفسدنه بأن يقال إنك قاتلت النساء وانهزمت منهن، فإن ذلك يجر عليك عارًا لا يزول أبدًا، ولكن إن جئت للتطواف فى مدينتنا والنظر إليها والوقوف على أحوالها أكرمنا مقدمك وتلقينا بالجميل موردك»، وختمن الكتاب وأنفذنه على يد امرأة عاقلة فى ملابس الملوك ومعها عشر فوارس منهن، فلما أتت الإسكندر ووقف على ما صحبها من الجواب أكرمها وقال: «ما لى حاجة فى مدينتكم سوى النظر إليها وأنا حصل ذلك عبرت وتجاوزت إلى طرف آخر»، فعادت وأعلمت صواحبها بما جرى فاجتمعن واتفقن على إعداد تحف برسم الملك، من التيجان المرصعة والجواهر النفيسة وغير ذلك مما يصلح أن يخدم به الملوك.

ثم رحل الإسكندر من منزله وسار فهاج عليهم بعد مرحلتين هواء شديد وتغيت السماء وسقط عليهم ثلج أهلك خلقًا من أصحاب الإسكندر، فسار فى ذلك الزمهرير منزلين، ثم شاهدوا دخانًا مرتفعًا فى السماء وسحابًا أسود كأنه

يمطر النار فحمى الهواء وعظم الحر حتى حميت الدروع على أكتاف الرجال فأحرقتها فسار على ذلك فوصل إلى مدينة فيها ناس سود الوجوه كالسبج، هدل الشفاه، تتوقد النار من أحداقهم، وتخرج من أفواههم، فاستقبلوا الإسكندر وخدموه بفيلة عظيمة وتحف كثيرة وقالوا: «إنا لم نر أحدًا وصل إلى هذه المدينة ولم نر راكب فرس قط، فأقام الملك فيها شهرًا.

ثم سار قاصدًا قصد مدينة النساء فعبر إليه البحر جلائل أهلها فى ألفين من فوارسهن مستقبلات له فقدمن إليه برسم الهدية تيجانًا مرصعة وجواهر نفيسة وثيابًا وشى، ثم ركب الإسكندر ووصل إلى المدينة فأكرمن مقدمه ونثرن عليه نثارات، وخدمنه بتحف ومبرات، ولما رأى المدينة وأهلها، ووقف على أحوالها خلع عليهن وأحسن إليهن، وارتحل.

وسار قاصدًا قصد مغرب الشمس فوصل إلى مدينة فيها ناس حمر الوجوه صفر الشعور فسايلهم الإسكندر عمن يعرف عجائبها فقال له من أهل تلك المدينة شيخ طاعن فى السن: «إن وراء مدينتنا عينًا كبيرة فيها تغرب الشمس وتغيب، ووراء هذه العين ظلمات، وفيها من العجائب ما لا يحيط به الوصف، وقد قال بعض عبادنا: إن فيها عينًا يقال لها عين الحياة من شرب منها يخلد ولا يموت لأن مدد مائها من أنهار الفردوس، ومن اغتسل فيها تساقطت عنه ذنوبه «فقال له الإسكندر: «كيف تسلك الدواب طريق هذه الظلمة؟» فقال: «من أراد أن يسلك طريقها لا ينبغى أن يركب إلا مهرًا» فأمر الإسكندر بجمع الخيل فاختار منها عشرة آلاف مهر رباع قوى، وسار فى عساكره حتى وصل إلى مدينة كبيرة فيها نعم كثيرة وبساتين وسيعة وقصور رفيعة فنزل فيها، وصار وحده إلى مغرب الشمس فبقى ينتظر غروبها فلما كان عند الغروب شاهد قرص الشمس وهى تغيب فى تلك العين، فجعل يسبح الله تعالى ويقدسه، ثم انصرف إلى معسكره فانتخب من أصحابه من عرفه بالعقل والصبر، وتزود لأربعين يوما، واختار من يصلح أن يتقدم أمامهم ويسير بين أيديهم، فوقع الاختيار على الخضر فإنه كان سيد الجماعة وصاحب الرأى فيما هم بصدده. ففوض

الإسكندر إليه أمره، وقال: «أيها الرجل المتيقظ! نبه قلبك لهذا الأمر فإنا إن عثرنا على ماء الحياة بقينا نعبد الله تعالى إلى آخر الأبد، وإن معى خرزتين تتقدمان كالشمس فى جنح الليل، فخذ إحداهما، وسر قدام القوم، وتكون الأخرى معى، وأنا والمعسكر نقتفى أثرك ونبصر ماذا قسم الله تبارك وتعالى لنا»، فتقدم الخضر، وسار الإسكندر فى أثره حتى سار فى الظلمات مرحلتين، ولما كان المنزل الثالث عرض لهم فى الظلمات طريقان فسار الخضر فى إحدى الطريقين، ووصل إلى عين الحياة فشرب منه واغتسل وفاز بالمطلوب وضل الإسكندر عنه فسلك الآخر فأفضى به إلى الضوء، وخرج من الظلمة فرأى جبلاً شاهقًا فى السماء على رأسه أشجار من العود، وعلى كل شجرة طائر أخضر، فلما رآته الطيور نطقن بإذن الله باللسان الرومى، فدنا من طائر وأصغى ليسمع كلامه فقال له: «ماذا تريد أيها الثعبان من الدنيا الفانية؟ وأنت لو بلغت السماء لم يكن لك بد من الموت»، ثم قال للإسكندر: «هل حدث الزنا وهل استعمل الآجر فى البناء؟» فقال: نعم فقال: «وهل قرع سمعك صوت المزهر، وصياح السكران، ونغم الغناء؟» فقال: نعم فنزل إليه الطائر عند ذلك وقال: «أيما أكثر: العلم مع السداد أم الجهل مع الفساد؟» فقال: «العالم بين الناس عزيز» فرجع الطائر إلى مكانه، وقال له: «هل يسكن العباد فى بلادكم الجبال؟» فقال: «وهل لهم سكنى إلا فى الجبال؟» ثم قال له: «اصعد إلى رأس هذا الجبل وحدك راجلاً ليس معك أحد فأبصر ما هنالك»، فصعد الإسكندر وحده فرأى إسرافيل عليه السلام، على رأس هذا الجبل وبيده الصور، وقد نفخ شدقيه، وملأ من الدموع عينيه ينتظر متى يأتيه الأمر فينفخ، قال: فلما نظر فى وجه الإسكندر صاح عليه وقال: «ياعبدالحرص! لا تجهدن هذا الجهد فسوف يأتيك الأمر بالمسير، ويقرع سمعك النداء بالرحيل» فقال الإسكندر: «لم يقسم لى غير الحركة والطواف فى أقطار الأرض»، ثم نزل من الجبل حليف كآبة ورنين، وعاد القهقرى إلى الظلمات، فلما توغلها هتف هاتف من الجبل الأسود الذى كان هنالك وقال: «من يحمل من حجارة هذا المكان يندم ومن لا يحمل منها فهو

أيضاً يندم» فحمل منها بعضهم وأعرض عنها بعضهم، فلما خرجوا من تلك الظلمات رأوا تلك الحجارة جواهر ويواقيت فندم من حمل حيث لم يستكثر، وندم من لم يحمل حيث لم يحمل.

قال: ثم إن الإسكندر أقام بعد خروجه من الظلمات مقدار أسبوع ثم ارتحل متوجهًا نحو المشرق فسار حتى انتهى إلى مدينة كبيرة فاستقبله أكابر أهلها فأكرمهم الإسكندر وأحسن إليهم، ثم سايلهم عن عجائب ما هنالك فأجهشوا إليه بالبكاء وقالوا: «أيها الملك! إن أمامنا أمرًا عظيمًا لابد لنا من عرضه على رأيك، ونحن منه فى عناء وتعب شديد، وذلك أن وراء هذا الجبل يأجوج ومأجوج، وهم يفسدون فى أرضنا ويعيشون فى بلادنا، وهم فى خلقهم بحيث لا تتجاوز قامة أحدهم شبرًا، ومع ذلك فقد ملئوا الأرض فسادًا وشرًا، ولهم وجوه كوجوه الإبل، وأنياب كأنياب الخنازير، ألسنتهم سود وأعينهم حمر، وعلى أبدانهم شعور فى لون النيل، ولهم آذان كآذان الفيلة، إذا نام أحدهم افترش إحدى أذنيه والتحف بالأخرى، لا تموت الأنثى منهم حتى تلد ألف مولود، وهم فى الكثرة بحيث لا يعرف عددهم إلا الله عز وجل، وإذا كان فصل الربيع وجاش البحر وأرغد الجو احتمل السحاب التنين من البحر فألقاه إليهم، فيجتمعون إليه ويأكلون منه حتى تعبل أجسامهم وتسمن أبدانهم، ويكون ذلك من السنة إلى السنة وفى سائر السنة يجتزئون بنبات الأرض وبما يختطفونه من كل جانب، وإذا كانت أيام الشتاء اعتراهم الضعف حتى يصير صوت أحدهم فى رز صوت الحمام، وإذا أقبلت أيام الربيع عادوا كالذئاب الضارية فإن أنعم الملك بالتدبير فى كفاية شرهم وكف معرفتهم شكر سعيه بكل لسان، ودام ذكره إلى آخر الزمان» فتعجب الإسكندر مما أوردوا واهتم لذلك ثم غاص فى بحر الفكر فقال لهم: «إنى أعاونكم منى بالأموال والكنوز فعاونونى بنفوسكم حتى أعمل دونهم سدًا بقدرة الله الذى لا إله إلا هو سبحانه وتعالى، فدعوا له وقالوا: «إنا كلنا عبيدك فيما تأمر به فجاء الإسكندر فى علماء فلاسفته وأصحاب رأيه فنظر إلى الجبل فأمر باستدعاء الحدادين والفعلة، وأمر بإحضار النحاس والرصاص

والجص والحجارة والحطب، فجمعوا من كل واحد ما لا يحيط به الحصر، وحشر صناع الأقاليم فسد ما بين الجبلين بسدين من قرار الأرض إلى رأس الجبل، وجعلوا الأساس فى عرض مائة ذراع، فكانوا يصفون من زبر الحديد صفًا فى مقدار ذراع، ويضعون عليه الفحم والنحاس، ويجعلون الكبريت فوقه، ثم صفًا آخر فوقه كذلك ثم آخر وآخر حتى انتهى إلى رأس الجبل وساوي ما بين الصفين، ثم خلطوا النفط والدهن وأفرغوه على رأس الجميع ثم صبوا عليه الفحم ثم ألقوا فيه النار، واجتمع عليه مائة ألف حداد ينفخون فيه فارتفع الدخان فى السماء وتمكنت النار فيه وبقيت كذلك تتقد زمانًا حتى تراصت الأجزاء وتهندم البناء فتخلص العالم بالسد الإسكندرى من شر يأجوج ومأجوج وعاديتهم ولله الحمد، قال: وطول هذا السد خمس خمسمائة ذراع فى عرض خمسمائة ذراع.

ولما أحكم الإسكندر ذلك ارتحل من تلك المدينة وسار مسيرة شهر فوصل إلى جبل من اللازورد، على رأسه بيت من الياقوت الأصفر، فيه قناديل معلقة من البلور، وفى وسطه عين ماء مالح فيه جوهر أحمر له أشعة تتبث أنوارها على الماء فيمتلئ البيت منه بالأضواء وعند العين تخت من الذهب منصوب عليه شخص مسجى مضطجع، رأسه كرأس خنزير، وبدنه كبدن إنسان، قد فرش تحته الكافور، وكان من قصد أخذ شيء من ذلك البيت تأخذه الرعدة ويموت فى مكانه فسمع الإسكندر هاتفًا من تلك العين يقول: «أيها الرجل الحريص! لا تحرصن هذا الحرص كله فقد رأيت ما لم يره أحد، فالواجب أن تصرف عنانك فقد دنت أيامك، وشارف الانقضاء ملكك، ففزع الإسكندر وأسرع الانصراف إلى معسكره.

ثم ارتحل وسار حتى خرج من البرية وانتهى إلى مدينة آهلة ففرح حين سمع صوت الإنس واستأنس، فتلقاه أهل المدينة وأظهروا السرور بمقدمه، ونثروا عليه النثار الكثير، وقالوا: «نحمد الله حين جعل عبورك علينا، فإنه لم يأتى هذه المدينة عسكر قط، ولا سمع فيها اسم ولا ذكر لملك»، فسايلهم عن عجائب مدينتهم فقال بعضهم: «أيها الملك! إن هاهنا عجبًا لا يوجد فى العالم مثله،

وذلك أن هاهنا شجرتين ذكرًا وأنثى ينطق الذكر بالنهار والأنثى بالليل»، فركب الإسكندر واستصحب ترجمانًا منهم فى جماعة من أصحابه فسأل الترجمان، وقال: «متى تتكلم الشجرة؟» «فقال: «إذا عبر تسع ساعات من النهار تكلم الذكر وإذا جن الليل تكلمت الأنثى» فقال له: «وإذا تجاوزنا هاتين الشجرتين فما الذى نراه بعدهما؟» قال: «إن الدنيا تنتهى عند ذلك، وما بعدهما يسمى طرف العالم». ولما قرب من الشجرتين رأى الأرض ملأى من جلود السباع فسأله عن ذلك فقال: «إن لهاتين الشجرتين عبادًا يعبدونهما وإذا جاءوهما للعبادة فلا يأكلون إلا لحوم السباع»، قال: فلما انتصف النهار سمع الإسكندر من إحدى الشجرتين صوتًا أزعجه فسأل الترجمان عما قالت فقال: «إنها تقول: ما بال الإسكندر يجول فى أقطار الأرض وقد استوفى نصيبه من العيش، وعند استكمال أربع عشرة سنة من سلطانه يحين حين ارتحاله؟» فبكى الإسكندر وامتلأ همًا وحزنًا، وبقى واجمًا لا يتكلم إلى نصف الليل، فتكلمت الشجرة الأنثى، فسأله عما قالت فقال: «إنها تقول: إنك تجول حول الأرض من حرصك، ولم يبق إلا قليل من عمرك فلا تتعب نفسك ولا تضيق عليها أمرك» فقال له الإسكندر: «سلها هل تكون أمى حاضرة عند رأسى إذا أتانى أمر ربى؟» فسألها عن ذلك فقالت: «شد رحالك وأقصر عن ظنك فإنه لا تحضرك أمك ولا قرائبك ولا نساء بلدك، ولا تموت إلا غريبًا فى بلاد غيرك».

فانصرف الإسكندر وقيد القلب منخزل النفس نحو معسكره، فقدم إليه أهل تلك المدينة جواشن ودروعًا وتحفًا كثيرة فيها مائة بيضة من الذهب وزن كل بيضة ستون منا، وصورة كركدن من الذهب مرصعة بالجوهر، فقبل هداياهم وارتحل نحو الصين.

فلما قرب منها نزل فى عسكره واستحضر الكاتب فأمره أن يكتب إلى بغبور كتابًا مملوءًا بالوعد والوعيد، وختمه. واستصحب بعض ثقاته وأصحاب رأيه، وركب منهم فى خمسة فرسان حتى أتى ملك الصين فى زى رسول، فلما وصل إليه أكرمه وأنزله فى موضع يليق به، ثم لما كان من غده أنفذ إليه مركوبًا خاصًا

بآلات الذهب واستحضره فحضر وأدى الرسالة، ودعاه أن يبادر إلى خدمة الإسكندر ويسارع إلى حضرته، فإن لم يفعل ذلك فلينفذ إليه طرائف الصين من خيل وأسلحة وثياب وذهب وفضة ليصرفه بذلك عن أذاه، فضحك بغبور وسأله أن يصف له الإسكندر، وينعت صورته وشكله، ويصف مكارمه وسيرته، فاندفع الرسول يورد ذلك ويسرده، ثم إنه استحضر الطعام والشراب، ولما ثملوا صرف الرسول وقال: ستجيب غدًا عن رسالة صاحبك، فانصرف إلى منزلة وهو بين الصاحى والسكران وبيده أترجة، ولما طلعت الشمس من غده ركب إلى حضرة بغبور فسايله ولاطفه، ثم استحضر الكاتب وأجاب عن كتاب الإسكندر، وفتح أبواب خزائنه وأخرج خمسين تاجًا مرصعًا بالجواهر وعشرة تخوت من العاج، وأوقر ألف جمل من الديباج والخز والحرير والكافور والمسك والعبير إلى غير ذلك من الذهبيات والفضيات وجلود السنجاب والقاقم والسمور، ثم اختار رجلا من أكابر الصين موصوفًا بالعقل والرأى، ونفذه بكل ذلك فى صحبة الرسول، فلما انتهى إلى ساحل البحر بادر الملاح فحمله فى مركب وعبر به إلى المعسكر، فلما أحس أصحابه بوصوله استقبلوه، ولما رأوه ترجلوا وسجدوا بين يديه، فعلم رسول بغبور أنه هو الإسكندر نفسه فنزل وسجد له، ثم لما أصبح الإسكندر جلس مجلسه من تخت السلطنة فخلع على رسول بغبور وأعطاه عطايا كثيرة وصرفه إلى صاحبه، ثم أقام الإسكندر فى ذلك الموضع شهرًا من الزمان.

فلما برد الهواء ارتحل وسار حتى وصل إلى مدينة جغوان ورحل منها قاصدًا قصد السند، فركب ملكهم وكان يسمى بنداه فى رجاله السود، وبرز إلى قتاله فى أمثال الأسود، فجرت ملحمة أفنت السودان عن آخرهم وأتى الأسر والنهب على نسائهم وذراريهم، ثم سار الإسكندر إلى نيمروز، وصار منهم إلى اليمن، فاستقبله صاحب اليمن بالهدايا الجليلة والتحف الكثيرة، فأكرمه الإسكندر وأحسن إليه.

ثم ارتحل من اليمن قاصدًا قصد بابل فوصل فى طريقه إلى جبل عظيم فأتعبهم العبور فيه، فلما قطعوه وأسهلوا أفضوا إلى بحر عظيم فعثر بعض

أصحابه فى ساحله على رجل متسربل البدن بالشعر، وله أذنان كآذان الفيلة، فاجتروه إلى خدمة الإسكندر، فقال له الإسكندر: «ما اسمك ومن أنت؟» فقال: «أيها الملك، إن أبى وأمى سميانى بستركوش، يعنى لحافى الأذن» فقال له: «ما هذا الذى نراه فى وسط البحر؟» فقال: «مدينة طيبة، وفيها خلق طعامهم من السمك، فإن أمر الملك عبرت إليهم وأخبرتهم بمقدمه وحملت منهم جماعة إلى خدمته» فأذن له الملك فى ذلك فعبر إليهم فى ساعة وانصرف ومعه ثمانون شخصاً من عقلاء تلك المدينة فى ملابس الخز والحرير، بعضهم شبان وبعضهم شيوخ، مع كل شيخ منهم جام مملوء من الدر ومع كل شاب تاج من الذهب، فحضروا بين يدى الملك فخدموه وسايلهم عن أمور أجابوه عنها، وأقاموا فى منزله على البحر إلى طلوع الفجر من الغد، فارتحل متوجهًا نحو بابل وقد علم أن أجله قد قرب.

وكان يخاف من الكيانيين على بلاد الروم بعد موته فعزم ألا يبقى منهم أحدًا، فكتب كتابًا إلى الحكيم أرسطاليس، وذكره فيه حاله وما هم به، ثم استقدم جميع أكابر الكيانية من أوطانهم وأمرهم بالمبادرة إلى حضرته، فوصل كتاب أرسطاليس وهو يقول فيه: «قد آن لك أن ترتدع عن الشر، فاستسلم لأمر الله عز وجل، وفوض إليه أمورك، ولا تزرع فى ملكك غير الحسنى، وما أشرت إليه فلا تجزع منه ولا تهتم له، فإنا لم نولد إلا للموت، وما استصحب أحد فارق الدنيا مالاً ولا ملكًا، وإياك أن تمس أحدًا من الكيانية فإنه لا يحسن غرس العداوة فى القلوب، فاتق الله ولا تسفك دماء الأكابر، فإنه يثمر اللعن إلى يوم القيامة، ولا يورث غير الحسرة والندامة، والرأى أن تستحضر أكابر بيت الملك، وتملك كل واحد منهم بلدًا أو إقليمًا، ولا تجعل لبعضهم على بعض حكمًا ولا يدًا، ولا تسمين منهم للسلطنة أحدًا حتى تشغلهم بحربهم عن بلاد الروم». فلما قرأ الإسكندر كتاب الحكيم استحضر الأكابر الكيانية وأجلسهم فى مراتبهم فى خدمته ثم فرق عليهم الممالك، وأمرهم أن يكتب كل واحد منهم كتاب عهد يعاهد

فيه على ألا يطلب الزيادة على ما فى يده، ولا يتعرض لملكة غيره، ويجتزى بما فى حكمه وتحت يده، فاستتب منهم ذلك فسُموا ملوك الطوائف.

- ذكر وفاة الإسكندر

قال صاحب الكتاب: ثم إنه وصل إلى بابل فاتفق أنه ولد فى تلك الليلة مولود له رأس كرأس الأسد، وحافر كحافر الدواب، وذنب كذنب الثور، لا يشبه الإنس إلا فى صدره وكتفه فلما وضعته أمه مات فى الحال، فحملوه إلى حضرة الملك فتطير منه واستحضر المنجمين وسألهم عن طالع ذلك المولود وما تدل عليه أحكام النجوم فى ولادته، فأظلمت الدنيا فى عيونهم لما فهموه، وكتموا الإسكندر ما علموه، فأوعدهم وهددهم فقال له بعض المنجمين: «أيها الملك، إنك ولدت على طالع الأسد، فإذا قد رأيت رأس المولود الميت مثل رأس الأسد فقد دل على زوال ملكك وانتهاء عمرك»، واتفقت كلمة سائر المنجمين على ذلك، فاغتم الإسكندر ثم قال: «إنه لابد من الموت، ولست أهتم بذلك» ثم مرض فى يومه ذلك وهو ببابل فاستحضر كاتبه وكتب إلى أمه كتابًا يعزيها فيه عن نفسه، ويوصى إليها ويأمرها بالصبر والرضا بما قدر له من قصر العمر، والتسليم لقضاء الله النافذ فى الخلق، وقال: «إنى قد أمرت أكابر الروم، إذا انصرفوا من هذه البلاد، بالتمسك بطاعتك والانقياد لأمرك، وأما أكابر إيران الذين كان يخاف على بلاد الروم من معرتهم فقد ملكت كل واحد منهم إقليمًا من الأقاليم حتى يمنعه الشغل بما فى يده عن بلاد الروم، وإذا مت فادفنونى فى تراب مصر، وفرقوا من خزائنى مائة ألف دينار فى هذه السنة على المشتغلين بأنفسهم من عباد الله، وروشنك - يعنى زوجته - إن ولدت ابنًا فهو ملك الروم لا غير، وإن ولدت بنتًا فلتتزوج من ابن فيلقوس، واتخذيه ولدًا، وجددى به ذكر الإسكندر أبدًا، وأما ابنة كيد ملك الهند فردوها، إن أرادت، إلى أبيها مع خزائنها التى جاءت معها، فى عماريتها، ومع تاجها وتختها، وأنا قد استسلمت للموت عن رأس العجز بعد أن فرغت من أشغالى كلها، وقد أمرت أن يعمل لى تابوت من الذهب، ويملأ من العسل ثم أضجع فيه مكفنًا فى الديباج والحرير،

وعند الانتهاء إلى ذلك ينتهى الكلام، ثم احفظى وصيتى ولا تخالفى موعظتى، ولا تمسكى من الأموال التى جمعتها من الهند والصين وسائر الأقاليم أكثر من القوت، وفرقى الباقى على المحتاجين، ثم حاجتى إليك ألا تجزعى على ولا تؤذى نفسك، واشفعى إلى الله عز وجل وأغيثينى بدعائك فإنه لا يأخذ بيدى غير ذلك»، ثم ختم الكتاب ونفذه إلى الروم على يدى بعض المسرعين.

قال ولما علم العسكر بمرض الإسكندر تسارعوا إلى خدمة تخته واجتمعوا على بابه وضجوا من وراء حجابه، فأمر الإسكندر بإخراج تخته من إيوانه إلى الفضاء فلما رأوه على ما به من الضعف أجهشوا إليه بالنحيب والبكاء، فقال لهم الإسكندر: «استشعروا الخوف، وتسربلوا لباس الحياء، ولا تعدلوا عن المحجة البيضاء، واحفظوا وصيتى، ولا تخلعوا ربقة طاعتى»، فلما فرغ من كلامه خرجت روحه فوقع العويل والنحيب فى العسكر، وقام الصراخ عليه، فأحرقوا داره التى كانت مستقره، وحذفوا من دوابه ألف فرس، ثم جاءوا بتابوت من الذهب مملوء من العسل، وغسله سكوبا بالماورد، وغمره بالكافور، وكفنه فى ثوب ديباج مذهب، ووضعه فى وسط العسل من الرأس إلى القدم، وأطبقوا عليه التابوت، فلما رفعوه من ذلك المكان اختلفت الفرس والروم فقالت الفرس: «لا يدفن الإسكندر إلا حيث مات» وقالت الروم: «لا يدفن إلا حيث ولد»، فقال شيخ من فارس: «إن هاهنا موضعًا يقال له جرم، وهناك جبل من سأله عن شىء أجابه عنه بإذن الله، فاسألوا الجبل حتى يحكم بينكم» فتوجهوا نحو الجبل فسألوه فأجاب وقال: «مالكم تحبسون تابوت الملك؟ إن تراب الإسكندر فى أرض الإسكندرية التى بناها فى حياته»، فبادروا عند ذلك إلى حمله وحملوه إلى الإسكندرية فلما وصلوا إليها خرج الخلائق واجتمعوا على تابوته حتى لو حسبهم المهندس لوجدهم يزيدون على مائة ألف. فجاء الحكيم أرسطاليس ووضع يده على تابوته وقال: «أين رأيك وعقلك أيها الملك حتى صار مسكنك هذا المكان الضيق؟ وكيف أفضيت بنضارة الشباب إلى مضاجعة التراب؟». وقال آخر: «أيها الملك! مازلت تدفن الذهب حتى دفنت فيه ووقعت فى خطب لا سبيل إلى

تلافيه». واجتمع علماء الروم فخاطبه كل واحد منهم بحكمة، أبَّنه بموعظة، ثم جاءت أمه ووضعت وجهها على تابوته وهى تبكى وتنتحب وتقول: «ما أبعدك منى مع قربك! وما أعظم خطبك على صحبك!»، ثم جاءت زوجته روشنك بنت دارا، وطفقت تبكى وتندبه وتنتحب وتنوح عليه، ثم دفنوه ولم تكن أيامه إلا كبرق ومض، وطرف غمض.



أسطورة زال والعنقاء[1]

ولادة زال وابتداء أمره

كان سام بن نريمان بهلوان العالم فى عهد منوجهر وكان يبتهل إلى الله تعالى أن يرزقه ولدًا يكون قوة لظهره، وقرة لعينه، وكانت له جارية فحملت منه، فلما أخبر بذلك شكر الله تعالى، ولم يزل يعد الليالى والأيام منتظرًا طلوع صبح ما ارتجى وحصول ما أراد وابتغى، فولدت ولدًا ذكرًا كأنه القمر إضاءة غير أن شعره كان أبيض يشتعل شيبًا كرؤوس المشايخ الطاعنين فى الأسنان، فبشر سام بذلك، فلما رآه على تلك الهيئة استقبحه، ونفر عنه طبعه، ورفع رأسه إلى السماء وجعل يدعو الله تعالى ويبتهل إليه، ويظن أنه لمعاصيه وذنوبه ابتلاه الله فى ولده بتلك الهيئة القبيحة، وأمر به فأخرج إلى جبل ألبرز، وهو جبل عظيم من جبال الهند، وأصعد به إلى ذلك الجبل وترك فى بعض شعفاته وحيدًا، وكان على رأس الجبل معشش العنقاء، وكانت تطير فى طلب الرزق لأفراخها، فرأت ذلك الصبى فى مثل ذلك الموضع، فألقى الله تعالى فى قلبها محبة منه فجاءته ورفرفت بجناحها عليه، ثم حملته وحلقت به إلى رأس الجبل، ووضعته بين أفراخها، فكانت تربيه مع أولادها حتى طالت عليه المدة فى قلة ذلك الجبل، وترعرع بين أفراخ العنقاء فى شعفة الجبل فقضوا العجب من ذلك وتحدثوا به، حتى بلغ الخبر إلى سام، ورأى هو أيضًا فى منامه ليلة كأن رسولاً جاء على فرس كالبرق الخاطف فأعلمه أن ولده على بعض الجبال فانتبه وأحضر الحكماء والمعبرين وسألهم عن حال رؤياه، فعبروها على أن الله تعالى لما رأى جفاءك على ولدك حين أبعدته ونفيته وطرحته على بعض الجبال وحيدًا فريدًا تعطف برحمته عليه فرباه ووقاه، وهو حى يرزق فتوجه إلى الجبل وتضرع إلى

(١) نص الأسطورة من ترجمة البندارى لشهاهنامة الفردوسى.

الله وتب إليه فإنه يرد عليك ولدك، ففعل ذلك وأقبل على تلك الجبال يدور فى مخارمها وشعابها وحيدًا، ويبكى ويتضرع إلى الله ويسأله أن يرد عليه ابنه قال: فألهم الله العنقاء أنه إنما يدور فى هذه المخارم والشعاب لطلب ولده ذلك، فحلقت نحوه، وكانت سمته «دستان»، وقالت: إن أباك قد جاء، وهو يدور فى هذه الجبال محترق القلب، منسكب الدمع عليك، وقد ربيتك مثل أفراخى، وأنت أعز على من روحى، وأرى لك أن أحملك بين جناحى إلى أبيك، فإنك ستصير ملكًا من الملوك، ويعظم شأنك بين الخلق، وأنا أعطيك من جناحى ريشة، فإذا حزبك أمر مهم فاحرقها فأنى سأحضر للوقت وأقضى حاجتك، فحملته وحلقت به ثم رفرفت حوالى سام، ووضعته بين يديه، فرأى شخصًا قد أفرغ فى قالب الجمال، رشيق القد كالغصن المائل، صبيح الوجه كالبدر الكامل، فخر ساجدًا لله تعالى يعفر وجهه فى التراب، ويشكره على ما أكرمه به من رد ولده وقرة عينه عليه، وعاهد الله تعالى وأشهده على نفسه ألا يوحش بعد ذلك قلبه، ولا يضيق صدره وأطلق لسانه بالثناء على العنقاء لحسن صنيعها مع ولده، ثم انحدر به من ذلك الجبل كالليث المشبل، وكساه قباء فكان ملأه رونقًا وبهاء وعزًا وسناء، فلما رأى العسكر سامًا قد أسهل مع ابنه دستان رفعوا أصواتهم بالبشارات، وكاد الطرب يسلب عقولهم، وأقبلوا راجعين إلى المدينة بالدبادب والبشائر، فاستفاضت بذلك الأخبار حتى بلغ الخبر إلى حضرة منوجهر، فأنفذ ابنه نوذر إلى سام للتهنئة بما يسر الله له من رجوع ولده إليه، وأمره بالركوب مع دستان إلى الحضرة فى أسرع زمان وأقرب أوان، فلما وصل نوذر إلى سام خرج مبادرًا وخيم بظاهر البلد فتنجز أموره، ورتب أسبابه، ونهض مع دستان متوجهًا نحو الحضرة، فلم يزل يصل السير بالسرى حتى وصل إلى مستقر سرير السلطنة، فخرج منوجهر لاستقباله فى مواكب جنوده، تحت أعلامه وبنوده، فلما رأى سام درفشه الميمون ولواءه المنصور ترجل إجلالاً، وقبل الأرض إعظامًا وإكبارًا، فأوسعه الملك برًا وإلطافًا، وأمره بالركوب فسارا إلى دار المملكة، وجلس على سرير الذهب، وأجلسه عن يمينه، وأجلس قارن عن يساره، وأمر الحاجب الكبير

بإحضار دستان، فخرج وأخذ بيد دستان وأدخله على الملك مشدود الخصر بمنطقة مرصعة باليواقيت، معصوب الرأس بإكليل من الذهب، على كاهله جرز كقطعة من الجبل، وكأنه يحكى بذلك الرأس الأبيض والوجه الأزهر، تحت إكليل الذهب الأحمر، صورة القمر بعد التسع والخمس، متوجًا بعين الشمس، فملأ عين الملك بشكله وشمائله، وما لاح فيه من إمارات العز ومخايله، ففرح بلقائه وشكر الله تعالى على ما رزقه من الاكتحال بوجهه، والاستظهار به ليومه وغده، وقربه من بساطه ومسح عينه ووجهه بيده، ثم أقبل على سام واستخبره عن أحواله وكيفية استنزاله من معشش العنقاء وشعفات تلك الجبال، فسرد لديه حكايته من أول ميلاده إلى يومه ذلك، فلما سمع الملك ذلك أمر بإحضار المنجمين وسايلهم عن طالع دستان وما قدر الله له من المقامات، وكتب على يده من الوقائع، فنظروا فى ذلك وتدبروا ثم جاءوا إلى الملك مبشرين بسعادة طالعه، ويمن نقيبته، فسر الملك بذلك وأمر لهم بمال عظيم، ثم قال لسام: هذا وديعتى عندك، وهو علىّ أعز من إحدى عينى، وشرط عليه أن يعلمه بمكارم الأخلاق وآداب الملوك ومراسمهم فى حالتى الحل والترحال، والسلم والقتال، ثم أمر له بخلعة راقت العيون وشرحت الصدور، من الديباج المنسوجة بالذهب، والمرصعة بالجواهر الثمينة، بأطباق من اليواقيت واللآلى، وعدد من الخيول العتاق، وجماعة من روقة الغلمان الرشاق، وعقد له لواء عظيمًا، ووقع له بجميع ممالك الهند والسند وما والاهما من الممالك فتوجه إلى تلك الولايات فى مواكب العز والإقبال، وكواكب المجد والجلال، فاستقر بها على سرير الملك ينهى ويأمر حتى استنهضه الملك فى بعض المهمات السانحة، وهو استخلاص مملكة مازندران التى استولى عليهابعض العتاة المعاندين والعداة المارقين، فدعا بابنه دستان واستنابه فى مملكته، وأمر أركان دولته وأعيان حضرته بالتوفر على خدمته وإقامة مراسم طاعته، وأمر الوزراء والنصحاء ومن ندبهم لمنادمته ومجالسته من الكفاة الأذكياء والعلماء الأتقياء بتحريضه على مكارم السير، وتأديبه بمحاسن الشيم ثم أذن له فى الطرد والصيد متوجهًا حيثما أراد من أطراف المملكة

فودعه وانحدر على مقتضى الامتثال إلى أرض مازندران لما ندب له من استخلاص تلك الممالك وقتال من استولى عليها من المخالفين المعاندين.

- قصة دستان وبنت مهراب

قعد دستان مقعد أبيه ينهى ويأمر، ويورد ويصدر، ثم أنه نهض متصيدًا إلة قرب أراضى كابل، وكان لتلك البلاد ملك يسمى مهراب، فلما سمع بقرب دستان منه ركب إلى حضرته للخدمة، واستصحب من طرائف الجواهر ونفائس ما يليق أن يتحف به مثله من الملوك فقبله دستان أحسن قبول، وقابله بأتم إحسان وإكرام، وكان مهراب ذا صورة عجيبة تستوقف الألحاظ وتستتبع الأحداق، من شطاط قامة، وحسن وجه، ولين معطف، وأبهة جلالة، وطراوة منظر، وعذوبة منطق. فلما قام من حضرة دستان وخرج أقبل على أصحابه وندمانه، وقال: ما أحسن هذا الشاب، وإنه قد ملأ قلبى بمحاسنه وشمائله، وكأنه ما ولد قط مثله، فلم يزل يكرر هذا الكلام ونحوه حتى قال له بعض الندماء. إن وراء حجابه بنتًا كالشمس الطالعة، وقد خلقت من طينة الجمال، وأفرغت فى قالب الكمال.

بيضاء تسحب من قيام فرعها ... وتغيب فيه وهو وحف أسحم

فكأنها فيه نهار ساطع ... وكأنه ليل عليها مظلم

فاستهام بها دستان، وشغفه حبها حتى ملك الغرام عنان قلبه، واستلبه زمام عقله، وجعل يتجلد ويخفى ما يجن ويضمر، فأبت لواعج همومه إلا الاشتعال، وسوابق عبراته إلا الانهمال، نعم ولما أصبح مهراب جاء إلى باب سرادقه للخدمة، فبادر الحجاب ورفعوا دونه الحجب حتى دخل على دستان، فتهلل فى وجهه، وتلقاه بأريحيته، ولاطفه فى الكلام، وأمر برفع حوائجه، ووعده بإنجاح مطالبه، وإنجاز مآربه. فقال مهراب: إن حاجتى أن يتجشم الملك حضور منزلى لينوره بإشراق طلعته مشرفًا عبده بذلك فقال: أما هذا فلا سبيل إليه بدون أمر الملك سام، واعتذر إليه، وخلع عليه، ورده إلى داره على جملة تسر قلوب مواليه، وتسخن عيون أعاديه، فلما عاد مهراب إلى داره سايلته زوجته عن دستان

وصورته وشكله وحاله بمحضر من ابنته، وكانت تسمى روذابه فطفق مهراب يصفه ويذكر ما أعطاه الله من الصورة الجميلة والشمائل المعسولة، والمنظر البهى، والرواء الأنيق. وقال: غير أن رأسه أبيض كالكافور، يرف شعره واردًا على عارضيه كأوراق الأقحوان على شقائق النعمان، فكأنه لا يصلح لحمرة وجهه غير بياض شعره، ولا لبياض شعره غير حمرة خده، فجعلت روذابه تسمع ذلك بمجامع قلبها حتى أثرت تلك الصفة فيها فتغير وجهها، واصفر لونها، وما أحسن ما قال بعض الحكماء: لا تصفوا محاسن الرجال لربات الحجال فإنها تعلق بقلوبهن، وتأخذ من نفوسهن، وتفتح عليه مكامن الشيطان، فلا يكون للعقل بمقابلتها يدان، فعشقته روذابه، وحالفتها الأشجان حتى ملك الهوى عنان اختيارها، وفجعها بنومها وقرارها، ولما عادت إلى بيتها ضاقت ذرعًا عن كتمان سرها، وكان لها خمس جوارٍ يخدمنها ويحضنها مختصات بها، فأفضت إليهن بمكنون سرها ومخزون أمرها، وأخبرتهن بما تقاسيه من لواعج الحزن ولوافح الحب، فأنكرن ذلك عليها، وأطلقن ألسنتهن بالتوبيخ والتعنيف، وأخذن يخوفنها سطوة مهراب، ويذكرن لها شدة غيرته على الحرم، فخنقتها العبرات وتصعدت من صدرها الزفرات ثم أقبلت عليهن وقالت: قد فنى منى الاصطبار، وخرج من يدى الاختيار.

لم يبق لى الشوق لا صبراً ولا جلداً فليصبرن خلى يملك الخلدا

فصارت لا تستأنس إلا بوصفه، ولا تستريح إلا إلى ذكره، فلما أبصرن ذلك طفقن يعللن قلبها ويقلن: إنا سنتدبر فى شأنك وسنجمع بينه وبينك، وكان معسكر دستان قريبًا من قصرها، فلبسن وشائع الحلل، وتبرجن للألحاظ والمقل، وأخذت كل واحدة منهن على يدها طبقًا من ذهب، وصرن إلى بستان قريب منه على شط نهر، وجعلن يجتنين الورد والياسمين وأنواع الرياحين، وينضدن ما يجتنينه على الأطباق، وذلك بمرأى من دستان، فأبصرهن من تحت السرادق وسايل عنهن، فقيل وصائف خرجن من قصر مهراب إلى هذا البستان، يجتنين الورد والريحان، فدعا بالقوس والنشاب وقام يتمشى بين تلك الرياض ومعه

جماعة من صغار الغلمان الحصارية، فلما قرب من الماء أزعج طيرًا ورماه بنشابة فوقع الطير إلى ذلك الجانب من الماء، وبين أشجار الورد والياسمين، عند الجوارى المذكورات، فأمر بعض الغلمان بالعبور إلى ذلك الجانب وأخذ الطير، فلما عبر الغلام إلى البستان سايلته إحداهن عن الشاب، فقال الوصيف: هذا ابن ملك الهند، وهو كما ترين يروق للعيون جمالاً، ويملأ القلوب كمالاً، وطالت مسارتهما، فضحكت الجارية وقالت للغلام: إن وراءنا فى الحجاب سيدة كالقمر ليلة التمام، وأخذت تصف صاحبتها له وهو يصغى إلى ذلك، ثم رجع بالطير إلى صاحبه فسايله عن الجارية وعما حاورته فيه فسرد عليه ما جرى بينهما فسر بذلك حتى توردت صفحات وجنته، وتهللت أسارير جبهته، ثم رد الغلام إلى الجارية وأمرها ألا تبرح من البستان إلا بإذن الملك، ودعا الخازن وأمره فأحضر قطعًا من الجواهر النفيسة فأنفذها على يد ذلك الغلام إلى الجارية، وأمرها أن تحملها إلى صاحبتها، وبأن لا تبرح من مكانها حتى يحملها رسالة إليها. فقالت الجارية: إن كان للملك رسالة فلا يسمعنها غيرى؛ فإن السر إذا جاوز اثنين لا يبقى مكتومًا وكان بالإذاعة قمينًا، فتجشم الملك النهوض إلى البستان، وخلا بتلك الجارية وباح إليها بمكنون سره، وأخبرها بما انطوى عليه قلبه من حب صاحبتها، ثم رجعت الوصائف الخمس إلى القصر، وبشرت تلك الجارية سيدتها بأن قلب الملك هائم بها، وأن وجده بها فوق وجدها به، وقدمن الجواهر التى أنفذها بين يديها، ففرحت بذلك وسرى عنها بعض همومها، ثم ترددت الجارية بين المتعاشقين حتى تواعدا على الاجتماع، فلما جن الليل جاء دستان ووقف عند أصل القصر، وأشرفت عليه روذابه من بعض شرفاته، قال، والعهده عليه: فسدلت قرونها وأشارت إلى أن يتعلق بها ويصعد، فامتنع من ذلك وقبل تلك الضفائر الممسكة، وعلق الوهق وصعد فى أسرع من رجع الطرف، فاجتمعت الشمس والقمر، وطال بينهما الحديث والسمر، وباتا يتشاكيان حر الاشتياق، ويتفاوضان ذكر الفراق، في مجلس فرش بالديباج والحرير، ونضد بالمسك والعبير، فكانا كما قال الشاعر:

بتنا ضجيعين فى ثوبى هوي وتقى   يلفنا الشوق من فرع إلى قدم
وبيننا عفة بايعتها بيدى   على الوفاء بها والرعى للذمم
وأكتم الصبح عنها وهى غافلة   حتى تكلم عصفور على علم

فلما نفحت نسايم السحر، وتشعشعت تباشير الصبح، وغردت سواجع الأطيار، فى عذبات الغصون والأشجار، قام دستان فودعها فتعانقا وتحالفا على ألا يقرب كل واحد منهما غير صاحبه حتى يجمع الله بينهما بالنكاح، فافترقا على ذلك وجاء إلى مخيمه. فلما طلعت الشمس جمع الوزراء والأمراء وشاورهم وأعلمهم بأنه يريد أن يتزوج بابنة مهراب، فقالوا إنه من أولاد الضحاك، ولا يخفى عليك ما بين البيتين من العداوة والشحناء، ولا يرضى أبوك سام ولا الملك منوجهر بأن يجرى بينكما امتزاج واتشاج، وإن سمعا بميلك إلى هذه المصاهرة احتدما غيظًا وصعب استرضاؤهما وتعذر استعطافهما، فلما سمع ذلك أطرق محزونًا مكتئبًا، ثم أقبل عليهم وقال: لابد من إعمال الفكر فى ذلك بما يفضى إلى حصول هذا المقصود، فأشاروا عليه بأن يكتب إلى أبيه ويتضرع إليه، ويعرض ما بلى به من العشق عليه، فلعله يرق قلبه ويتشفع إلى الملك ويتوسل إليه بذرائع عبوديته وشوافع خدمته، ويسأله إذنه فى مصاهرته تلك، فاستصوب هذا الرأى، فأحضر الكاتب وأمره أن يضمخ كافور القرطاس بمسك الأنفاس، ويكتب إلى حضرة ذاك الهزبر الهصور كتابًا يفتتحه بالثناء على الله خالق الأمم وبارئ النسم، ثم يثنى بالدعاء بثبات دوحة الجلال وجرثومة الإقبال، ليث الحفاظ وغيث النوال، مفخر السيوف والأرماح، وفاجع الأشباح بالأرواح، ثم يثلث بما بلى به قرة عينه، وفلذة كبده من شغفه بالمخدرة العربية، ثم يذكره العهود التى أبرمها يوم استنزاله من معشش العنقاء فى إيثار ما يعود بطيب قلبه، ويقضى بخفض عيشه، ثم يستأذنه، بعد الإطناب والإسهاب فى معنى خلوص عبوديته، ونصوع طاعته، فى المصاهرة المذكورة، والمواصلة المطلوبة، فكتب على تلك الجملة كتابًا وختمه بالمسك، وطير به راكبًا إلى مازندران إلى حضرة سام، فلما وصل الرسول أخبر سام بمقدمه فقربه من بساطه، فأوصل إليه الكتاب بعد تقبيل التراب،

وإقامة شرائط الخدمة، ففض ختامه وقرأه، فأخذه الوجوم، وتناوشته الهموم، ثم أخذ يفكر فى السبيل الموصل إلى ما خامر قلب ابنه من مواصلة آل الضحاك ومصاهرتهم، ورأى أن ذلك مما لا يرتضيه الملك متوجهر، فأحضر المنجمين والحكماء وشاورهم فيما هجس فى ضمير ولده من ذلك، وأنه كيف يجوز الحزم التغافل والتغابى عن الحقود الدفينة والحسائك القديمة، وقال لهم: تدبروا فى ذلك الأمر، واستدلوا بطالعيهما على ما فيه من الخير والشر، واستعينوا على ذلك ببصيرة العقل وقوة الفهم، واستشفوا ستر العواقب، وطالعوا مرآة الغيب بالآراء الثواقب، ثم أعلمونى نتيجة ذلك، وأذن لهم فقاموا والتجئوا إلى الزيجات والتقاويم، وتشمروا للنظر السديد والرأى القويم، حتى وقفوا على الأمر المكنون والسر المخزون، ثم جاءوا إلى باب الملك مبشرين بسعادات دلت المخايل على ظهورها، وآذنت تباشيرها بطلوعها، وأخبروه أن الله أجرى قلم التقدير فى اللوح المحفوظ باقتران السعدين، واجتماع النيرين بتواصل البيتين، وأنه يولد بينهما ولد يملأ الدنيا مهابة وقهرًا، وشهامة وفخرًا، ويرفع تاج السلطان إلى أوج الكيوان، ويطهر بساط الأرض من أهل البغى والطغيان، وتشتعل به نار ملوك الفرس حتى تمد باعها إلى ذروة السماك، ويضرب لهم رواق المجد على مفرق الأفلاك، فلما سمع سام ذلك من المنجمين أخذته أريحية الطرب، وتمشت فى رأسه نشوة الفرح، فأفاض على أعطافهم الخلع الرائقة وأجزل لهم الأعطية والمنح الوافرة، ثم دعا برسول ولده دستان وأمره بالرجوع إليه، ورد إليه، أنا نتوصل إلى قضاء حوائجك ونسعى فى إنجاح مطالبك، ونهض إلى حضرة السلطان لاستئذانه فى إنشاء هذه المصاهرة، وتنجيز هذه المواصلة، وأمر بأن ينادى فى العسكر بالرحيل والتوجه إلى مستقر سرير الملك، بعد ما كفاه الله تعالى ما اهتم به من العدو، وأنعم عليه بالظفر والنصر والنجاح والفوز.

ـ انكشاف حال روذابه عند أمها وأبيها

قال: فرجع الرسول إلى حضرة دستان، وأعلمه أن أباه تقبل له بإنجاح المأمول، وإطلاب المقصود، فدعا بعجوز كانت تتردد بينه وبين روذابه، وأنفذها

إليها وأصحبها الرسالة التى عاد بها الرسول من عند أبيه، فدخلت عليها وبشرتها بذلك فتخايلت من الفرح وتهللت من المرح، فأمرت لها بخلعة من القصب منسوجة بالذهب، فلما خرجت من عندها رأتها «سين دخت» أم روذابه، فاسترابت بها، وأمرت بالقبض عليها واستكشافها عما وراءها.

ففزعت العجوز وتعلقت بأذيال الأكاذيب، وتمسكت بأهداب المخاريق، فما وقع ما ذكرته عندها موقع القبول، وأمرت بتفتيش ما اشتمل عليه إزارها، فعثروا على تلك الخلعة الفاخرة، فشددت حينئذ على الخبيثة الفاجرة، وأغلقت جميع الأبواب، وطفقت تلطم الورد بالعناب، وتفض من النرجستين عقود اللؤلؤ المذاب، ودخلت على بنتها وأخذت تخاطبها بلسان اللوم والتعنيف والعذل والتوبيخ على طرحها قناع الحياء، وتدرعها ملابس الفحشاء، وتؤاخذها بإلباس العجوز الشوهاء ملابس الخريدة العذراء، فما أجابتها إلا بالإطراق ورمى الأرض بالأحداق. فلما طالت مطالبتها لها بإظهار حالها وإعلان سرها تنفست الصعداء، وأسبلت من محاجرها الدماء، وفضت ختام سرها وذكرت لها شغفها بابن الملك، واجتماعهما فى تلك الليلة، وما جرى بينهما من المعاهدة والمحالفة على الازدواج والامتزاج والأخذ فيما يفضى إليه من السعى البليغ والجهد الأكيد، وأخبرتها بأنه قد كتب فى المعنى إلى أبيه سام، وأنه رد إليه فى جواب كتابه أنى أنهض إلى حضرة الملك منوجهر وأستأذنه فى ذلك توخيًا لما يرتضيه، وانقيادًا لما يبتغيه، فلما سمعت ذلك سين دخت خفضت من غلوائها قليلاً، وكفكفت من طغيانها حتى عاد حده كليلاً لميلها إلى مصاهرة ابن الملك والاتصال به رغبة فيه لمكانه وعلو شأنه، ثم اعتذرت إلى تلك العجوز وطيبت قلبها، وأمرتها بإسبال الستر على ما جرى من الإساءة، ودخلت إلى قصر مهراب واضطجعت فى موضعها تتفكر فى الحادث الكارث، وتتفكر فى عاقبة الأمر ووخامته.

فدخل مهراب فرآها نائمة على غير العادة المعهودة، منزعجة قد تورست صفحات خدها بردع الألم، وترددت فى محاجرها عبرات الهم والحزن، فاستخبرها عن حاله فما أجابت إلا بما نبت عنه مسامعه، واستبعدته ألمعيته،

فألح عليها فى إظهار ما انطوى عليه سرها، وبث ما استجنه ضميرها، واستمرت على المدافعة عن إطلاعه على حقيقة الحال، والإفصاح عنها بصدق المقال، فلم يزل يعيد عليها السؤال حتى شرحت لديه الحال، فلما وقف على ذلك مهراب تضرمت نيران غيرته، ووثب كالليث المحرج إلى السيف متوجهًا نحو البيت، فنهضت زوجته وتعلقت به، ثم قالت: إنى أعرض عليك رأيًا فإن كان من الصواب قريبًا قبلته وإلا مضيت على غلوائك ومقتضى رأيك فتوقف ساعة. فقالت: إن هذا الأمر قد شاع وإن دستان قد كتب بذلك إلى أبيه سام، ورجع الرسول إليه مخبرًا بأنه نهض من مازندران متوجهًا إلى حضرة السلطان ليستأذنه فى الخطبة إليك، وسردت عليه جميع ما جرى من المراسلات والمكاتبات، فلما سمع مهراب ذلك خفض قليلاً، ومال إلى جريان الاتصال بين الدولتين، اعتضادًا للبعض بالبعض من الجانبين.

قال: فاطلع منوجهر على الحال وأنهى إليه أن ابن سام يريد الاتصال ببنت مهراب، وأن أباه متابع على ذلك ومصمم على النهوض إلى حضرته لاستئذانه، فاحتدم غيظًا واستشاط غضبًا، وجمع وزراءه، وقواده وفاوضهم فى ذلك، وقال: أخاف أن يكون تحت الرماد جمر يثور منه دخان، وقد علمتم أن أفريدون كم تجرع غصص المكاره حتى استأصل شأفة الضحاك، وإذا حصل بين ابن سام وبنت مهراب التى هى شعبة من الدوحة الضحاكية تزاوج أمكن أن يحصل بينهما ولد يكون له صغو إلى أمه، فتحدثه نفسه بإحياء بعض سنن البيت، فيتفاقم الأمر ويعضل الداء، والحزم ألا يفتح له طريق إلى هذا، ولا يمكن من السؤال فى ذلك المعنى، فاستصوبوا رأيه وأثنوا عليه، فلما قدم سام استقبله على العادة المعهودة، وتلقاه بالإعظام والإجلال والبر والإكرام، وأنزله على جملة الاحترام. فلما كان من الغد جاء برسم الخدمة إلى باب الملك فرفع دونه الحجب، وتلقاه الملك بالبشر والتهلل، وسايله عما قاساه من محاربة شياطين مازندران ومكافحة أسود كركساران، وما لاقاه من مقاتلتهم ومعاركتهم، فأخبره بما جرى له من أول نهوضه إلى أن فتح الله عليه تلك البلاد، وذكر له ما تيسر من قتل ملكهم الذى

كان من أولاد سلم بن أفريدون، وأعلمه أنه قد صفت له تلك المملكة وانضمت إلى جملة ممالكه. فلما أنهى حديثه أثنى الملك عليه وشكر سعيه، ثم دعا بآلات مجلس الأنس، واشتغلوا بالقصف والطرب، وتعاطوا أقداح اللهو والفرح، حتى استباحت عقولهم الكئوس، وثقلت من فضلات الراح الرؤوس، استأذن حينئذ سام للقيام، ورجع إلى مضطجعه. فلما أصبح الصبح ركب إلى خدمة الملك ليعرض بذكر ولده زال، ويستأذن له فى معنى الاتصال ببنت مهراب، فلما دخل على منوجهر رآه كالمغتاظ محتدمًا كالنار، فافتتح وقال لسام: إنا تدبرنا فى أمر مهراب وأنه شعبة من تلك الجرثومة الخبيثة ولابد من قلعها واستئصالها، وقد اقتضت آراؤنا أن تنهض لكفاية أمره، واستصفاء مملكته، واستضافتها إلى ما فى يدك من ممالك الهند، فلما رأى سام أن الملك قد سد عليه طريق ملتمسه كف لسان سؤاله، وسارع إلى الانقياد، وتشمر لما جرد فقبل الأرض وخرج متوجهًا نحو ممالك الهند، فتناهى الخبر بذلك إلى زال ومهراب، وقامت القيامة على مهراب وأصحابه ويئسوا من الحياة، وضاقت الأرض على زال؛ لأنه كان السبب فى إيقاد نائرة الفتنة، وتوقد من الغيظ متنمرًا كالثعبان الصائل، حتى قال يومًا: إن مهراب نسيبى وهو معتضد بقوة بأسى وشدة مراسى، ولا يقدر العقاب أن يطير على ساحة مملكته مادام هذا الرأس على جسدى واستقر هذا الصمصام فى يدى. ثم جاء الخبر بمقدم أبيه فخرج للاستقبال فى مواكبه، فلما طلعت رايات أبيه ترجل للخدمة، يتلقى الأرض بيده، ويلثم التراب بفيه، فأركبه أبوه وعانقه ومسح بيده غرته. فسار تحت أعلامه حتى نزل فى إيوانه، فخلا به فى الوقت وأخذ يبث إليه شكوى الحال، وما قاساه مدة مفارقته من الأشواق إليه، ثم ما أصابه من رسيس الوجد وحرقة الغرام، وأذكره معاهدته إياه على مواتاته فيما يطلب ويقترح، ومعاونته فيما يعرض من مآربه ويسنح، وتنكبه عما يعود بضيق صدره، ويقضى بشغل قلبه. وقال: وكأنك الآن لم تقدم من مازندران إلا على ما يوغر صدرى ويوحش قلبى ويفجع بروحى شخصى، لما أنت عليه مصمم من محاربة مهراب، وتخريب دياره وانتهاب خزائنه ورغائبه، فإن كان

الأمر علي هذه الجملة فها أنا واقف بين يديك، مسلم زمام قيادى إليك، فخذ رأسى أولاً ثم خض فى محاربة مهراب ثانيًا. فرق عند ذلك من سام قلبه، ولانت صفاته، وطفق يعلل قلب ابنه بالأمانى، وقال له: إنى أنفذك إلى خدمة الملك، وأكتب إليه كتابًا أستطعفه وأسأله الإنعام عليك بما يفضى إلى إنجاح مآربك، وقضاء حوائجك، فاستحضر الكاتب وأمره أن يكتب مفتتحاً بحمد الله خالق النجم والشجر، ومنور الشمس والقمر، المتصف بالقدم، المسلط على الوجود يد العدم، ومثنيًا بالثناء على الملك الجليل ناعش التاج والتخت ومالك الشرق والغرب، ثم قال إنه لا يخفى على آرائه العالية أنى قد طعنت فى السن وتلفعت برداء الشيب، وضعف كاهلى عن حمل أثقال السلاح، ووهت منتى عن إعمال السيف عند الكفاح، ثم أخذ يدل فى كتابه بحرمانه السالفة، وحقوقه الثابتة، ومقاماته المشهورة، ووقائعه المذكورة، ونكاياته فى أعادى دولته ومخالفى كلمته، ويصف مالاقاه فى محاربة سعالى مازندران وعفاريت كركساران، ويذكر أنه جعل ولده دستان ولى عهده فى عبودية الملك وكفاية ما يحدث من مهم يحتاج فيه إلى قوة باس وشدة مراس، وأنه قد نفذه إلى حضرة الملك حتى يكتحل بالطلعة الميمونة ويمثل فى زمرة العبيد، وبعد ذلك لا يخفى على ألمعية الملك أنه وإن كان بقوة أعضاده يدفع فى نحور الآساد، ويضعضع أركان الأطواد، فهو ربيب الطير، ومن أجل ذلك هو رقيق القلب وكأنه قد رأى بنت مهراب فملكت قلبه، وسلبته عقله، فهو أسير فى يد الغرام، منفجر الدمع مثل الغمام، نومه غرار، ودموعه غزار، وقد وفى إلى حضرة الملك ملتجئًا إلى عاطفته، ومستعيذًا بظل رأفته، راجيًا أن ينعم عليه بالإذن فيما يروم، وختم الكتاب بالدعاء والثناء، ودعا بدستان ودفع إليه الكتاب، وأمره أن يتوجه إلى خدمة الملك منوجهر فركب يطوى الأرض كالبرق الخاطف، حتى وصل إلى مستقر الملك منوجهر على ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى.

- إرسال مهراب زوجته سين دخت

لما شاع فى بلاد كابل أن منوجهر أمر سامًا بالنهوض إليها لتخريبها

واستصفاء حصونها وقلاعها واستفاضت به الأخبار اهتاج مهراب وطار واقعه، وأقضت مضاجعه، فالتهب مستشيطًا، ودعا بزوجته سين دخت، وشكا إليها ما ابتلى به من شؤم بنتها وقبح فعلها، وأنه بسببها قد ظهر الشر الكامن، وتحرك العرق الساكن، وأوعد بقتلها مع بنتها متوسلاً بذلك إلى استعطاف الملك منوجهر واسترضائه فلعله يكف عن غلوائه، ويمسك عن محاربته، وانتزاع مملكته من يده، فالتجأت إلى أعمال الحيلة، وإجالة الفكر فيما يقضى لها بالنجاة من تلك المصيبة، فنهضت خائفة ترجف أحشاؤها، وباتت بليلة أنقد، تأبى مزعجات الخف أن تغفو وترقد. فلما أصبحت دخلت على زوجها وقالت إن هذا الأمر لابد من تلافيه، ومقتضى الحزم التشمر فيه، فإنه ما عز أمر إلا هان، ولا تصعب ريض إلا استقاد ولان، وكذلك ظلام الليل وإن أرخى سدوله، وسحب على النواظر ذيوله، فلابد من انفراجه بطلوع الصبح، وابتلاجه، والرأى أن أنهض رسولاً إلى سام، وأستل هذا الحسام، وأستعطفه وأستلين عريكته، وأطفئ هذه النائرة، وأسكن الفتن الثائرة، وإذا خاطرت أنا بالروح فلابد لك من المساعدة بالمال فاستصوب مهراب رأيها ورضى لها بالبروز، وسلمت إليها مفاتيح الكنوز، وأطلق يدها فى جميع تلك الرغائب والذخائر والحرائب فقالت: لا آمن إذا غبت على روذابه من بائقة غضبك وبادرة سطوتك، ولا يمكن خروجى إلا بعد الاستظهار منك بعقود محكمة ومواثيق مبرمة على كف عاديتك عنها، ففعل ذلك ثم تشمرت للنفوذ فى ذلك وفتحت أبواب الخزائن وأخرجت ثلاثين ألف دينار برسم النثار، وعشرة من الخيول المذكورة، وثلاثين رأسًا غيرها من العراب الجياد، وخمسين وصيفًا كالأقمار الطالعة، مشدودى الأوساط بمناطق الجواهر الرائعة، وستين وصيفة كأنهن ضرائر الحور العين، على يد كل واحد جام مملوء من المسك الفتيق والعنبر السحيق، وأربعين رزمة من الوشائع الرومية والديباج التسترية، ومائة قطعة من السيوف الهندية، والصوارم المشرفية، ومائة ناقة حمر الأوبار هدل الشفاه قوالص الأشفار، ومائة بغلة كأركان الجبال برسم الأحمال، وتاجًا من الذهب محلى بزهر الجواهر، كالشمس المنقطة بالنجوم الزواهر،

وتختاً يشبه الفلك الدوار ركبت فيه يواقيت تخطف الأبصار، وأربعة من الفيلة الهائلة التى تضرب وسط الحروب بالأسداد وتزاحم مناكب الأطواد. قال: فلما أعدت استعدت وركبت منطلقة نحو حضرة سام فلم يحس بها أحد حتى حلت بفنائه، فسألت الحجاب أن يعلموا سامًا بوصول رسول من عند ملك كابل، فلما أخبر سام بذلك أمر أن ترفع دونها الحجب، فدخلت وقبلت الأرض، ومثلت بين يديه، وكانت قد أمرت أن تصف الهدايا صفوفًا وبأن يقدم الواحد منها بعد الواحد بين يدى سام، ففعل ذلك وأعجبته تلك التحف بكثرتها وجميل هيئتها، وجعل يتعجب من إنفاذ مهراب إياها على يدى امرأة ويقول فى نفسه: إن قبلت هذه التحف وعلم بذلك منوجهر لم آمن عواقب سخطه، وإن لم أقبلها وسمع بذلك دستان تنمر فطار واقعه وهاج وادعه، فوقع له أن يسلموا تلك الهدايا والتحف إلى خازن ابنه دستان، فلما رأت العقيلة الكابلية أن سامًا أمر بقبول مستحصباتها تهللت فرحًا، وكانت معها ثلاث وصائف على يد كل واحدة طبق مشحون من الياقوت والزبرجد فأمرتهن فنثرنها تحت قدم سام، ثم أخلى المجلس لأداء الرسالة، فتقدمت نحو بساطه، وأطلقت لسانها بالثناء وقالت: أيها الملك، إنه لا تتعلم مكارم الشيم إلا من أخلاقك، ولا يهتدى إلى طريق المحاسن والمآثر إلا بإشراق أنوارك، وأنت الذى يفرج برأيك رتاج كل أمر، ويغلق بعدلك باب كل شر، ولا يخفى عليك أن البرىء لا يؤاخذ بذنب المجرم، وأن المحسن لا يقابل بجزاء المسىء المذنب، وإذا أساء الضحاك الذى ذاق وبال ظلمه، واستوخم عاقبة فعله، فأنى تجوز المعدلة الفائضة والرحمة الشاملة أن يعاقب لإساءته مهراب الذى هو غرس نعمتك وتراب قدمك، ولم يسلك منذ تصدى لسلطنة كابل غير طريق طاعتك ومنهج عبوديتك، نعم وإن كان قصد الملك لبلاده من أجل الدين فإن إلهنا وإلهكم واحد، لا خلاف بين الطائفتين فيه، غير أن قبلتنا التماثيل والأصنام وقبلتكم الشمس والنيران، وعلى الجملة فأنت تعلم أن سفك الدماء لا يستحسن، وأن مؤاخذة غير المجرم عند الملوك تستهجن، فلما سمع سام ذلك أقبل عليها وسايلها عن حالها، أهى زوجة مهراب أم مستخدمة له؟ ثم

سايلها عن حال روذابه وصفتها وعن مبدأ السبب فى هيمان ولده بها. فقالت: إذا وثقت من الملك بمعاهدته إياها على ألا يرصد لها ولا لصاحبها بالغوائل، ولا يقصدهما قصد العدو المخاتل، أطلعته بصدق المقال على جميع الأحوال، فصفق بيده على يدها وحالفها على ذلك، فقامت سين دخت وقبلت الأرض، وقالت: أما أنا فإنى مع انتسابى إلى الدوحة الضحاكية، صاحبة مهراب ووالدة روذابه التى ملكت بجمالها وكمالها قلب ابنك دستان، ونحن كلنا عبيد حضرتك، والمنخرطون فى سلك خدمتك، نسأل الله تعالى دوام ملكك وثبات دولتك، وإنما باشرت بنفسى هذه الرسالة لأعرف رأيك فى أهل كابل، فإن كنا نحن من المجرمين، أولا لا نليق بالملك فى تلك الأرضين جريت فينا على مقتضى رأيك، فسيفك محكم فى رقابنا ولا ينبغى على ذلك أن تتعرض بمكروه لأهل كابل الذين لم يجترحوا ذنبًا، ولم يقترفوا جرمًا، فلما علم سام صدق مقالتها ونصوع طويتها فى الطاعة أقبل عليها وقال إن المعاهدة بيننا قد سبقت آنفًا، ولست عن مقتضاها أحيد، ولو قطع منى الوريد، فاسرحوا آمنين فى مراتع عيشكم، واطمئنوا وادعين فى ظلال أمنكم، فإنى مظاهر ولدى على هذه المصاهرة والمواصلة، وإن كنتم من أهل بيت آخر فإنكم من أهل الملك، ومن أصحاب التاج والتخت، وولاة الأمر والنهى، ولكن جرت عادة الأيام بتقلب الأحوال، والعاقل يعلم أن لأدوار الدول أطوار، وأن فى مسالك الحظوظ أنجادًا وأغوارًا، فمن ناقص ينمو نمو الهلال، وكامل ينقص كالقمر بعد الكمال، ومصير الكل إلى الزوال، وإنى قد كتبت إلى الملك منوجهر كتاب تضرع وابتهال، ونفذته إلى حضرته على يدى ولدى زال، وقد حلق نحوه طائراً بقوادم العجلة، حتى كأنه حين ركب لم تحوه دفتا سرجه، ولم تمسس التراب حوافز خيله، وسيرد الملك، إن شاء الله، عنانه منعماً على بإنجاح أمله، وقضاء وطره. فرأت سين دخت حينئذ مباسم سام عن الرضا متبسمة، وأسارير جبينه بالارتياح متهللة، فطيرت فارساً إلى مهراب مبشراً بما حصل من استرضاء سام، ورجوعه خطة الموافقة، ومخبرًا بما فى نفسه من المساعدة على المصاهرة، ثم جاءت صباح اليوم الثانى إلى سام واستأذنته فى الرجوع إلى دار

ملكها، ومقر عزها، للاشتغال بإعداد أسباب العرس الميمون، فأذن لها فى المعاودة، وأمر لها بخلعة تليق بمكانتها وجلالها. ووهب لها جميع ما كان فى بلاد كابل من الدور والقصور والخيل والنعم، إلى غير ذلك من أنواع النعم، وتصافقا ثانيا متقبلا روذابه لولده دستان، قولاً يصدقه الوفاء، ووصلا يشايعه البنون والرفاء، وقال لها: لن تراعوا بعد يومكم هذا فودعها وسرحها راجعة وأفذ فى خدمتها أميراً كبيراً فى مائتى فارس، يصحبها إلى أن تطأ عرصة مملكتها، وتعود إلى ظلال دولتها.

وصول زال إلى حضرة منوجهر

جاء الخبر إلى منوجهر بوصول زال فاستقبله أعيان القواد وأمراء الأجناد. ولما قرب من السرادق رفعت دونه الستور حتى دخل. فلما وقعت عينه على الملك قبل الأرض، ووضع جبهته على التراب على رسمهم فى الخدمة، وبقى كذلك ساعة. فأشار إلى من وقع رأسه من الأرض وقربه إلى التخت فلاطفه فى خطابه. وسايله عن حاله، وما تحمله من وعثاء السفر فى حلة وترحاله، فقال: كل تعب يفضى إلى لقائك فهو راحة وسرور، وكل عناء يقع فى الطريق إليك فهو مسرة وحبور. فتناول منه الكتاب فتبسم لما قرأه مستبشراً متهللاً. ثم أقبل عليه وقال: حملت قلبك همّا طويلاً، وألزمت نفسك عناء عظيماً. ولكن العزم بسبب هذا الكتاب الذى كتبه ذلك الشيخ الكبير، وإن كان صدرى بما فيه يضيق، ألا تسد دون مرادك الطريق، وسأقضى لك جميع حوائجك، وأحقق جميع مآربك، ومدوا السماط، فلما طعموا ورفع مالوا إلى مجلس الأنس والطرب، وتعاطوا كئوس الرحيق. ولما ثمل دستان نهض فأركب إلى مخيمه. ولما أصبح عاود الخدمة فأثنى عليه الملك حين شاهده وحين ثنى عنانه وفارقه. قال: فأمر بجمع العلماء والحكماء ومن تبحر من المنجمين وأمرهم بالبحث فى طالع زال والتنقيب عن سر الفلك فى أمره، وعما يؤول إليه حاله فى مصاهرته تلك. فلبثوا ثلاثة أيام يعملون دقائق النظر وثواقب الفكر فى تطلب علم ما وارته ستور الغيب. ثم جاءوا إلى باب منوجهر وقالوا أيها الملك: إنه ظهر لنا على مقتضى الأحكام

السماوية وأسرار الأجرام العلوية أن يولد بين ابن سام وبنت مهراب ولد كبير القدر، رحيب الصدر، طويل النجاد، طلاع الأنجاد، ويكون غمر الرداء، واسع العطاء، مخصوصًا بشدة القوة، وضخامة الجثة، وطول المدة. تكاد هيبته تمنع العقاب الكاسر أن يطير حواليه، والأسود السود أن تزأر بين يديه. إذا لمعت بوارق سيفه فى اللقاء تدفقت شآبيب الدماء. يشد وسطه فى هذه الممالك لخدمة الأملاك، ويرفع قواعد مجدهم على ذرى الأفلاك، فلما سمع الملك ذلك أمرهم بإخفاء السر، ودعا بزال ليجرب عقله وفهمه بمسايلته عن مسائل غامضة، وإشارات خفية. فأحضر كل موبذ كان بحضرته وعقد مجلسًا عظيمًا، واحضر زالاً فأمرهم أن يباحثوه ويسايلوه.

ـ المسائل التى سئل عنها زال وما ذكر فى جوابها

قال فتصدى موبذ وسألته عن اثنتى عشرة شجرة جذب بأضباعها السموق، ومد من أعضادها البسوق، قد تشعب من كل واحدة ثلاثون غصنًا لا يرى الفرس فيها زيادة ولا نقصًا وسأله آخر عن فرسين: أحدهما أشقر كالنار والآخر أدهم كالقار. لايزالان يتراكضان، يتعاقبان ولا يتسابقان، وسأله آخر عن ثلاثين فارسًا يعرضون على السلطان، إذا عبروا نقص منهم واحد، وإذا رجعوا فلا ناقص ولا زائد. وسأله آخر عن روضة معشبة يرف نباتها فى رونق الغضارة، وتروق العيون بالبهجة والنضارة، ثم ينحى عليها ذو منجل ينزل بساحتها مكروه الخطب، ويجمع فى حصدها بين اليابس والرطب. وسأله آخر وقال: شجرتان من بواسق الأشجار، ثابتتان فى البحر الزخار، على كل واحدة منهما وكر لطائر يصبح على إحداهما ويمسى على الأخرى، إذا طار من هذه تساقطت أوراقها، وإذا وقع على الأخرى راق العيون إيراقها، فتكون الأولى ناضرة على الدوام، والثانية ذابلة مدى الأيام، وسأله آخر عن بلدة طيبة حصينة فى ذروة جبل، تركها الناس وعمدوا إلى أرض تنبت القتاد، فأرسوا بها الأوتاد، وبنوا بها الدور، وشيدوا فيها القصور، وتناسوا تلك البلدة الطيبة، فبيناهم كذلك إذ خسفت بهم أرضهم، وقامت عليهم القيامة، وحالفتهم الحسرة والندامة فقيل

لزال: إن أبرزت هذه الكنوز وأوضحت هذه الرموز كنت العالم الخبير، وأثرت من التراب العبير، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وأعاد تلك المسائل، ثم قال: أما الشجرات الاثنتا عشرة فهى عدة الشهور مع الأيام على تعاقب الأزمنة والأعوام، وأما الفرسان فهما الملوان يتعاقبان ولا يتسابقان، وأما أعداد الفرسان وما يظهر فيها من النقصان، فذلك إشارة إلى نقصان الشهر وأنه تارة يكون تسعًا وعشرين، وتارة ثلاثين، وأما الشجرتان اللتان عليهما معشش الطائر فإن العالم من وقت حلول الشمس فى برج الحمل إلى أن تبلغ إلى الميزان يتبرج كالخريدة المعطار، فى أحلى الرياحين وحلل الأزهار، ومن حين حلولها العقرب إلى أن تحل الحوت يقبع بين أسحاق الحداد وأطمار السواد، فالشجرتان كنايتان عن عضدى الفلك الدوار، والطائر عبارة عن الشمس الباهرة الأنوار، وأما البلدة الطيبة فهى دار القرار، ومنزل الأبرار والأرض التى آثروها عليها فهى الدنيا قرارة الأكدار ومعرس الأخطار، تناهبك مدارج الأنفاس، وتضرب فى انصرام عمرك الأخماس فى الأسداس، بينا أنت إلى نعيمها راكن، وفى ظلالها وادع ساكن، إذ تزلزلت من تحتك، وأمطرت مكاره من فوقك، فسمعت الأفلاك تنشدك فى ذاك:

لا أنـت أنـت ولا الـديـار ديـار ... خف الهـوى وتولت الأوطار

إن هذا الإنسان، وإن طاول الكيوان، فليس يصحبه منها غير ستره تحت حفرة، فإن اكتسب فيها الذكر الجميل، أحرز هنالك الأجر الجزيل، وإن زرع العدل والإحسان، حصد الروح والريحان. ثم إن صاحب المنجل كناية عن الأجل يحصدنا كحصد النبات، فيأتى على البنين والبنات، سواء فى مكروهه الشيب والشبان، والفروع والأغصان.

قال: فلما رأى منوجهر استخراجه لتلك الرموز الخفية والأسرار المبهمة تهلل مستبشرًا وارتاح مبتهجًا، وجلس فى مجلس عظيم قد فرش بالديباج والحرير، وطيب بالمسك والعبير، ودعا بدستان وسائر القواد، وتعاطوا كئوس الرحيق، فلما توردت وجناتهم وتمشت فى مفاصلهم نشواتهم قاموا متمايلين إلى

مضاربهم، ولما أصبح زال عاود الخدمة واستأذن الملك فى عوده إلى أبيه، وذكر أنه قد برحت به إليه الأشواق، واستنفد صبره الفراق، فقال له الملك تلبث عندنا هذا اليوم، فمازحه وقال إن الذى يزعجك حب ابنة مهراب، والنار تأبى إلا الالتهاب، فأمر العسكر فلبسوا السلاح وجردوا الصفاح واعتقلوا الرماح وبرزوا إلى الميدان، يتلاعبون بالسيف والسنان، ويتساجلون فى الضراب والطعان، قد نصبوا الأغراض وتعاطوا التوتير والإنباض، فمسح زال معاطف قوسه وأطلق نشابة نحو شجرة عظيمة كانت بين يديه فمرقت منها، ثم أتبعها بأخرى راكضًا فرسه فنفذت فيها كمثل الأولى. ثم اصطف العسكر من الجانبين وزحف بعضهم إلى بعض يواترون بين طعن وضرب وكان زال مطلاً عليهم ينظر إليهم، فرأى فيهم فارسًا يغلب الأقران، ولا يتهيب السيف والسنان، فصمد صمده، وقصد قصده، وأنشب فى معاقد منطقته مخالبه وقطره عفيرًا فرفع الناس صياحهم وقالوا: ما من فارس مقدام تعرض هذا الغضنفر إلا وأمه ثاكلة، وهيهات أن تلد الضراغم مثله أو يلاقى الملاحم والوقائع شكله، فليهن سامًا أن يخلفه هذا البطل الجسور والليث الهصور، وأثنى عليه منوجهر فى جميع الأمراء والقواد، ورجع إلى الإيوان فخلع عليه خلعة تليق بمثله مضافة إلى التاج والتخت والسوار والطوق إلى غير ذلك من الثياب الرفيعة، والخيول العتيقة، والغلمان الرشيقة، وأمر بأن يكتب جواب كتاب سام، ويعلم فيه أنه قر عين الملك بطلعة زال ولقائه وانشرح صدره بمحاسن آدابه، وأنه تقدم بإنجاح جميع مطالبه وقضاء مآربه. فخرج زال بالطائر الميمون، والطالع المسعود وقدم فارسًا إلى حضرة أبيه ليعلمه بإقباله منصرفًا من حضرة الملك منوجهر، ويبشره بما قابله من الإنعام والإعظام، وأفاض عليه من المنن الجسام. فلما بلغ الخبر بذلك إلى سام دبت فى معاطفه دواعى الطرب حتى كأنما عاد شبابه النضير بعد أن جلله القتير، فأرسل فارسًا إلى مهراب ليعلمه بالحال ويبشره بما أنعم به الملك منوجهر، ويعلمه بأنه منتظر قدوم ولده، وأنه إذا وصل بادرنا إلى فنائك، واستسعدنا بلقائك، فلما بلغ الخبر بذلك إلى مخراب كاد يخلع روحه على البشير ويطير من

الفرح والسرور، ودعا بزوجته سين دخت وشكر سعيها وقال: إنك قد أعلقت يدك بشجرة من شجرات المجد، واتصلت بجرثومة من جراثيم الملك، فتأهبى للأضياف الكرام، وأعدى أسباب الإكرام والإعظام، وسلم إليها مفاتيح الخزائن، وأطلق يدها فى تلك الدفائن، فقامت ودخلت على بنتها روذابه، وبشرتها بعلو جدها وسعادة طالعها، فدعت لها بطول البقاء، ودوام المجد والسناء وقالت: سأجعل تراب قدمك على مفرق رأسى إكليلاً، وأتخذ من رأيك إلى جميع السعادات هاديًا ودليلاً، قال: فأقبلت سين دخت تزين الدور، وتنجد القصور فزينت مجلسًا مذهبًا وفرشت فيه بساطًا منسوجًا من الذهب موشحًا باللؤلؤ والزبرجد، ونصبت تختًا من العقيان مخروط القوائم من حجر البهرمان، ثم حلت الخريدة العذراء، وجلتها على ذلك التخت كأنها الشمس فى كبد السماء، موشحة بقلائد الجوزاء، وسدلت دونها الحجب وأرخت السجف، ثم أمرت فزينوا جميع البلد بموشيات المطارف ومستحسنات الرفارف، وجللوا ظهور الفيلة بالحرير والديباج، ووضعوا على كواهلها أسرة العاج لتركبها القيان المحسنات والجوارى واشرأبوا لاستقبال الملكين، وطلوع النيرين، مترصدين للانتظار، طامحين نحو الطريق بالأبصار.

- رجوع زال إلى أبيه ونهوضهما إلى كابل للعرس

انصرف زال من حضرة الملك منوجهر يسوق مستعجلاً كالطير فى الهواء، والسفينة على وجه الماء، فلم يشعر به أحد حتى طلع على أبيه، فلما رآه وثب إليه فعانقه، ثم أهوى زال يقبل الأرض، وعاد سام إلى تخته فتسنمه، وطفق ابنه يحكى لديه ما أنعم به الملك عليه، وأسدى من عوارفه إليه، وحكى له أبوه قدوم سين دخت عليه فى طلب المصالحة والمسالمة، ومسارعته إلى تحقيق مطالبها، ومبادرته إلى محالفتها ومصافقتها، ومواعدته العزم على النهوض إلى كابل لاجتماع القمرين، واقتران السعدين، فلما سمع دستان ذلك توردت بشرته، وتهللت أسرته من فرط الفرح والسرور. فبينا هم فى ذلك إذ وصل رسول من كابل يذكر أن مهراب ينتظر قدوم سام ودستان، ويترقب تجشمهما النهوض إليه.

فأمر سام بالرحيل وقدم راكبًا إلى مهراب يعلمه بوصول دستان من حضرة الملك وأنهما آخذان فى الركوب إليه والقدوم عليه، فخرج مهراب لاستقبالهما وأمر بشد الكوسات والطبول على مناكب الفيول، وركوب العساكر فى موشعات الملابس، ونشر عذبات الرايات والأعلام، وخروج القيان والمغانى بالمزاهر والمعازف. قال: فلما طلعت رايات سام ترجل مهراب إعظامًا لقدره وإجلالاً لمحله فعانقه سام وجعل يسأله ملاطفًا ويساره مفاكهًا، ومهراب يقابله بالثناء والدعاء. فركب يسايره، ودستان يسير قدامه كالهلال ليلة العيد يشار إليه بالأصابع، ويرمى نحوه بالنواظر، حتى انتهوا إلى كابل فرأوا الأرض تطن بخفق الطبول ونقرات السرور. واستقبلهم أهل البلد راكبين قد ضمخوا أعراف الخيول بالمسك الأذفر، وخلقوا سبائبها بالزعفران والعنبر، وخرجت سين دخت ومعها ثلاثمائة وصيفة كالدرارى الشهب، على يد كل واحدة جام من الذهب نضدت عليه قطع الياقوت وحبات الآلئ فلما رأت سامًا وولده أمرتهن فنثرن تلك الجواهر تحت سنابك الخيل، وكثر نثر الدراهم والدنانير يمنة ويسرة حتى خيل للرائين أن السماء تمطر على تلك المواكب زهر الكواكب. وقال سام خلال ذلك لسين دخت: ألم يأن أن تقر ألحاظنا بالخريدة العربية، وتكتحل أحداقنا بالعقيلة الكابلية؟ فأجابته ضاحكة وقالت: إن أحببت أن ترى الشمس المنيرة فأين التحفة والهدية؟ فلاطفها سام وقال: كل ما أملكه من صامت وناطق نثار لقدمك وفداء لخدمك، فنزلوا ورفعت دونهم الأستار والكلل حتى دخلوا الإيوان المذهب والمجلس المنجد، فرأى سام روذابه فوق تلك المنصة متجلية كالشمس البازغة. فبهت لرونق جمالها وقضى العجب من حسنها وكمالها، وأمر مهراب فتقدم وعقدوا العقد على عادتهم المألوفة وسنتهم المعهودة، ثم أخذوا بيد زال وأقعدوه لجنب صاحبته، ونثروا على سريرهما المنجد أطباق الياقوت والزبرجد، وكانت تلك الليلة من الليالى الزهر، ومن حسنات الدهر، وكأنها التى عناها مترجم الكتاب بقوله:

فياليلة فيها السماء تبرجت ... سروراً كخود فرعها فاحم جثل

وقد جلت الإكليل جبهتها لنا ... بكف خضيب والهلال لها حجل

وقد أشعلت زهر النجوم أمامها مشاعل منها أشرق الحزن والسهل

زفاف به السعدان في فلك العلى قد اجتمعا لا فض بينهما الشمل

قال: فجاءوا بنسخة تفصيل الجهاز للعرض، فأفصحت بذكر نفائس لم تر مثلها عين ولا سمعت بها أذن، وأقاموا بكابل ثلاثة أسابيع لا يفيقون من نشوات الأفراح، ولا يقصرون عن معاطاة الأكواب والأقداح، ثم عزم سام على الارتحال خارجًا نحو سجستان، فتوجه إليها وأمر زال بإعداد العماريات وتهيئة المهود والهوادج واتبعه مستصحبًا صاحبته ومهراب وزوجته، وارتحلوا من سجستان جميعًا قاصدين قصد نيمروز فقدموها. وأقام سام بضيافتهم ثلاثة أيام، ثم استأذن مهراب ورحل راجعًا إلى كابل خطة ملكه ومقر عزه، وأقامت سين دخت عند ابنتها، وأما سام فإنه جعل تلك الممالك برسم ابنه دستان، وأقعده على سرير ملكه، وأقامه مقام نفسه، وترحل عنها نحو كركساران ونواحي مازندران ليتخذها داراً ويتبوأها قراراً.

- ذكر ولادة رستم بن دستان

لم يمض قليل حتى حملت روذابه وتناوش شخصها النحول، ومس ورد وجنتيها الذبول، وكانت أمها سين دخت تسايلها عما تقاسيه من الحبل ووصبه، وتعانيه من الوحم ونصبه، فكانت تخبرها بما تجده من الآلام ويزعجها من الأوجاع، وكانت لا تنام بالليل ولا تهدأ بالنهار،كأن جلدها حشي بالجندل والحديد أو بالصرفان الشديد. فلما انتهت مدة حملها، ودنت ساعة وضعها غشي عليها فشهقت سين دخت وخمشت خدها ونتفت شعرها، ودب في وصائفها الأنين والنحيب، وشملهن البكاء والعويل، وأعلم بالحال زال فجاء بقلب محترق ودمع مندفق، فبينا هم كذلك متلددين بين اليأس والأمل، مترددين بين الرجاء والوجل إذ ذكر زال ريشة العنقاء التي أعطتها إياه على ما سبق ذكره، فبشر بذلك سين دخت، ودعا بمجمر فأحرق بعضها فإذا بالسماء كأنها قد تغيمت، وبالآفاق كأنها أظلمت، وبالعنقاء قد أقبلت بالطائر الميمون، كسحابة

شآبيبها قصب المرجان، أو روضة شقائقها من العقيان. ولما دنت خر زال ساجدًا يقبل الأرض ويذرى الدمع، فنادته العنقاء وبشرته بسلامة صاحبته، وأنكرت عليه الجزع، وقالت: حاش لعيون الأسود أن تنضح برشاش المدامع، ومعاذًا لمناكب الأطواد أن تتزلزل بالرياح الزعازع، إنه سيصحر من أجمة هذه اللبؤة شبل أغلب، تقبل الأسود مواطئ قدميه، ولا يجترئ السحاب المكفهر أن يمر عليه، تتشقق جلود النمور دون غرار هيبته، وتستل بأنيابها مخالبها مخافة سطوته. ثم قالت: تأخذ بإذن الله تعالى حديدة حادة وتدفعها إلى آس حاذق أحذ يد القميص، ويعل الحاملة بأرطال من سلاف العقار حتى يملك السكر عنان حواسها، ثم يشق الحكيم بتلك الحديدة خاصرتها ويستخرج منها الولد، ثم يخيط الشق ويرتق الفتق، ثم يؤخذ حشيشة كذا وكذا، وتدق بلبن ومسك، وتجفف فى الظل وتسحق ثم تذر على موضع الشق، وتمر عليه ريشة من جناحى الميمون، فهنالك يسهل جميع الحزون، ولا تستهولن ذلك، وأطلق لسانك بشكر الله تعالى حيث آتاك شجرة ناضرة تثمر لك كل يوم ثمرة يانعة، ثم نزعت ريشة من جناحها ورمت بها إليه وطارت فى السماء، وحلقت نحو تلك القلة الشماء، فبادر زال إلى تلك الريشة وأخذها، وأعد جميع ما أشارت به العنقاء من الأدوية، والخلق مجتمعون يقضون العجب من تلك الحالة، ثم جاءوا بموبذ خفيف اليد أحذق أهل زمانه فى صناعته، فسقى روذابه من المدام الصرف أقداحًا حتى سكرت وخرت صعقة لم تحس بشىء فاستل تلك الحديدة وشق خاصرتها ثم استخرج منها بخفة وسرعة يدا ولدًا لم ير مثله قط قد صوره الله تعالى على خلقة تعجب العيون وتروق القلوب، وبقيت أمه على حالها مغشيًا عليها يومًا وليلة، ثم أفاقت بعد ذلك فنثروا عليها الذهب والجواهر ودعوا الله تعالى وحمدوه على ما أسدى إليهم، ثم قدموا الطفل إليها كأنه ابن عشر سنين، فلما رأته تبسمت ضاحكة وقالت: «برستم»، أى قد خلصت، فسمى الصبى «رستم»، قال: فخاطوا على قد ذلك الطفل العزيز تمثالاً من الحرير وحشوه بوبر السمور، وصوروا وجهه كصورة الشمس، وركبوا عليه أعضادًا كأنها الثعابين،

وجعلوا له أظافير كبراثن الأسود وشغلوا إحدى يديه بالجرز مرفوعًا إلى كاهله، والأخرى بعنان فرس أركبوه محفوفًا بخدم مكتوفًا بخول وحشم، وأثاروا هجينًا ونفذوا التمثال إلى سام. قال: وبلغ الخبر إلى مهراب فاستهز الطرب أعطافه، وكساه السرور أفوافه، واتخذ الناس من أول أراضى كابل إلى آخر حدود زابل تلك الأيام أعيادًا، مواسم سرور وفرح وحبور، يواصلون بين الصبوح والغبوق، ويفيضون سيول الرحيق فى أودية العروق، لا يفيقون من قصف، ولا ينفكون من عسف وعزف.

ولما جاء المبشر بذلك التمثال إلى سام ووقع بصره عليه قامت شعرات بدنه حين رآه على صورته وشكله، وأمر بإفاضة الدراهم ونثرها على المبشر حتى كاد ينغمر فيها شخصه، ثم أمره بضرب البشائر وركوب العساكر للتطارد فى الميدان، والتلاعب بالسيف والسنان، وأمر الكاتب أن يجيب عن كتاب زال مفتتحًا كتابه بحمد الله عز وجل قائلاً فيه لزال: إنى كثيرًا ما ابتهلت إلى الله تعالى وتضرعت إليه أسأله أن يقر بشبل يصحر عن غيلك، على صورتى التى جبلتى عليها، فالحمد لله على قضاء الحاجة وإنجاح الطلبة، ولا أسأله سبحانه إلا أن يطيل بقاءه، ويسهل إلى معارج العلو ارتقاءه، قال: وكانت له عشر مرضعات يمتص نخب ألبانهن حتى ترعرع، ولما بلغ ثمانى سنين صار كالنخل الباسق، والكوكب الدرى فى الظلام الغاسق، يحكى فى بهاء المنظر ورشاقة القد وأبهة الجلالة جده ساماً، وكان لا يحمله مركوب غير الفيل لضخامة جثته وعبالة أكتافه. وجاء الخبر إلى سام بأنه قد ترعرع وراهق، فاشتاق إلى لقائه وأقبل نحو زابلستان، فلما أحس بمقدمه زال ركب مع مهراب، وأمر بركوب العساكر للاستقبال، وشدت الكوسات على كواهل الأفيال، وقدموا فيلاً عظيمًا وشدوا على ظهره تختًا من الذهب، وجلس رستم مشرفًا على الناس معصوب الرأس بالتاج مشدود الوسط بالمنطقة، فى يده قوس ونشاب، فلما طلعت رايات سام من بعيد اصطفت العساكر سماطين، فترجل زال ومهراب والأمراء والقواد ووضعوا جباههم على الأرض برسم الخدمة ثم أطلقوا ألسنة الإخلاص بالثناء والدعاء

وتهلل وجه سام حين وقع نظره على رستم، وأمر فقرب منه الفيل الذى هو راكب فرآه على تلك الهيئة فأثنى على الله تعالى، ودعا له بالبقاء ففتح رستم لسانه بالثناء عليه وقال: إنما أنا فرع أنتمى إلى جرثومة جلالك وأتقيل شمائلك فى جميع أحوالك، ولعل الله تعالى حين صورنى على صورتك يمد أعضادى بمثل قوتك، ثم نزل عن ظهر الفيل، وأكب عليه سام يقبل رأسه وعينه، ويعوذه بالله عز وجل، ثم توجهوا جميعًا نحو كورابذ يتفاكهون فى الطريق بصدور منشرحة وقلوب مرتاحة وأقاموا بها شهرًا كاملاً لا شغل لهم غير اللهو والطرب، ولا نديم لهم سوى ابن الغمام وابنة العنب. وكان سام لا يقبض عنان طرفه عن رستم وشمائله، ويقول لزال: لو سايلت مائة من القرون لم تسمع بولد استخرج عن خاصرة أمه كما استخرج هذا، وطفق يشكر العنقاء ويحمد الله عز وجل إذا ألهمها صنيعها ذلك، فاندفعوا فى شرب المدام إلى أن أفرغت الكئوس، وشرقت بالخندريس النفوس، وطفق مهراب فى غمار سكره يقول: لا أبالى بعد يومى هذا بزال، ولا أفكر فى سام، ولا يهمنى هم الملك المتوج، إذا برزت مع رستم إلى الميدان وتطاردنا مع الفرسان اضطرب لمهابتنا الخافقان، وسأحيى دولة الضحاك، وأضرب خيم العز على الأفلاك. ثم عزم سام على الرحيل فارتحل وخرج فى ركابه رستم وأبوه برسم الوداع مرحلتين، فأقبل سام على زال وأوصاه بالعدل والإحسان، وطاعة السلطان، ومتابعة الرأى والعقل، ومخالفة النفس الأمارة بالسوء، وسلوك سبيل الحق، والتنكب عن طريق الشر. ثم قال له: إياك والإخلال بشىء من هذه الوصية واعلم أن نفسى تحدثنى بأن مقامى ليس يطول فى دار الدنيا، وكأنى قد شارفت الارتحال. ثم ودع ولديه وركب، فشيعاه مرحلتين أخريين ورجعا، وانطلق سام متوجهًا نحو مستقره.

■ ■ ■

أسطورة الضحاك[1]

ذكر آخر أمر جم

لما تم أمر جم وجمت عنده أموال الدنيا، وعظم شأنه وعلا ملكه وسلطانه، وامتد زمانه وطال عليه الأمد، قسا قلبه وأشر وبطر وتكبر وتجبر وطغى وبغى، وقال أنا ربكم الأعلى، وأنف من العبودية فترقى إلى ادعاء الربوبية فلم يلبث أن خبا قبسه وكبا فرسه وسقطت قوته واضمحلت هيبته وزال عنه شعاع السعادة الإلهية، وحدثت فى ملكه الأحداث ولحقه الالتياث وخرجت عليه صنوف الخوارج وعضته أنياب النوائب، وقصده الضحاك الحميرى المسمى بالفارسية بيوراسف من أرض اليمن فى جيوش كثيفة وشوكة شديدة فانقض عليه انقضاض العقاب على الأرنب فهرب منه جم متنكرًا، واستولى الضحاك على مُلكه ومِلكه وحرمه ونعمه وخيله ورَجله ودقه وجله، ولم يزل يتتبع أثره وينصب الأرصاد له حتى ظفر به فى بعض السواحل فى أقبح صورة وأسوأ حالة، فصاده كما يصيد الهر الفأر ونشره بالمنشار، ويقال إنه ألقاه إلى السباع حتى مزقته بأنيابها ومخالبها، ثم رجع إلى مركز عزه وسرير ملكه وكانت مدة ملك جم خمس مائة وعشرين سنة ويقال أقل وأكثر والله تعالى أعلم بالصواب.

- ملك بيوراسف

العجم تسميه بيوراسف، والعرب تسميه الضحاك، ويقال عن ازدهاق وهو الثعبان واليمن تدعيه، وقد افتخر بكونه منهم أبونواس فى قصيدته التى منها:

وكان منا الضحاك يعبده ... الخابل والجن فى مساربها

وعنى بالخابل الشيطان، والعرب تزعم أنه الضحاك بن علوان، والعجم تقول

---

(١) كتاب: «غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم» لأبى منصور الثعالبى.

إنه بيوراسف بن اندرماسف من ولد سيامك بن كيومرث، وإنما سمى بيوراسف لأن بيور باللغة الفهلوية ما جاوز مائة ألف من العدد، وكان له أكثر من مائة ألف فرس بسروجها ولجمها وما يليق بها من صنوف الأموال، فقولهم بيوراسف أى صاحب مائة ألف فرس. وكان أبوه ملك اليمن فسول الشيطان للضحاك قتل أبيه، وقال له إن قتلته فأنا الكفيل لك بأن تقتل جمشيد الملك وتستولى على ملك الأقاليم، فاحتال لاغتيال أبيه حتى ملك ما كان ملكه وتقوى بذلك على أخذ الأهبة لمغالبة جم على ملكه، وطفق يحدث نفسه بها ويبنى أمره عليها، وتراءى له إبليس يومًا فى صورة آدمى، وقال أنا رجل طباخ حاذق بصنعة الأطعمة الملوكية التى تصلح لك، فإن رأيت أن تستخدمنى فيها فعلت، فأمره بصنع نموذج منها ليذوقه، فتأنق إبليس فى طبخ لون شهى لذيذ وقدمه إليه فاستطابه جدًا وولاه مطبخه. وكان الناس فى ذلك الزمان قلما يطعمون اللحوم، فأراد إبليس أن يغريه بأكلها كلها ليكون أقسى قلبًا وأجرأ على سفك الدماء وأطوع له فيما يشير به عليه، فمازال يدرجه من لحوم الطير إلى لحوم الحملان ومنها إلى لحوم الضأن ومنها إلى لحوم الثيران، ويصنع له أطايب الألوان وهو يستطيبها ويلتذ بها ويعجب بها ويمعن فيها حتى تعود أكل اللحوم ولم يصبر عنها، وكان نهمًا شرهًا والمعدة شيطان رجيم، فأحمد إبليس على إجادة الصنعة وارتضى حسن أثره فى الخدمة، وقال له: سل حاجتك، فقال: حاجتى أن تشرفنى بالإذن لى فى تقبيل منكبيك، ونفخ فيهما من خبثه وسحره فخرجت بهما حيتان سوداوان كلما قطعتا عادتا كما كانتا، ويقال بل كانتا سلعتين على صور الحيات فكانتا تضربان وتضطربان عليه وتؤلمانه جدًا وهو يصيح ويتضور ويتململ ويتأوه ولا يجد نومًا ولا قرارًا، وكان إبليس لما فعل فعلته به هام على وجهه ثم دخل عليه فى صورة أخرى وقال أنا طبيب عارف بدائك ودوائك ولا يقدر أحد على معالجتك غيرى، فقال له: إن عالجتنى وسكنت ما بى فأنت أعظم الناس لدى وعندى، ولن تعدم حسن جزائى وجزالة عطائى فقال: إن هاتين الحيتين لا تفارقانك ما عشت ولكنهما تسكنان بأن تطعما من أدمغة الآدميين فيسكن وجعك ويستريح بدنك،

فأمر بقتل رجلين شابين واستخراج أدمغتهما وإطعامهما الحيتين فسكنتا وسكن الوجع، واستراح الضحاك ونام نومًا غرقًا فلم ينتبه من الغد إلا باضطراب الحيتين واستعادتهما العادة بالطعمة فأمر بأن يقتل رجلان آخران ويفعل بأدمغتهما ما فعل بأدمغة المقتولين فسكنت الحيتان ثم أمر بأن يفعل ذلك فى كل يوم، وهول بالحيتين على الناس. وذكر الطبرى فى التاريخ أن أكثر أهل الكتب يقولون إن الذى ظهر بمنكبيه كان لحمتين طويلتين كل واحدة منهما كرأس الثعبان وكانتا تضطربان عليه وتوجعانه ولا تسكنان ما لم تطليا بأدمغة الآدميين الطرية، وكان يسترهما بالثياب، ويرى الناس على طريق التهويل أنهما حيتان، قال: وجميع أهل الأخبار يزعمون أنه ملك الأقاليم وكان ساحرًا ماهرًا فاجرًا، وحدث عن ابنى الكلبى أن الضحاك أول من سن القطع والصلب وأول من سن العشور وضرب الدراهم والدنانير وأول من غنى وغنى له، وعن غيره أن إبليس كان صادقه وزين له الكفر والسحر والفسق وعبادة الأصنام وسفك الدماء بغير حقها وغصب الناس على دمائهم وأبنائهم فكان الضحاك يصدر عن رأيه وينخرط فى سلكه ويحذو على مثاله، والعادة مستمرة بقتل رجلين شابين فى كل يوم وإطعام أدمغتهما الحيتين اللتين كانتا بمنكبيه والناس من ذلك ومن سائر الرسوم الفظيعة الشنيعة فى كل بلية وخوف وأذية، وحين تجهز وبرز على أرض جم حتى استولى على ملكه وظفر به وقتله كما تقدم ذكره امتطى سرير الملك وأقام دولة السحر والخبث وأطلق أيدى الأشرار وعم الأرض بالفساد؛ إذ كان شخص الشر وصورة الجور وينبوع الكفر وقد كان الناس قبل فى كل خير وخصب ومن عدل من تقدمه من الملوك الأربعة فى كل أمن ورفق فانتقلوا بملكه من جنة إلى جحيم ومن نعيم إلى عذاب أليم، وكان لا يرى العمارة والإصلاح ويحب التخريب والإفساد. وذكر الطبرى أنه كان رفع إليه شىء من كلام آدم فاتخذه سحرا يعمل به، وكان إذا أراد أن يجلب إليه شيئًا من ممالكه أو أعجبته امرأة أو غلام أو دابة نفخ فى قصبة له من ذهب فكان يجيبه بنفخة ذلك كل من يريده فمن هناك ينفخ اليهود فى الشبورات.

- ذكر تبديل الطباخين أحد الدماغين

يحكى أنه كان للضحاك طباخان يسميان أرماييل وكرماييل، وكانا يتوليان أمر مطبخه بعد إبليس فرقًا للشابين المذبوحين من أجل الأدمغة وتواطئا يومًا على أن يعتقا أحد الرجلين المدفوعين إليهما للذبح واستخراج الأدمغة ويجعلا بدل دماغه دماغ شاة ويمزجا بعضهما ببعض فإن تمشى ذلك وتجوز استمرا عيه كل يوم، ففعلا ما أزمعاه وأطعما الحيتين الدماغين الممزوجين فسكنتا كالعادة ثم مازال الطباخان يستحييان كل يوم أحد الرجلين ويغذيانه بشاة ويعتقانه لوجه الله عز ذكره ويخفيانه فإذا اجتمع عشرة من الطلقاء دفعًا إليهم أعنزاً وأمراهم أن يتجنبوا البنيان والعمران ويتوغلوا فى المفاوز ويتوقلوا فى الجبال ويتعيشوا بتلك الأعنز، فكانوا يمتثلون أوامرهما حتى اجتمع منهم خلق كثير وتفرقوا فى أقاصى البلدان وسكنوا الصحارى والشعاب، وتناسلوا وتلاقحت وتلاحقت مواشيهم فهم أصول جميع الأكراد فى نواحى البلاد، وكان ذلك الفعل من الطباخين رشًا لماء الخير على نار الشر وتخفيفًا لثقل الخطب.

- وبعض الشر أهون من بعض

وذكر الطبرى عن بعض شيوخه أن الضحاك لم يسمع تظلم ظلامه ولم ينصف متظلمًا قط إلا مرة واحدة كانت غلطة لصواب، وهى أنه لما اشتدت بليته وتفاقم جوره صار إلى بابه قوم من المتظلمين وفيهم رجل يقال له كابى الأصفهانى، فلما أذن لهم ووصلوا إليه قال له الأصفهانى: أيها الملك بأى السلام أسلم عليك؟ أسلام من يملك الأقاليم كلها أم سلام من يملك هذا الإقليم الواحد، يعنى بابل، فقال الضحاك: بل سلام من يملك الأقاليم لأنى ملك الأرض، فقال الأصفهانى: فإذا كنت تملك الأقاليم كلها فما بالنا خصصنا بجورك وعسفك من بين أهل الأقاليم، وكيف لا تقسم المناكير بيننا وبينهم بالسوية، وعدد عليه أشياء كثيرة من رسومه الشنيعة فأثر قوله فى قلبه وأمر بالتخفيف والسوية بين الرعية ثم لم يلبث إلا مديدة حتى عاد لعادته السيئة فى الظلم واستمر على غلوائه فى العسف.

- ذكر الرؤيا الهائلة التى رآها الضحاك

بينا الضحاك نائم ذات ليلة بين حظيتيه ابنتى جم على سرير الذهب، إذ رأى فى منامه كأن ثلاثة نفر يدخلون عليه فى قصره فيضربه أحدهم بعمود رأسه كرأس الثور ويصرعه على وجهه، ثم يسل سكينه فيقطع به من جلد الضحاك وترًا ويشده من قرنه إلى قدمه ويحمله إلى جبل دنباوند فيحبسه فى بئر هناك، فانتبه الضحاك فزعًا جزعًا، وصاح صيحة منكرة استيقظ لها جميع أهل داره، فقالت له حظيتاه: ياملك الأرض مالك وما دهاك حتى ارتعت كل هذا الارتياع فى قصرك، ومجمع أهلك وخدمك وأنت أنت، فقال: لا تسألانى فإنى إن أخبرتكما بما رأيت فى منامى كنتما أشد روعة ولوعة منى، فألحتا فى الاستخبار عليه وأذرتا دموع التضرع بين يديه، وقالتا: أخبرنا أيها الملك برؤياك فلعل عندنا حيلة لدفع شرها وضرها فقص عليهما ما رآه، فقالتا حسنًا وسكنتا منه وقالتا: لا ترع فأكثر ما يخاف لا يكون، والرأى أن تجمع الكهنة والمنجمين وتستفتيهم فى رؤياك وتسألهم عن عاقبة أمرك وتشاورهم فيما لك وعليك ثم تأخذ حذرك وتتحفظ وتتيقظ بجهدك وتعتمد على سعادة جدك، فأعجبه قولهما وسكن إلى كلامهما. فلما أصبح أمر بجمع القوم الذين ذكرتهم المرأتان وأخبرهم بالقصة واستفتاهم فى الرؤيا، وسألهم عما تؤول إليه حاله ويستقر عليه شأنه فاستمهلوه ثلاثة أيام للنظر والتناظر والتشاور فأمهلهم، ثم دعاهم فى اليوم الرابع واستنطقهم فجعلوا يلجلجون ويجمجمون ويكنون ويعرضون ولا يصرحون، فاستشاط غضبًا وطار شفقًا وأمر بضرب أعناقهم إن لم يبطوا عن القرحة ولم يدلوا على الحقيقة، فقام إليه رجل منهم وقال: أيها الملك إنك قد شارفت طلاع ألف سنة فى ملك الأرض وبلغت ما لم يبلغ أحد قبلك من العلو والارتفاع والبسطة والاستمتاع، ولا خلد لبشر وكل مولود ميت وكل ملك زائل، وقد دلت رؤياك والطالع على ما يرق وجهى عن ذكره، فقال: أخبرنى به ويلك! فأخبره بهلاكه على يد غلام من أهل بيت الملك لم يولد بعد، ومصير ملكه إليه وملئه الأرض عدلاً كما ملأها الضحاك جورًا، فأمر بإخراج لسانه إلى قفاه،

وأظهر ترك المبالاة بقوله وأضمر من كامل البلبال ووسواس الهموم ما كاد يأتى على نفسه، ثم أنه لم يزدد إلا شرًا وتجبرًا وجورًا، وأمر بنصب العيون ووضع الأرصاد على كل مولود من أهل بيت الملك وأخذه من حجر أمه وذبحه كما يذبح الحمل فى وقته. وكانت امرأة رجل اسمه آبثين من ولد طهمورث حبلى تخفى حملها، فلما ولدت غلامًا سماه أبوه أفريدون ونقله فى ضمان الاحتياط مع بقرة له نتجت واسمها كاوبرمايون إلى بعض الرياض العازبة الغامضة، ووكل بهما عجوزًا تراعيهما، فكانت البقرة ترضعه والعجوز تتعهده، فلما جاوز الفطام نقله أبوه إلى جبل شامخ، واحتال فى الاحتياط عليه كل حيلة، ورد البقرة إلى منزله، واشتد بحث الضحاك عن أفريدون وتواترت عليه الروايات فى شأنه فطلب أباه به، فلما لم يسلمه أمر بقتله وذبح البقرة التى أرضعت أفريدون، ورسم تخريب داره، وطلب أفريدون تحت كل حجر ومدر وهو فى حرز حريز، ينمو نماء الهلال وعليه واقية باقية من ربه.

ذكر آخر أمر الضحاك وأول أمر أفريدون

لما اشتد البلاء على الناس من الضحاك، وبلغت قلوبهم الحناجر، وعظمت عليهم المصائب فى أبنائهم المذبوحين من أجل الحيتين؛ جعلوا يتربصون به الدوائر فيدعون الله عليه ويتسلون ويتعللون بما يرجون من الفرج فى خروج أفريدون التى بشرت به الآثار وتظاهرت بملكه الأخبار. وكان رجلا حدادا يقال له كاوه قد فجع بأحد ابنيه لطعمة الحيتين وأخذ ابنه الباقى ليذبح فمزق ثيابه وطرح التراب على رأسه وصاح واستغاث، وجعل الجلدة التى كان يغشى بها ركبتيه عند الضرب فى الحديد المحمى على رأسه خشبة، واستنفر الناس وقال: من أراد هلك هذا الكافر الفاجر وملك أفريدون الفاضل العادل فليتبعنى وليصل جناحى، فتبعه خلق كثير ولبسوا الأسلحة ونصبوا الأعلام ونفروا خفافًا وثقالاً، وتزايدوا وتعاضدوا وانضم إليهم الرؤساء والكبراء فارتفعت الصيحة ووقعت الواقعة فانخزل الضحاك وهم بالركوب فى حاشيته للإيقاع بهم وإطفاء نائرتهم فكع وجبن عن ذلك، وتخاذلت قواه وأمر برد ابن كاوه إليه وكان يسمى قارن

فلحق بأبيه وصار معه، وزحف القوم من فورهم إلى المكان الذى كان فيه أفريدون مختفيًا فأبرزوه، ووقعت أعينهم منه على بدر فى صورة رجل وملك فى صورة ملك فخروا له سجدًا، وأثنوا عليه وضمنوا له بذل المهج بين يديه إلى أن يظفر بالضحاك ويدرك فيه الثأر المنيم ويقعد مكانه فارتاح أفريدون، وقال: ذلك ما كنت أبغى، وحمد اللهو شكره وأخذ للأمر أهبته، ودعا بالقيون وأمرهم بصنعة العمود المعروف بكرزكاوسار الذى وجد ذكره فى الأخبار ومعناه بالفارسية العمود الذى فى رأسه صورة ثور، ثم إنه ركب فى القوم المنضمين إليه، ونصب كاوه رايته بين يديه وساروا فى الأسلحة إلى قصر الضحاك وقتلوا من ببابه من الحرس والأعوان وكبسوه وهجموا عليه، ووصل إليه أفريدون ومعه كاوه وقارن فضربه بالعمود الذى تقدم ذكره، وجعل الله تأويل رؤياه حقًا عليه، وقطع أفريدون من جلده وترًا وشده به وحمله إلى جبل دنباوند وحبسه فى بئر هناك، وفى بعض الروايات أنه قتله وقال له الضحاك: إنما تقتلنى بجدك جم، فقال له أفريدون: إنك إذا لعظيم الشأن ولكنى أقتلك بفقرة كاويرمايون. وممن تمثل أفريدون والضحاك فى شعره أبوتمام حيث قال من قصيدة:

مانال ما قد نال فرعون ولا ... هامان فى الدنيا ولا قارون

بل كان كالضحاك في سطواته ... بالعالمين وأنت أفريدون

وفى أكاذيب المجوس وكبائر محالاتهم أن الضحاك بعد فى الأحياء بجبل دنباوند، وأنه من المنظرين كإبليس إلى يوم الوقت المعلوم.

■ ■ ■

الغراب والجرذ

يحكى أنه كان بأرض سكاوندجين، عند مدينة داهر، مكان كثير الصيد، ينتابه الصيادون؛ وكان فى ذلك المكان شجرة كثيرة الأغصان ملتفة الورق فيها وكر غراب فبينما هو ذات يوم ساقط فى وكره إذ بصر بصياد قبيح المنظر، سيئ الخلق، على عاتقه شبكة، وفى يده عصا مقبلاً نحو الشجرة، فذعر منه الغراب؛ وقال: لقد ساق هذا الرجل إلى هذا المكان.. إما حينى وإما حين غيرى، فلأثبتن مكانى حتى أنظر ماذا يصنع.

ثم إن الصياد نصب شبكته ونثر عليها الحب، وكمن قريبًا منها، فلم يلبث إلا قليلاً، حتى مرت به حمامة يقال لها المطوقة، وكانت سيدة الحمام ومعها حمام كثير؛ فعميت هى وصواحبها عن الشرك، فوقعن على الحب يلتقطنه فعلقن فى الشبكة كلهن؛ وأقبل الصياد فرحًا مسرورًا فجعلت كل حمامة تضطرب فى حبائلها وتلتمس الخلاص لنفسها، قالت المطوقة:

- لا تخاذلنا فى المعالجة ولا تكن نفس إحداكن أهم إليها من نفس صاحبتها؛ ولكن نتعاون جميعًا فنقلع الشبكة فينجو بعضنا ببعض.

فقلعن الشبكة جميعهن بتعاونهن، وعلون فى الجو؛ ولم يقطع الصياد رجاءه منهن وظن أنهن لا يجاوزن إلا قريبًا ويقعن فقال الغراب:

- لأتبعهن وأنظر ما يكون منهن.

فالتفتت المطوقة فرأت الصياد يتبعهن، فقالت للحمام:

- هذا الصياد مجد فى طلبكن، فإن نحن أخذنا فى الفضاء لم يخف عليه أمرنا ولم يزل يتبعنا وإن نحن توجهنا إلى العمران خفى عليه أمرنا، وانصرف وبمكان كذا جرذ هو لى أخ؛ فلو انتهينا إليه قطع عنا هذا الشرك.

فـفـعلن ذلك، وأيس الصـيـاد، منهن وانصـرف، وتبـعـهن الغـراب، فلمـا انتـهت الحمامة المطوقة إلى الجرذ، أمرت الحمام أن يسقطن، فوقعن؛ وكان للجرذ مائة حجر للمخاوف فنادته المطوقة باسمه، وكان اسمه زيرك، فأجابها الجرذ من حجره:

– من أنت؟

قالت:

– أنا خليلتك المطوقة.

فأقبل إليها الجرذ يسعى، فقال لها:

– ما أوقعك فى هذه الورطة؟

قالت له:

- ألم تعلم أنه ليس من الخير والشر شىء إلا هو مقدر على من تصيبه المقادير، وهى التى أوقعتنى فى هذه الورطة؛ فقد لا يمتنع من القدر من هو أقوى منى وأعظم أمرًا؛ وقد تتكسف الشمس والقمر إذا قضى ذلك عليهما.

ثم إن الجرذ أخذ فى قرض العقد الذى فيه المطوقة، فقالت له المطوقة:

– ابدأ بقطع عقد سائر الحمام، وبعد ذلك أقبل على عقدى.

وأعادت ذلك عليه مرارًا، وهو لا يلتفت إلى قولها، فلما أكثرت عليه القول وكررت، قال لها:

– لقد كررت القول على كأنك ليس لك فى نفسك حاجة، ولا لك عليها شفقة، ولا ترعين لها حقًا.

قالت:

- إنى أخاف، إن أنت بدأت بقطع عقدى أن تمل وتكسل عن قطع ما بقى؛ وعرفت أنك إن بدأت بهن قبلى، وكنت أنا الأخيرة لم ترض وإن أدركك الفتور أن أبقى فى الشرك.

أبقى فى الشرك.

قال الجرذ:

- هذا مما يزيد الرغبة والمودة فيك.

ثم إن الجرذ أخذ فى قرض الشبكة حتى فرغ منها، فانطلقت المطوقة وحمامها معها.

فلما رأى الغراب صنع الجرذ، رغب فى مصادقته، فجاء وناداه باسمه، فأخرج الجرذ رأسه، فقال له:

- ما حاجتك؟

قال:

- إنى أريد مصادقتك.

قال الجرذ:

- ليس بينى وبينك تواصل، وإنما العاقل ينبغى له أن يلتمس ما يجد إليه سبيلاً، ويترك التماس ما ليس إليه سبيل، فإنما أنت الآكل، وأنا طعام لك.

قال الغراب:

- إن أكلى إياك، وإن كنت لى طعامًا، مما لا يغنى عنى شيئًا؛ وإن مودتك آنس لى مما ذكرت ولست بحقيق، إذا جئت أطلب مودتك، أن تردنى خائبًا، فإنه قد ظهر لى منك من حسن الخلق ما رغبنى فيك، وإن لم تكن تلتمس إظهار ذلك فإن العاقل لايخفى فضله، وإن هو أخفاه؛ كالمسك الذى يكتم ثم لا يمنعه ذلك من النشر الطيب والأرج الفائح.

قال الجرذ:

- إن أشد العداوة عداوة الجوهر وهى عدواتان منها ما هو متكافئ كعداوة الفيل والأسد، فإنه ربما قتل الأسد الفيل أو الفيل الأسد، ومنها ما قوته من

التى بيننا ليست تضرك، وإنما ضررها عائد علىَّ فإن الماء لو أطيل إسخانه لم يمنعه ذلك من إطفائه النار إذا صب عليها، وإنما مصاحب العدو ومصالحه كصاحب الحية يحملها فى كمه، والعاقل لا يستأنس إلى العدو الأريب.

قال الغراب:

- قد فهمت ما تقول، وأنت خليق أن تأخذ بفضل خليقتك، وتعرف صدق مقالتى ولا تصعب علىّ الأمر بقولك: ليس إلى التواصل بيننا سبيل، فإن العقلاء الكرام لا يبتغون على معروف جزاء، والمودة بين الصالحين سريع اتصالها بطئ انقطاعها. ومثل ذلك مثل الكوز من الذهب بطئ الانكسار، سريع الإعادة، هين الإصلاح، إن أصابه ثلم أو كسر، والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها، بطئ اتصالها. ومثل ذلك مثل الكوز من الفخار سريع الانكسار ينكسر من أدنى عيب ولا وصل له أبدًا، والكريم يود الكريم واللئيم لا يود أحدًا إلا عن رغبة أو رهبة، وأنا إلى وداك ومعروفك محتاج لأنك كريم وأنا ملازم لبابك غير ذائق طعامًا حتى تؤاخينى.

قال الجرذ:

- قد قبلت إخاءك.. فإنى لم أردد أحدًا عن حاجة قط، وإنما بدأت بما بدأتك به إرادة التوثق لنفسى فإن أنت غدرت بى لم تقل: إنى وجدت الجرذ سريع الانخداع.

ثم خرج من حجره، فوقف عند الباب، فقال له الغراب:

- ما يمنعك من الخروج إلىّ، والاستئناس بى؟ فهل فى نفسك بعد ذلك منى ريبة؟

قال الجرذ:

- إن أهل الدنيا يتعاطون فيما بينهم أمرين ويتواصلون عليهما وهما ذات النفس، وذات اليد، فالمتباذلون ذات النفس هم الأصفياء، وأما المتباذلون ذات

النفس، وذات اليد، فالمتباذلون ذات النفس هم الأصفياء، وأما المتباذلون ذات اليد فهم المتعاونون الذين يلتمس بعضهم الانتفاع ببعض، ومن كان يصنع المعروف لبعض منافع الدنيا فإنما مثله فيما يبذل ويعطى كمثل الصياد وإلقائه الحب للطير، لا يريد بذلك نفع الطير وإنما يريد نفع نفسه، فتعاطى ذات النفس أفضل من تعاطى ذات اليد وإنى وثقت منك بذات نفسك، ومنحتك من نفسى مثل ذلك، وليس يمنعنى من الخروج إليك سوء ظنّ بك، ولكن قد عرفت أن لك أصحابًا جوهرهم كجوهرك، وليس رأيهم فىَّ رأيك.

■ ■ ■

الذئب والغراب وابن آوى

يحكى أن أسدًا فى أجمة مجاورة لطريق من طرق الناس؛ وكان له أصحاب ثلاثة: ذئب وغـراب وابن آوى؛ وأن رعـاة مـروا بذلك الطريق، ومـعـهم جـمـال، فتخلف منها جمل، فدخل تلك الأجمة حتى انتهى إلى الأسد؛ فقال له الأسد:

ـ من أين أقبلت؟

قال:

ـ من موضع كذا.

قال: فما حاجتك؟

قال:

ـ ما يأمرنى به الملك.

قال:

ـ تقيم عندنا فى السعة والأمن والخصب.

فأقام الأسد والجمل معه زمنًا طويلاً، ثم إن الأسد مضى فى بعض الأيام لطلب الصيد، فلقى فيلاً عظيمًا، فقاتله قتالاً شديدًا؛ وأفلت منه مثقلاً مثخنًا بالجراح، يسيل منه الدم وقد خدشه الفيل بأنيابه، فلما وصل إلى مكانه، وقع لا يستطيع حراكًا، ولا يقدر على طلب الصيد؛ فلبث الذئب والغراب وابن آوى أيامًا لا يجدون طعامًا؛ لأنهم كانوا يأكلون من فضلات الأسد وطعامه؛ فأصابهم جوع شديد وهزال، وعرف الأسد ذلك منهم؛ فقال:

ـ لقد جهدتم واحتجتم إلى ما تأكلون.

فقالوا:

- لا تهمنا أنفسنا، لكنا نرى الملك على ما نراه، فليتنا نجد ما يأكله ويصلحه.

قال الأسد:

- ما أشك فى نصيحتكم، ولكن انتشروا لعلكم تصيبون صيدًا تأتوننى به؛ فيصيبنى ويصيبكم منه رزق.

فخرج الذئب والغراب وابن آوى من عند الأسد؛ فتنحوا ناحية، وتشاوروا فيما بينهم، وقالوا:

- ما لنا ولهذا الآكل العشب الذى ليس شأنه من شأننا، ولا رأيه من رأينا؟ ألا نزين للأسد فيأكله ويطعمنا من لحمه؟

قال ابن آوى:

- هذا مما لا نستطيع ذكره للأسد، لأنه قد أمن الجمل، وجعل له من ذمته عهدًا.

قال الغراب:

- أنا أكفيكم أمر الأسد.

ثم انطلق فدخل على الأسد؛ فقال له الأسد:

- هل أصبت شيئًا؟ قال الغراب:

- إنما يصيب من يسعى ويبصر، وأما نحن فلا سعى لنا ولا بصر، لما بنا من الجوع؛ ولكن قد وفقنا لرأى واجتمعنا عليه، إن وافقنا الملك فنحن له مجيبون.

قال الأسد:

- وما ذاك؟

قال الغراب:

هذا الجمل آكل العشب المتمرغ بيننا من غير منفعة لنا منه، ولا رد عائدة،

ولا عمل يعقب مصلحة.

فلما سمع الأسد ذلك غضب وقال:

ـ ما أخطأ رأيك، وما أعجز مقالك، وأبعدك من الوفاء والرحمة؟ وما كنت حقيقًا أن تجترى علىّ بهذه المقالة، وتستقبلنى بهذا الخطاب؛ مع ما علمت من أنى قد أمنت الجمل، وجعلت له من ذمتى، أو لم يبلغك أنه لم يتصدق متصدق بصدقة هى أعظم أجرًا ممن أمن نفسًا خائفة، وحقن دمًا مهدرًا؟ وقد أمنته ولست بغادر به.

قال الغراب:

ـ إنى لأعرف ما يقول الملك؛ ولكن النفس الواحدة يفتدى بها أهل البيت؛ وأهل البيت تفتدى بهم القبيلة؛ والقبيلة يفتدى بها أهل المصر؛ وأهل المصر فداء الملك، وقد نزلت بالملك الحاجة؛ وأنا أجعل له من ذمته مخرجًا على ألا يتكلف الملك ذلك، ولا يليه بنفسه، ولا يأمر به أحدًا؛ ولكننا نحتال بحيلة لنا وله فيها إصلاح وظفر.

فسكت الأسد عن جواب الغراب عن هذا الخطاب، فلما عرف الغراب إقرار الأسد أتى أصحابه فقال لهم:

ـ قد كلمت الأسد فى أكله الجمل؛ على أن نجتمع نحن والجمل عند الأسد، فنذكر ما أصابه، ونتوجع له اهتمامًا منا بأمره، وحرصًا على صلاحه؛ ويعرض كل واحد منا نفسه عليه تجملاً ليأكله، فيرد الآخران عليه، ويسفهان رأيه، ويبينان الضرر فى أكله، فإذا فعلنا ذلك، سلمنا كلنا ورضى الأسد عنا.

ففعلوا ذلك، وتقدموا إلى الأسد؛ فقال الغراب:

ـ قد احتجت أيها الملك إلى ما يقويك؛ ونحن أحق أن نهب أنفسنا لك، فإنا بك نعيش؛ فإذا هلكت فليس لأحد منا بقاء عندك، ولا لنا فى الحياة من خيرة؛ فليأكلنى الملك، فقط طلبت بذلك نفسًا.

فأجابه الذئب وابن آوى أن اسكت؛ فلا خير للملك فى أكلك؛ وليس فيك شبع قال ابن آوى:

ـ لكن أنا أشبع الملك، فليأكلنى، فقد رضيت بذلك، وطبت عنه نفساً.

فرد عليه الذئب والغراب بقولهما:

ـ إنك لمنتن قذر.

قال الذئب:

ـ إنى لست كذلك فليأكلنى الملك، فقد سمحت بذلك، وطبت عنه نفسًا.

فاعترضه الغراب وابن آوى وقالا:

ـ قد قالت الأطباء، من أراد قتل نفسه فليأكل لحم ذئب، فظن الجمل أنه إذا عرض نفسه على الأكل، التمسوا له عذرًا كما التمس بعضهم لبعض الأعذار، فيسلم ويرضى الأسد عنه بذلك، وينجو من المهالك، فقال:

ـ لكن أنا فىّ للملك شبع ورى؛ ولحمى طيب هنى، وبطنى نظيف، فليأكلنى الملك، ويطعم أصحابه وخدمه، فقد رضيت بذلك، وطابت نفسى عنه، وسمحت به.

فقال الذئب والغراب وابن آوى:

ـ لقد صدق الجمل وكرم؛ وقال ما عرف. ثم إنهم وثبوا عليه فمزقوه.

■ ■ ■

وليمة الأسد

زعموا أن أسدًا كان فى أرض كثيرة المياه والعشب؛ وكان فى تلك الأرض من الوحوش فى سعة المياه والمرعى شىء كثير؛ إلا أنه لم يكن ينفعها ذلك لخوفها من الأسد؛ فاجتمعت وأتت إلى الأسد، فقالت له:

- إنك لتصيب منا الدابة بعد الجهد والتعب؛ وقد رأينا لك رأيًا فيه صلاح لك وأمن لنا، فإن أنت أمنتنا ولم تخفنا، فلك علينا فى كل يوم دابة نرسل بها إليك فى وقت غدائك.

فرضى الأسد بذلك، وصالح الوحوش عليه، ووفين له به. ثم إن أرنبًا أصابتها القرعة، وصارت غداء الأسد؛ فقالت للوحوش:

- إن أنتن رفقتن بى فيما لا يضركن؛ رجوت أن أريحكن من الأسد.

فقالت الوحوش:

- وما الذى تكلفيننا من الأمور؟

قالت:

- تأمرن الذى ينطلق بى إلى الأسد أن يمهلنى ريثما أبطئ عليه بعض الإبطاء.

فقلن لها ذلك لك.

فانطلقت الأرنب متباطئة؛ حتى جاوزت الوقت الذى كان يتغذى فيه الأسد، ثم تقدمت إليه وحدها رويدًا، وقد جاع؛ فغضب وقام من مكانه نحوها؛ فقال لها:

- من أين أقبلت؟

قالت:

- أنا رسول الوحوش إليك.. بعثتى ومعى أرنب لك، فتبعنى أسد فى بعض

تلك الطريق، فأخذها منى، وقال أنا أولى بهذه الأرض وما فيها من الوحش، فقلت له إن هذا غداء الملك أرسلنى به الوحوش إليه، فلا تغصبنه، فسبك وشتمك، فأقبلت مسرعة لأخبرك.

فقال الأسد:

- انطلقى معى فأرينى موضع هذا الأسد.

فانطلقت الأرنب إلى جب فيه ماء غامر صاف؛ فاطلعت فيه، وقالت:

- هذا المكان.

فاطلع الأسد، فرأى ظله وظل الأرنب فى الماء؛ فلم يشك فى قولها؛ ووثب إليه ليقاتله، فغرق فى الجب، فانقلبت الأرنب إلى الوحوش فأعلمتهن صنيعها بالأسد.

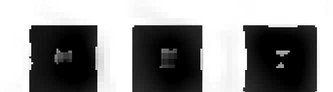
■ ■ ■

ثلاث سمكات

يحكى أن غديرًا كان فيه ثلاث سمكات: كيسة وأكيس منها وعاجزة؛ وكان ذلك الغدير بنجوة من الأرض لا يكاد يقربه أحد وبقربه نهر جار، فاتفق أنه اجتاز بذلك النهر صيادان؛ فأبصرا الغدير، فتواعدا أن يرجعا إليه بشباكهما فيصيدا ما فيه من السمك، فسمع السمكات قولهما، فأما أكيسهن لما سمعت قولهما، وارتابت بهما، وتخوفت منهما؛ فلم تعرج على شىء حتى خرجت من المكان الذى يدخل فيه الماء من النهر إلى الغدير، وأما الكيسة فإنها مكثت مكانها حتى جاء الصيادان؛ فلما رأتهما، وعرفت ما يريدان، ذهبت لتخرج من حيث يدخل الماء؛ فإذا بهما قد سدا ذلك المكان فحينئذ قالت:

- فرطت، وهذه عاقبة التفريط؛ فكيف الحيلة على هذه الحال، وقلما تنجع حيلة العجلة والإرهاق، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأى، ولا ييئس على حال، ولا يدع الرأى والجهد.

ثم إنها تماوتت فطفت على وجه الماء منقلبة على ظهرها تارة، وتارة على بطنها؛ فأخذها الصيادان فوضعاها على الأرض بين النهر والغدير؛ فوثبت إلى النهر فنجت، وأما العاجزة فما تزل فى إقبال وإدبار حتى صيدت.



طائر البحر وزوجه

زعموا أن طائرًا من طيور البحر يقال له الطيطوى كان وطنه على ساحل البحر، ومعه زوجة له، فلما جاء أوان تفريخها قالت الأنثى للذكر:

- لو التمسنا مكانًا حريزًا نفرخ فيه، فإنى أخشى من وكيل البحر إذا مد الماء أن يذهب بفراخنا.

فقال لها:

- أفرخى مكانك، فإنه موافق لنا؛ والماء والزهر منا قريب.

قالت له:

- ياغافل ليحسن نظرك، فإنى أخاف وكيل البحر أن يذهب بفراخنا.

فقال لها:

- أفرخى مكانك، فإنه لا يفعل ذلك.

فقالت له:

- ما أشد تعنتك! أما تذكر وعيده وتهديده إياك؟ ألا تعرف نفسك وقدرك؟

فأبى أن يطيعها، فلما أكثرت عليه ولم يسمع قولها، قالت له:

- إن من لم يسمع قول الناصح يصيبه ما أصاب السلحفاة حين لم تسمع قول البطتين.

قال الذكر:

- وكيف كان ذلك؟

قالت الأنثى:

- زعموا أن غديرًا كان عنده عشب، وكان فيه بطتان وكان فى الغدير سلحفاة، بينها وبين البطتين مودة وصداقة، فاتفق أن غيض ذلك الماء؛ فجاءت البطتان لوداع السلحفاة، وقالتا:

- السلام عليك فإننا ذاهبتان عن هذا المكان لأجل نقصان الماء عنه.

فقالت:

- إنما يبين نقصان الماء على مثلى، فإنى كالسفينة لا أقدر على العيش إلا بالماء، فأما أنتما فتقدران على العيش حيث كنتما، فاذهبا بى معكما.

قالتا لها:

- نعم.

قالت:

- كيف السبيل إلى حملى؟

قالتا :

- نأخذ بطرفى عود، وتتعلقين بوسطه؛ ونطير بك فى الجو، وإياك، إذا سمعت الناس يتكلمون، أن تنطقى.

ثم أخذتاها فطارتا بها فى الجو، فقال الناس:

- عجب، سلحفاة بين بطتين، قد حملتاها.

فلما سمعت ذلك قالت:

- فقأ الله أعينكم أيها الناس.

فلما فتحت فاها بالنطق وقعت على الأرض فماتت.

قال الذكر:

- قد سمعت مقالتك؛ فلا تخافى وكيل البحر.

فلما مد الماء ذهب بفراخها فقالت الأنثى:

ـ قد عرفت فى بدء الأمر أن هذا كائن.

قال الذكر:

ـ سوف أنتقم منه.

ثم مضى إلى جماعة الطير فقال لهن:

ـ إنكن أخواتى وثقاتى، فأعننى.

قلن: ما تريد أن نفعل؟

قال:

ـ تجتمعن وتذهبن معى إلى سائر الطير، فنشكو إليهن ما لقيت من وكيل البحر؛ ونقول لهن: إنكن طير مثلنا، فأعننا.

فقالت له جماعة الطير:

ـ إن العنقاء هى سيدتنا وملكتنا، فاذهب بنا إليها حتى نصيح بها، فتظهر لنا؛ فنشكو إليها ما نالك من وكيل البحر؛ ونسألها أن تنتقم لنا بقوة ملكها.

ثم إنهن ذهبن إليها من الطيطوى، فاستغثنها؛ وصحن بها؛ فتراءت لهن فأخبرتها بقصتهن؛ وسألنها أن تسير معهن إلى محاربة وكيل البحر، فأجابتهن إلى ذلك، فلما علم وكيل البحر أن العنقاء قد قصدته فى جماعة الطير خاف من محاربة ملك لا طاقة له به، فرد فراخ الطيطوى؛ وصالحه فرجعت العنقاء عنه.

■ ■ ■

الدودة المقدسة

«هذه الأسطورة واحدة، مما كان يتناقله الناس قديما فى بلاد فارس ويسجلونه من ألوان البطولة والخرافة، ولكن بعض المؤرخين يعتبرونها ذكرى لتربية دودة القز فى إيران وازدهار صناعة الحرير والثراء الذى تيسر للناس منها، وهم يؤكدون أن لها منشأ من الحقيقة مما ذكره التاريخ من أن اردشير ملك الملوك حارب ملكا على سواحل بحر فارس كان يعظم ويعبد.. وكان يملك دودة القز ويصنع الحرير مما تخرجه.. ويملك من ورائه كنوزا يخبئها فى مطامير.. ثم استولى عليها كلها ملك الملوك..!».

فى ظل شجرة منعزلة من شجرات التفاح، فى جبل الحدائق بمدينة كخازان. وبين مجموعة نضرة من الفتيات الفاتنات، جلست شيرين وفى يدها مغزل الصوف تحرك بخيوطه أصابعها حركات سريعة دقيقة، وفى عينيها نظرات فيها من الألم أكثر مما فيها من الهدوء.

وكانت شيرين فى جلستها تلك تقضى وقتها كما تقضيه كل يوم فى تبادل الأحاديث مع صديقتها فى شئونهما الخاصة التى لم تخرج أبدا عن شئون كل الفتيات الفقيرات فى ذلك العصر.. من الضيق والحاجة.. والفراغ..!

وفى ذلك اليوم لم تسكت شيرين أبدًا، ولم تترك لصاحبتها فرصة الكلام قط، فقد كانت قبل أن تحضر إلى الحديقة قد مرت بإحدى فترات الضيق العنيفة فى البيت، فراحت تحدث صديقتها عما يعانيه أبوها «هفتواز» من الحاجة القاسية بسبب أطفاله السبعة.. الذين يحتاجون إلى كثير من النفقة.. وهو رجل لا حيلة له فى الحصول على ما يكاد يكفيهم.

كانت تتحدث وفى قلبها يضطرم ألم أسود، وفجأة.. سقطت بين قدميها

تفاحة ناضجة، فانحنت فوق الأرض وتناولتها، وعرضتها على صاحبتها التى اعتذرت عن قبولها، ولما كان خواء أمعائها يدعوها إلى أن تقضمها، فقد أهوت بأسنانها عليها لتأكلها.. إلا أنها لم تكد تقضمها حتى توقفت.. فقد كادت أسنانها تهوى على دودة بيضاء كانت تمتد فى جوف التفاحة.. وأخذتها شفقة عليها، فأعادت القطعة التى قضمتها إلى مكانها.. وقد أبت أن تشبع جوعها بطعام الآخرين، وتركتها للدوة تأكلها على مهل.. ولفتها داخل الصوف الذى تغزله وحملتها معها إلى البيت.

وكان صباح اليوم التالى.

ومدت شيرين يدها تتناول الصوف والمغزل لتبدأ مهمة الصباح.. فإذا بها تفاجأ بأن كمية الغزل قد تضاعفت أضعافًا كثيرة عما كانت عليه فى المساء..

وانطلقت شيرين إلى أبيها فى فرح كبير.. ثم إلى أمها التى لم تكد تسمع القصة حتى أبعدت عنها الغزل فى رعب وهى تقول:

ـ من أين هذا يابنتى؟ لابد أنه عفريت ماجن ذلك الذى جعل هذا.. أو لعلها خدعة من عرائس الجن يسلبن بها عقلك وقلبك..!

وأجابت شيرين:

ـ لست أدرى ياأماه.. ولكن لعله الإله رحم أبانا الطيب هفتواز فأكثر من الغزل ليزيد من رزقه ويخفف عنه بعض بؤسه وفاقته..!

ومضت الأيام.

وفى كل يوم كانت شيرين تنهض مع الصباح لتجد الغزل ازداد من جديدًا أضعافًا كثيرة.. وكانت شيرين تعطى الغزل لأبيها فيبيعه.. ويستنفد منه حاجته وحاجة أولاده.. ويدخر ما يزيد منه إلى الأيام السود التى طالما مرت مثلها به من قبل..!

وأخذت أنظار كل الأسرة تتجه إلى صديقة شيرين الجديدة.. تلك الدودة

التى أنزلت السعادة منزلهم منذ نزولها هى به.. فراحوا كلهم يولونها خير عناية.. وأعدوا لها صندوقًا صغيرًا مبطنًا بالصوف والحرير.

واستغرب الناس تلك السعادة التى غمرت بيت هفتواز.. وذلك التغيير المفاجئ فى حياة أسرته، وما أكثر ما ابتدع الناس من أسباب لانتقال آل هفتواز من الفقر إلى الغنى.. الغنى الذى ظل يزداد يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر.. حتى أصبح هفتواز يمتلك أموالاً طائلة، وقصورًا فخمة، وحدائق غناء، وأرضًا مخصبة لم يعرف مثلها لواحد بمفرده قط.

وبلغت أحاديث النعمة الجديدة آذان أمير كخاران الذى طمع فى أموال هفتواز فسار إليه ذات يوم فى كتيبة من الجند وقد قرر الاستيلاء على كل ما ملكه الرجل بلا جهد ولا عناء.

ولكن هفتواز وأبناؤه السبعة كانوا قد احتاطوا لمثل هذا الأمر، وعندما وقعت الواقعة بين الأسرة الصغيرة وكتيبة الأمير الطماع، أظهر الأبناء السبعة من ضروب البطولة ما ذهب بحياة الأمير، وجعل أفراد الكتيبة كلهم يولون الأدبار هاربين.

وهتف أهالى كخازان لهفتواز الذى خلصهم من الأمير الطاغية.. ونادوا به أميرا عليهم لا ينازعه منازع.

واستمر الخير يزداد كل يوم بهفتواز.. وظلت أمواله تزداد وأملاكه تتضخم.. والدودة تزداد هى الأخرى كبرا وضخامة حتى ضاق بها الصندوق الكبير الذى استبدلوه من قبل بالصندوق الصغير.

وقرر هفتواز أن يحمى إمارته من أية غارة قد يفاجئه بها عدو.. فشيد على قمة جبل الحدائق قلعة عظيمة.. أقام حولها سورًا من الحديد، ونقل أمواله وخزائنه ونفائسه إلى القلعة.. ثم انتقل إليها ومعه كل أفراد أسرته.. وكل من أحاط به من جنود وأتباع.

أما الدودة العزيزة التى أصبحت فى ضخامة الفيل.. فقد حفر لها هفتواز

حوضًا واسعًا فى جوف الصخر، فرشه بفراش لين رطب، وترك لها أن تمرح فيه ما جلا لها المرح، وطابت لها الحركة.. وكانت شيرين هى التى تطعمها كل يوم، كمية هائلة من الأرز، وكمية كبيرة من العسل واللبن!

وصار أبناء هفتواز السبعة قادة العشرة آلاف مقاتل من شجعان كخاران، واتسع نفوذه وخضعت لسلطانه كل الإمارات المحيطة بإمارته.. حتى بلغ الأمر آذان ملك الملوك شاهنشاه أردشير.

وغضب الشاهنشاه لاتساع نفوذ الرجل الذى قتل تابعه أمير كخاران فقرر أن يقتله.

وأرسل أردشير جيشًا ضخمًا يقوده قائد العجم أصبهيز.. وأمره ألا يعود إلا بعد أن يدمر قلعة الحديد.. ويأتيه برأس هفتواز بعد أن يجعل من مصرعه عبرة لكل طامع فى سلطانه.. متمرد على رجاله..!

وسار الجيش الجرار حتى أحاط بقلعة الحديد مع فجر ذات يوم، وحمل أصبهيز بفرسانه على أسوار القلعة حملة عارمة، ولم يواجهوا بأية مقاومة حتى بدا لهم كأن تسلق الأسوار أصبح من السهولة بمكان كبير.

وفجأة.. انهارت عليهم سهام غزيرة كالمطر، ذهب معها آلاف من الجند صرعى ومعهم قائدهم أصبهيز.

وفتحت أبواب القلعة ليخرج منها فرسان سبعة على رأس جيش ضخم.. وفوجئ أتباع الملك بالجيش الجرار المنطلق من أبواب القلعة فما عرفوا كيف يهربون.. وراح الموت يحصدهم حصدًا، سوى عدد قليل استطاعوا الهرب ليقصوا على شاهنشاه قصة الهزيمة..!

وجن ملك الملوك، وأقسم بالنار المقدسة أن يذهب بنفسه إلى هفتواز فلا يعود عنه إلا وقد جعله عبرة التاريخ.

وعلى رأى جيش بعدد نجوم السماء، سار شاهنشاه أردشير إلى قلعة

الحديد، فوجد هفتواز وأبناءه السبعة على رأس رجاله ينتظرون على أبواب كچاران، ونشبت الملحمة قاسية كطوفان، عنيفة كإعصار، محرقة كجهنم، ولم يكفها يوم ولا أيام، بل استمرت شهورًا والحرب سجال بين الفريقين.. والقتلى يتساقطون من هنا وهناك.. والملك يكاد يجن ولا يعرف سرق قوة هفتواز..!

وبينما المعركة دائرة.. بلغ شاهنشاه أن الأمير مهرك صاحب مدينة «جهرم» قد ثار على العرش ودهم جنود الملك وأتباعه فى عاصمته.. واستولى على ما فيها من ذخائر وكنوز.

وفوجئ ملك الملوك بالموقف الجديد، فأمر رجاله بالتراجع، وعاد بجنده إلى معسكرهم الذى يبعد عن أسوار قلعة الحديد عدة فراسخ.. وبينما الملك يتشاور مع وزرائه وقواده فى معسكره.. والمائدة ممتدة أمامهم وعليها حمل مشوى، فوجئ الجميع بسهم مارق يسقط فى مكان القلب من الحمل..

وانتزع الملك هذا النصل العريض فإذا عليه كتابة تقول:

«ها أنت تعلم ياملك الملوك أننى لو أردت أن أجيبك بهذا السهم لفعلت، برغم ما بيننا من عشرات الفراسخ.. وكل ذلك ببركة الدودة البيضاء التى يحتويها قصرى فى قلعة الحديد.. فلتكن فى ذلك عبرة، ولتذهب إلى عاصمتك قبل أن أفكر فى إرسال سهم جديد..!».

وهنا فقط.. زال غم الملك.. وما كان ليهتم أبدًا بالتهديد.. فقد أدرك من هذه الكلمات القليلة التى أرسلها إليه عدوه هفتواز سر قوته.

إنها الدودة السحرية.

والنصر له إذا استطاع أن يقضى على الدودة، وليكن ذلك فى يوم قريب..!

ونفخ فى البوق إيذانا بالرحيل.. ورفعت الخيام وتحرك الجيش العظيم.. ووجهته مدينة جهرم حيث أنزل الملك بأميرها الغادر هزيمة ساحقة.. وقتله شر قتلة.. واستولى على قصره ونفائسه.. وأباح مدينته لجنده.. وعاد إلى عاصمته

غانماً منصورًا.. لولا ذكرى فشله وهزيمته أمام قلعة الحديد..!

وعندما انقضى عام.. كان قد استقر رأيه على السير إلى كخاران.. لينتقم.

وعلى رأس جيش صغير.. سار ساهنشاه أردشير فى طريقه إلى كخاران، ولكنه لم يهتم بتسليح قواته بقدر ما اهتم بما يحملون من أنواع السلع والأطعمة والأشربة.. التى كان قد قرر أن تكون وسيلة للوصول..!

وانتحى شاهنشاه بجيشه الصغير جانبا فى مكان منعزل عن الطريق.. وخرج متخفيا بزى التجار ومعه أحمال كثيرة من مختلف أنواع الأقمشة والأطعمة.. وقدر كبير مملوء بأحسن أنواع الرصاص والنحاس.

ومر الملك فى طريقه بقرية صغيرة على بعد فرسخ من قلعة الحديد، وراح ينادى على بضاعته التى لا يوجد مثلها حتى فى قصر شاهنشاه، ولا فى قصر هفتواز.. وراح فى كل مكان يسمع تعليقات ساخرة على أهل القصرين.. فما اهتم للسخرية التى أصابته.. بقدر ما اهتم للسخرية من هفتواز.. فقد كان كل همه أن يعثر على من تزداد سخريته بهفتواز حد العنف.

ووجد ضالته فى فلاحين يسكنان معا فى كوخ صغير.. فراح يتحدث إليهما.. ويسألهما عن سر سخريتهما وضيقهما بأمر هفتواز.. فراحا يقصان عليه ما يعانيه الناس من ظلمه وجوره.. ويتمنيان أن يزول سلطانه على يد ملك الملوك..!

واطمأن ملك الملوك إلى حديثهما، فكشف لهما عن نفسه.. واتفق معهما على أن يساعداه فى دخول قلعة الحديد.!

وانطلق الثلاثة من القرية فى زى التجار إلى قلعة هفتواز، وكلهم يحملون ألوانا زاهية من السلع التى تجتذب الأنظار، وسمح للتجار الثلاثة بدخول باب القلعة الكبير.. وتوجه رئيسهم إلى قائد حرس الدودة البيضاء.. وراح يعرض عليها أزهى ألوان سلعه وبضائعه.. وأخبره أنه تاجر من خراسان جاء ليبيع ويشترى ببركة الدودة البيضاء وطمعًا فى الربح الكثير.

وكان قائد الحرس عبوسًا قاسيًا.. إلا أن عبوسه زال وقسوته لانت عندما قدم التاجر له ولرجاله هدايا من أبدع ما يحمل من ثياب وحرير.. ومن ألذ ما يحمل من ألوان الشراب، واحتفل الجميع بالهدايا الرائعة.. وقرروا أن يشربوا بضع كئوس فى صحة التاجر الغريب.

وفتحت أوانى الخمر.. ودارت الكئوس لتدور معها رءوس رجال الحرس.. ثم ليستغرقوا فى نوم عميق من أثر المخدر القوى الذى دسه التاجر فى أوانى الخمر.

وتسلل التجار الثلاثة: الملك، والفلاحان إلى الحوض الكبير الذى ترقد فيه الدودة البيضاء، ونصبوا القدر على جانب الحوض وأحرقوا تحته نارا قوية.. ولم تكد النيران تذيب ما يحتويه القدر من رصاص ونحاس.. حتى قربوا القدر من الدودة التى ظنته طعامها المعتاد.. ففغرت لهم فمها كأنه باب كهف.

وصب الثلاثة ما بالقدر كله فى جوف الدودة فاحترقت.

وعندما ماتت.. انطفأت معها شعلة الحظ السعيد الذى طالما سطع فى حياة آل هفتواز.

وكان بين ملك الملوك وأتباعه القابعين غير بعيد عن القلعة، إشارة اتفقوا عليها وهى أن يضرم لهم النار ليبصروا لهيبها إذا كان الوقت ليلا.. أو دخانها إذا كان الوقت نهارًا.. ولم تكد القوات تلمح النيران حتى انطلقت إلى أبواب القلعة فوجدوها مفتوحة.. ودارت المعركة رهيبة عنيفة.. إلا أنها كانت كلها فى جانب ملك الملوك.. فلم تمض ساعة حتى كانت القلعة قد انهارت.. وكان أتباع الأمير قد استسلموا.. أما الأمير وفرسانه السبعة.. فكانوا قد قضوا نحبهم فى المعركة.

أما شيرين.. فمنذ ذلك الوقت.. لم يعثر لها أحد على أثر قط..!

■■■

الملك رضوان والأميرة شهرستانى

«لم تعرف الأساطير الفارسية أروع من هذه الأسطورة الخالدة فى دنيا الحب والوفاء.. والتى لعبت فيها يد الخيال الشرقى قدر ما لعبت على مر الأيام.. حتى انتهت الأسطورة آخر الأمر لتكون أصلا لوجود بلقيس.. ملكة سبأ.. وزوج النبى سليمان الحكيم..».

كان الملك رضوان شاد يقف مرسلا بصره فى ذهول نحو القصر الذى نهض شامخًا عملاقًا، يتلألأ من جوانبه النور، وتنبعث من نوافذه أمازيج موسيقى شجية رائعة كألحان السماء.

ولم يكن ذلك الذهول الذى استولى على الملك عن عجب لمرأى القصر، ولكن الذى أثار ذهوله هو أنه لم يكن هناك شيء من ذلك القصر قبل بضع ساعات، حينما استلقى على جانب النبع فى انتظار خروج الجنية التى ألقت بنفسها فى الماء حين تابعها بجواده، ظل يتربص خروجها وهى تأبى أن تغادر الماء حتى أخذت به سنة نوم استسلم لها.. ثم لم يكن ينتبه منها حتى وجد القصر العجيب قائما حيث كان النبع.. ووجد نفسه مستلقيا على بوابة وإلى جواره «مؤذن» وزيره ورفيق صيده..!

وعاد الملك رضوان شاد بذاكرته إلى أولى ساعات ذلك الصباح.. كان قد غادر قصر ملكه بعاصمة الصين إلى رحلة صيد كعادته كل يوم.. ومن حوله رجال الحاشية.. وإلى جواره الوزير «مؤذن»، وبينما هم يخرجون من الأحراش إلى العراء.. إذ بدأت لهم ظبية حلوة تختال طربا.. لم يكد بصر الملك يقع عليها حتى غمز جواده بمهمازه.. وانطلق خلفها كأسرع من الريح.. ولم تكد الظبية ترى مطاردها حتى انطلقت تجرى وتثير من خلفها إلا أنه بالرغم من ذلك كاد يلحقها؛ فلما وجدت أنها تقع بين يديه قفزت فى النبع وغابت عن ناظريه فى الماء.

وتوقف الملك بحصانه إلى جوار النبع وترجّل.. ثم راح يجس الماء بعصاه بحثا عن طريدته.. فلما لم يجد لها أثرًا، تأكد له أنها جنية تقمصت صورة ظبى حتى تستطيع العبث خلال دورانها بقلوب كل الصيادين، وإذ بدت له تلك الحيلة أمر رجال حاشيته بالعودة إلى القصر.. بينما ينتظر هو ووزيره إلى جوار الماء حتى تخرج الظبية.. إذ كان معروفا أن الجنيات لا تستطيع البقاء طويلاً فى نبع به ماء محدود.

واستلقى الملك مع وزيره إلى جوار النبع فى انتظار خروج الجنية ولكن الجهد الذى كان قد أخذ بهما كان لابد أن يسلمهما خلال استلقاءتهما إلى نوم عميق.. ما كاد يستيقظان منه حتى وجدا نفسيهما واقفين فى ذهول يحملقان إلى القصر الذى انتصب فجأة أمامهما.. كما ينتصب عملاق مهول!

وقال الملك يحدث وزيره فى ذهول:

- إنى لا أكاد أفقد عقلى لمرأى ذلك القصر العجيب.. أترى ماردًا من عفاريت الجن ذلك الذى أقامه..؟! أو هو قد شبه لنا فحسب من طول ما تعبنا وشربنا خلال رحلة الصيد..؟!

أجاب مؤذن:

- ما أظنه يامولاى سوى عمل ساحر، يبغى من ورائه هدفًا خسيسًا أو مؤامرة مدبرة، فلنذهب بعيدًا يامولاى قبل أن يلعب السحر بالعقول فنستسلم له كما استسلمنا للظبية اللعين الماكرة!

قال الملك:

- بل لابد من ولوج أبواب القصر بحثا عن الظبية وجريا وراء معرفة ما يحتويه ذلك القصر من أسرار..!

واضطر الوزير للاستسلام لأمر ملكه، وانطلقا معا فى الطريق إلى باب القصر حيث اجتازاه، وإذا بهما يتوسطان قاعة واسعة كل محتوياتها من ذهب

وفضة وعقيق، ومن كل ركن منها يفوح ريح عطر كعبير الجنة، واجتازا القاعة ليجدا نفسيهما فى قاعة أخرى أكثر من الأولى سحرًا ورونقًا، تتوسطها بحيرة لامعة من زئبق حى.. يترجرج من فوق سطحها عرش من ذهب موشى باللؤلؤ والماس.. تجلس فوقه حورية حسناء كالبدر.. تحيط بها خمسون عادة فى ثياب من دمقس وحرير.. يغنين ويرقصن.. ويعزفن ألحانًا كأنها السحر لم تسمع مثلها الأرض أبدًا.

كانت هذه الصورة التى طلع عليها رضوان شاد أروع مما كان يمكن أن يخطر له ببال.. ووجد نفسه ينحنى حتى ليكاد يركع على الأرض أمام سحر النور الذى يشع من وجه المرأة، وانطلق من بين شفتيه كلام الهمس:

- رحماك يامن تجلسين على عرش من ذهب، وتأسرين بنور وجهك كل القلوب، رحماك يامن جعلت ملك الصين يركع عند قدميك أسيرًا تحت سهام لحظك الفتاك.. من تكونين أيتها الحورية التى تعجز عن الإتيان بمثلها الأزمنة والأجيال..؟!

أجابت الحورية من فوق عرشها الذهبى:

- أنا من تبعتها بسهامك وأردت أن تكتب لها الموت بحد رمحك، أنا الظبية التى أغرتك وساقتك إلى حيث تعيش، من أجل صرخات حب صاخب فى فؤاد عربيد..!

قال الملك:

- ولكن كيف يكون هذا التحول.. ومن أين أدرك أن حبى لا يقع فى شرك مسحور من أجل لحظات كسنا البرق قصار.. ليلقى به بعد ذلك فى أتون من النيران..؟!

ونهضت الحورية وهى تقول للملك:

- لا تخشَ قلبى أيها الملك.. فهو لم يعرف السحر قط.. وما تحولى من صورة إلى أخرى سوى آية وهبتنيها السماء منذ طلعت عيناى على النور..!

ومدت الحورية يدها إلى الملك تنهضه وتأخذ به من حجرة إلى أخرى.. حتي انتهيا إلى قاعة تتوسطها مائدة حافلة بكل فاخر من طعام وشراب.. لم يكد الملك ووزيره يجلسان إليه حتى أحاطت بهما كل القيان الحور، يقمن على خدمتهما ويعزفن ويغنين ويرقصن.. ويرفضن أن يمددن أيديهن إلى المائدة إذ هن لا يجدن ريًا وشبعًا إلا فى الفيافى والقفار..!

وطعم الرجلان حتى شبعا، وتساقيا الخمر حتى ارتويا.. فى حين راحت الحورية تحدث الملك وتقول:

ـ ما أحلاك أيها الحبيب.. إننى أنا التى تبثك الهوى برغم مولدى القدسى وأصلك الأرضى، أنا يامن خلقت من نار لم أستطع منذ رأيتك أن أطفئ لهيب قلبى الذى اشتعل حبًا لك وشوقًا إليك.. أنا شهر ستانى وحيدة ملك الجن مينوتشير الجالس على عرش جزيرة شهرستان.. أجد نفسى أسيرة هوى لرجل من الإنس لا يمت لى بصلة ولا بنسب.. فأستسلم لهواه ولا أهتم بالوقت يمر سراعًا، فى حين كان يجب أن أكون بالأمس فى دار أبى الذى غادرته منذ شهور ثلاثة، أضرب فى الأرض وأطوف أنحاءها لأشهد مملكة الإنس التى لا تشبه فى شىء أبدًا مملكة أبى الجنى، ثم وقع بصرى عليك أيها الإنسى وأنا فى طريق العودة إلى ديارى فما استطعت أن أمنع قلبى من السقوط عند قدميك.. وما عرفت كيف أقع وأنا الجنية فى هوى إنسى من طين وماء.. وهممت أن أعود إلى جزيرة أبى فى أعماق البحر، إلا أننى وجدت قدمى مقيدتين إلى الأرض التى أنت عليها فلا أستطيع لها فكاكًا.. وهنا قررت الاستسلام لسهام حبك فانطلقت إليك أغريك فى صورة ظبية.. فتبعتنى ولم تقصر فى العدو خلفى، على حين كنت أزيد فى إغرائك ودعوتك وأنت لا تدرى، حتى ألقيت بنفسى داخل النبع وأنا أعلم أنك لن تذهب حتى ترى من تكون تلك الظبية التى أوقعتك فى شراكها.. ولقد صدق حدسى إذ رأيتك تتحسس الماء بعصاك فصفقت طربا.. وازداد لك حبى وأنا أسمع فى الأعماق منك تصميمًا على قضاء الليل إلى جوار النبع، فألقيت على عينيكما غشية النوم، ثم أمرت بتشييد ذلك القصر لنقضى

معًا فيه أيام حبنا مترعة كأجمل وأحلى ما يكون الحب.. فهل أنت راض الآن عما فعلت، أم تراك ساخطًا بى غاضبًا على لما بعدت بك عن عاصمة ملكك وحبيب أهلك..؟!

وانتفض الملك وقد توزع قلبه بين عرشه وناسه وبين تلك الحورية التى اعترفت له بكل ما يملأ قلبها من هوى صاخب عربيد.

وسجد رضوان شاد أمام فاتنة الجن وهو يقول:

ـ أيتها الحورية الحبيبة الطاهرة.. ماذا يكون عرشى وناسى إلى جوار أبهى وأعز وأفتن من وقعت عليها عيناى..؟! إنما أنت الهواء الذى أتنفس والنور الذى به أستضىء.. إن يومًا واحدًا نقضيه معًا فى قصرك العلوى، لأشهى إلى من قضاء دهر كامل فى جنان فردوس خالد.. هنا وإلى جوارك.. سأعيش، ولن يكون فى ذاكرتى من أمور تلك الأرض شىء إلا ما يذكر بهذا اليوم الحبيب الذى ساقتك فيه إلى ربة الحب الخالدة، وسمعت فيه عذب الهوى وحر الحنين..!

وهنا.. فى تلك اللحظة بالذات.. فتح الباب وألقت إحدى الوصيفات نفسها تحت قدمى شهرستانى.. ومن عينيها تجرى خيوط طويلة من الدموع، وقالت الوصيفة فى صوت كان يحمل فى أعماقه رفيف الموت:

ـ لك المجد أيتها الملكة.. فقد انتقل والدك الملك من الحياة الفانية إلى الحياة الخالدة.. والشعب كله ينتظر عودتك بفروغ صبر.. ليضع على رأسك التاج قبل أن يغتاله عمك الذى طالما طمع فى عرش أبيك، فلنعجل يامولاتى ولا نتأخر فما عاد هناك وقت نضيعه ونفنيه..!

ومن أعماق شهرستانى ندت صرخة تجاوبت رجعها الجبال والوديان، وانهارت على صدر رضوان شاد فى نشيج متقطع ملهوف، ولم يكن بد من أن يكفكف الرجل من عبراتها ويمسح بحر قلبه دموعها الساخنات.. غير أنها كانت قد استسلمت للقدر الذى قدر لها غير ما كانت تريد.. وراحت تقول له والكلمات تخرج شقية ذاهلة من خلال الدموع:

- أيها الحبيب الذى لن أنساه.. لابد لى من استسلام لحكم القضاء، والذهاب إلى حيث أدفع عن شعبى المسكين ما قد يصيبه إذا اندفع عمى فى شره ليستخلص لنفسه عرش الجدود، فوداعا أيها الحبيب العزيز.. ولكن ثق أننى لن أنساك.. وسأعود ذات يوم لأراك.. فإذا وجدت قلبك لايزال قائمًا على حبى وفيًا لهواى فأعدك ألا أتخذ سواك زوجًا أبدًا..!

ولم تكد تتم كلامها حتى اختفت عن الأنظار.. وتحول القصر الذى كان يتلألأ من لحظات، فإذا به خواء كأن لم يكن هناك شىء سوى ظلمة مجنونة دامسة.. تغمر بسوادها كل الأرض..!

عندما عاد رضوان شاد إلى قصره، لم يكن قط ذلك الملك الذى كان قبل أن يلتقى بشهرستانى.. تحول الملك العربيد زاهدًا وقورًا، تحط الأعباء فوق كتفيه وكأنه لم يعد بعد صاحب الأعوام الثلاثين وحسب، وبعد أن كان الملك لا يقرب الغابة إلا إذا كان يوم صيد.. إذا به ينطلق فى أعماق الغابة كل يوم، يجلس حالما إلى جوار النبع الذى اختفت فيه الظبية الحبيبة.. لعلها تعود فتخفف عن قلبه حنين الجوى، ونار الفراق..!

ومضى عام وبعض عام..

وذات يوم.. بينما كان الملك جالسًا إلى جوار النبع، إذ به يختفى فجأة.. ولا يترك أثرا لكل من حاول البحث عنه..

وضج الشعب، وجن الوزير، واضطرب القادة.. ولكن أحدا لم يستطع الاهتداء إلى حيث اختفى الملك.. وما عرفوا قط هل ذهب مختارًا إلى المجهول، أم هو لقى حتفه وتقطعت أوصاله فى أعماق وحش مهول من وحوش الغابة التى كان يقضى فى أعماقها كل أيامه ولياليه؟

شخص واحد فقط كان يستطيع أن يحدس ما كان.. غير أنه ما استطاع قط أن يصدق حدسه ويؤكده، وهو لم يكن مع ملكه ساعة اختفى فى خضم المجهول..

ولقد صدق حدس الوزير.. فقد تأكدت شهرستانى، وهى بعد على عرشها، من وفاء رضوان شاد وإخلاصه لحبها وهواها، فأمرت جنودها من الجن باختطافه من مجلسه إلى جوار النبع، ونقله إلى قصر ملكها فى جزيرة الجن.. وهناك.. التقى الحبيبان.. ونسى رضوان شاد أمر عرشه وأمر ناسه كما سبق أن وعدها من قبل.. وأبت هى الأخرى إلا أن تنفذ الوعد الذى قطعته له.. وهو أن يتزوجها برغم أنه إنسى من طين وماء.. وبرغم أنها جنية من نار وهواء..

وأطلقت شهرستانى المنادين فى جزيرة الجن يدعونهم إلى ساحة قصرها الكبير وعندما التأم شمل الجميع، وقفت الملكة فى شرفة القصر وإلى جوارها رضوان شاد فى أديمه الإنسى، وراحت تقول:

- بحق أبى الذى أقسمتم على طاعته، وحميتم له عرشه، وحفظتموه لابنته التى كانت قد انطلقت لتشهد مملكة الإنس بعيدًا عن جزيرتكم المحبوبة.. وبحق ذلك القسم الذى أقسمتموه إذ تقلدوننى تاج أبى، أن تخولونى كل سلطة على مملكة الجن والحور.. أنهى إليكم رغبتى فى الزواج من رضوان شاد الملك الإنسى الذى هجر ناسه وعرشه ليكون إلى جوار ناسى وعرشى.. فإما أن تجعلوه منكم بمثابة الرأس معى وتضعوه حيث وضعتمونى.. وإلا فاتركونى أذهب إلى مملكته، حيث أجلس معه على عرشه وأشاركه فى حب ناسه وذويه..!

وهتفت جموع الجن صاخبة:

- بحق القسم الذى أقسمناه نبارك زواجك، ونؤكد لزوجك ولاءنا وإخلاصنا، بنفس الإيمان والقوة التى أكدنا بها إخلاصنا لك وولاءنا لعرشك..!

ولم يمض يوم واحد حتى كانت مملكة الجن كلها تتلألأ بأضواء الفرح فى انتظار الاحتفال بعقد قران المكلة شهرستانى والملك رضوان شاد.

وجلست الحورية تحدث الرجل الذى اختارته:

- قبل أن ترتبط بى حتى النهاية.. أريد أن أنبهك إلى أشياء قد تعجز عن الوفاء بها فيكون أولى بنا منذ الآن أن نفترق..

قال لها:

- أبدًا أيتها الحبيبة.. فأيًا تكن هذه الأشياء فلن تعجزنى عن الوفاء بها، ما دام ذلك العجز يبعدنى عنك ويقربنى من الفراق..

قالت شهرستانى:

- إنه لأمر شاق ذلك العهد.. ولكنك إذا نكثته ستسبب لكلينا شقاءً ووبالاً يدومان حتى ينتهى بنا العمر.. ولست أخشى إلا أن يشق عليك الأمر فتنكث فى يمينك..

وعاد رضوان شاد يقول لها:

- أنا طوع أمرك ورهن إشارتك.. وهل يخطر فى بالك أننى أنا الذى ما كان من عادتى قط أن أنكث عهدًا قطعته مهما قل شأنه.. يكون من الممكن أن أنكث عهدًا أقطعه لك أنت يامن تملكين روحى ونفسى..!

ولبضع لحظات سكتت الملكة وهى تستوحى الغيب.. ثم عادت تقول للملك:

- إن الذى أريد أن تعاهدنى عليه هو ألا تتدخل فى أمر آتيه قل شأنه أو صغر، فنحن حوريات الجن لنا من طبائعنا ما يختلف تماما عن طبائعكم.. ويبدو لكم من تصرفاتنا ما لا يمكن أن تستسيغه عقولكم.. فحذار أن تعترض على أمر آتيه أو أدعه.. وحذار أن يملأك غيظ وضيق أو تبدى تذمرًا لشىء أفعله.. فإن ذلك يقطع كل ما بيننا وتنتهى أيام زواجنا وكأنها لم تكن على الإطلاق، فهل أنت قادر على الوفاء بالعهد فلا تلومنى، أو تغضب منى مهما فعلت.. أم أنك لابد ثائر غاضب فتسبب لنا ما لا نطيق..؟!

أجاب رضوان شاد وهو يضحك:

- أيكون ذلك هو كل ما تحذريننى منه وما تخشين أن أقع فيه؟! أبدًا أيتها الحبيبة.. ليمتلئ قلبى ثقة بقدرتى على الوفاء بالعهد، وإيمانًا بأن ذلك الأمر الذى تعتبرينه شاقًا ليس أسهل منه لدينا نحن بنى البشر..!

وعادت شهرستانى تتأمل الغيب فى مسحة من الحزن ثم قالت:

ـ أواثق أنت أنك لن تعترض قط على فعل آتيه ولو بدا لك شاذا مجانبا كل الصواب؟ أواثق أنت أنك ستكون مقتنعًا من أن ما أفعله إنما هو ضرورة تمليها على شريعتى وعقائدى، وتجبرنى على ألا أكشف أمرها لجنى ولا إنسى قط..؟!

وانحنى رضوان شاد فلثم كفيها وهو يقسم أن يكون عند حسن ظنها راضيًا بكل ما تفعله غير معترض على شىء تأتيه.

واقتنعت الملكة.. وصار رضوان شاد شريكًا لها على عرش مملكة الجن.

وانقضى عام..

وذات يوم.. أغلقت الملكة على نفسها الباب ومنعته من الدخول.. وعندما فتح الباب من جديد كانت الملكة تحمل وليدًا رائعًا كأنه البدر.. راح يقبله ويحتضنه ويكاد يرقص من الطرب.. وتناولت الأم منه الطفل ثم وقفت بقرب نار تضطرم فى ركن القاعة.. وراحت تتمتم بألفاظ غريبة لم يستطع أن يفهم منها شيئًا قط.. ثم فجأة.. مدت يدها بالوليد وألقت به فى النار التى سرعان ما ابتلعته ثم خمدت وكأن لم تكن هناك نار على الإطلاق..!

وكادت الصرخة تنطلق مدوية من فم الملك.. لولا أن انتبه إلى نفسه فى اللحظة الأخيرة، وتذكر العهد الذى قطعه فكتم ألمه، ورسم على شفتيه بسمة الرضى، على حين كان فى الأعماق منه اضطراب مجنون.

وانقضى عام آخر..

وذات يوم وضعت الملكة مولودة جديدة أروع جمالا من الملكة نفسها.. وراح الملك يحتضن بلقيس ويقبلها وهو يتوقع فى كل لحظة أن تأخذها الملكة منه فتلقيها فى النار.. غير أن شيئًا من ذلك لم يقع فى ذلك اليوم.. فاطمأن قلبه وامتلأ حبا لزوجته وابنته، وما عاد يطيق فراق أى منهما لحظة واحدة.

غير أن الملك فوجئ بعد أسبوع بكلبة عملاقة تدلف من باب القصر.. فاغرة

فمها الكبير، ثم تنطلق لتقف أمام الملكة التى لا تكاد تراها حتى تلقى ببلقيس بين فكيها.

وكاد الملك ينفجر.. وارتفعت يده تكاد تنقض على الكلبة، والملكة معًا، لولا انتباهة جعلته يدير يده وكأنه يحيى الكلبة قبل أن تمضى.. ثم انطلق إلى مخدعه وأغلق من خلفه الباب.. وراح يبكى وحده ويقول:

- أواه منك أيتها السفاحة القاسية.. ألا ما أقذر ضميرك وأحط نفسك وأنت تحرقين ولدك وتلقين بابنتك فى أفواه الكلاب، أيكون كل هذا لأن تقاليدك تأبى أن يكون لك أبناء من إنسى ليس من جنسك..؟! ألا ما أفظعك أيتها الملكة؟ وألا ما أحقرنى إذ أطيق أن أرى ولدىّ يلقى بهما إلى ذلك المصير؟ ولكن لا.. إن لصبرى حدودًا أيتها المرأة.. ولن أحتمل قط أنا البشرى ما تسيغه لكم شرائعكم المخيفة وعاداتكم الرهيبة..!

وانطلق رضوان شاد - وقد رسم على وجهه بسمة الرضى وكأن شيئا لم يكن يدور فى أعماقه منذ لحظات - وراح يحدث الملكة فى شئون مملكتها.. ثم بدأ يدير دفة الحديث لينقله إلى ما يضمر ويريد..

قال الملك لشهرستانى:

- لكم شاقنى أمر مملكتى وما دار فيها منذ تركت شعبى المسكين حائرا فى مصيرى خائفًا مما يكون ألمَّ بى.. ألا ليتك تأذنين لى بالذهاب إليهم أطمئنهم وأنظم أمورهم ثم أعود؟!

وابتسمت الملكة وهى تجيب:

- فليكن لك ما تريد أيها الحبيب.. ولقد كنت أنا نفسى بسبيل أن أطلب منك ذلك، إذ بلغنى أن بلادك فى حاجة إليك وقد استعد المغول لمهاجمتها والسير إليها فى جيش لم تر مثله الأرض قط.. اذهب أيها الملك تحمى شعبك الذى لن يستطيع أن يقف وحده فى وجه المغول إلا إذا كنت على رأسه.. أما أنا يازوجى العزيز فسأحرص على أن الحق بك لأطمئن على نجاتك.. والنصر لك!

وصفقت الملكة، فبرز أمامها مارد من الجن لم يره من قبل.. أصدرت له أوامرها بنقل الملك إلى قصره الأرضى..

ولم يكد الملك يطرف بعينه، حتى وجد نفسه جالسًا فوق عرشه فى عاصمة الصين!.

فى ذلك الوقت كان الوزير مؤذن يحكم الصين باسم الملك الذى غاب فجأة قبل ذلك بسنتين، فلما أطل الوزير أمامه ووجد الملك جالسًا على العرش فتح عينيه كأنما رأى الشيطان.. ولكنه انتبه إلى نفسه بعد لحظات، فجثا أمام العرش، ثم مد ذراعيه يحتضن الملك الذى كان يملؤه العجب من ولاء وزيره ووفائه.. إذ حرس العرش وحفظه شاغرًا برغم طول ما مضى من أعوام وشهور.

وراح الملك ووزيره فى خلال فرحتهما باللقاء يتحدثان عما مر بهما من أحداث، وفجأة فتح الباب، ودخل أحد القادة يعلن اقتراب جيوش المغول.

ونهض الملك ووزيره فألقيا عن كاهلهما حديث الماضى ليواجها الحاضر فى ثبات.

وتجمعت جيوش الصين صاخبة ماردة، وانطلقت وعلى رأسها الملك ووزيره لملاقاة المغول فى أرض رحبة، بالقرب من الحدود.. وعلى حين كان القائد «ولى» يعد قوافل المؤن من ثمار وخبز وطعام وفاكهة وزقاق من خمر يجمعها ويرسلها مددا للجيش الذى وقف فى انتظار وصول المغول.

غير أن قوافل المؤن لم تكن تبلغ مقصدها أبدًا.. فخلال الطريق، وقبل أن تصل إلى مكان تجمع الجيوش.. كان ثمة جيوش أخرى من الجن وعلى رأسها شهرستانى تهاجم القوافل فتفرقها وتلقى المؤن على الأرض فتفسدها، وتبقر قرب الماء والخمر فتهرقها.. وتصير المؤن كلها بددًا..!

وتكررت الهجمات على قوافل المؤن حتى كاد القائد «ولى» أن يجن، وحينئذ برزت له شهرستانى فى زيها الإنسى وصرخت فيه:

- إذا كنت غاضبًا مما أفعل فأذهب إلى ملكك وقل له إن التى تعثو فى المؤن فسادًا وإتلافًا ليست سوى زوجته..!!

وانطلق «ولى» فى غضبته يخبر الملك.. فأخذت به ثورة غارمة جبارة لم يطق معها صبرًا على تصرفات الملكة التى لم يعد يهمها أن يقضى جيشه كله جوعًا وعطشًا.. ولم يكن الغضب المجنون قد زال عنه حين ظهرت له زوجته.. فلم يدع لها فرصة الكلام.. بل انطلق فى وجهها صارخًا متجهمًا:

- لم أعد أطيق ما تفعلينه ياسيدتى.. فدون ذلك خرق المواثيق وفصم الوعوَد.. أما كفاك أن أحرقت ولدى وألقيت بابنتى فى أفواه الكلاب.. فتذهبين إلى أبعد من ذلك وتسعين إلى قتل جيش بأسره بتحطيم مؤنه من طعام وشراب..؟! أما كفاك ياسيدتى أنك تريدين قتلى أنا نفسى فما أستطيع أن أقف حيًا وسط جيش يموت، نواجه جيشًا بأسره من المغول لا يبيدون.. أهكذا تكافئيننى على وفائى وتضحيتى أيتها الخائنة الجحود..!

وكانت الملكة فى خلال ذلك قد فتحت عينيها فى ذهول وقد علتها صفوة كالموت، ولم يكد الملك ينتهى من كلامه حتى قالت الملكة تحدثه فى صوت مفزع رهيب أجوف..!

- واأسفا أيها المسكين..! لقد كان يجدر بك أن تلزم الصمت فتحفظ الوعد الذى قطعته من قبل.. ولكن.. واحسرتاه.. لقد وقع، ما لم أكن أريد أن يقع قط..! وجدت ما لم يكن ثمة حيلة فى اتقائه، فلتسمع أيها الإنسى المسكين.. إن هذه النار التى ألقيت بولدنا إليها لم تكن سوى «سمدير» ربة الشتاء اللبقة الحاذقة، عهدت إليها بتثقيف الأمير.. وهذه الكلبة التى ظننتنى ألقى بابنتى فى فمها.. لم تكن سوى حورية المملكة التى تتولى تلقين الأميرات أصول الآداب والفنون.. ولقد أتممت كل منهما ما عهد به إليهما.. وإعادتا الولدين كخير ما يكون الأمراء..!

وصفقت الملكة فإذا وصيفتان من الجور تدخلان وبين أيديهما الأمير والأميرة ينطلق من محياهما نور وضىء.. وجثا الملك على ركبتيه يعانقهما ويحتضنهما.. على حين استمرت شهرستانى تقول:

ـ أما المؤن التى تظننى أتلفتها، فلم تكن سوى مؤن مسمومة كانت كفيلة بالقضاء على كل جيشك وأنت معه.. فقد دس فيها قائدك «ولى» السم الناقع بعد أن تآمر مع ملك المغول وأخذ رشوة مائة ألف دينار ذهبًا.. وإذا لم تكن تصدقنى فلتحمل القائد على تناول شىء من طعام المؤن ولتر ما يحل به..!

وأمر الملك بإحضار بعض المؤن وختم القائد لايزال عليها.. فقدمها إليه وأمره أن يطعم منها.. غير أن القائد رفض ونحاها عن فمه.. واستل الملك سيفه وهو يأمره بأن يأكل وإلا فصل رأسه عن جسده.. فاضطر القائد للاستسلام.. ووضع فى فمه بعض المؤن، فلم تكد تبلغ جوفه حتى سقط ميتًا فى الحال..!

وبينما كان الملك يزداد اقتناعًا، كانت هى لاتزال تستأنف الحديث الذى بدأته:

ـ لعلك اقتنعت الآن أن الجن لا يقدمون على شىء لا موجب له! أجاب الملك وهو يعتذر فى حرارة وألم:

ـ لكم ظلمتك ياحبيبة.. وما كان أفسدها ظنونًا وأسوأها تهمًا تلك التى ألقيتها على رأسك.. ولكن.. ما الذى تفعل الآن بذلك الجيش الذى يقف مضطرًا لمواجهة معركة رهيبة بغير زاد أو ماء..؟!

أجابت شهرستانى:

لا تخشَ شيئًا ياملك الصين.. فما عاد جيشك بحاجة إلى مئونة على حين أن المعركة ستدور بعد ساعات.. وتنتهى بتمزيق أعدائك وتحطيمهم، وعودتك إلى عاصمة ملكك فائزًا منصورًا..!

وكان هذا هو ما حدث حقًا.. فما كاد الليل ينتصف حتى انقض المغول على جيوش الصين، وهنا تقدمت شهرستانى على رأس عسكرها من الجن، وانقضت على جيوش المغول تثخنهم قتلا وتكتسحهم كإعصار.

وفوجئ الملك المغير بجيوشه تتمزق وتنهار.. ولم يجد أمامه سوى أن ينجو وحده.. فطار بفرسه هاربًا من الميدان.. بينما كانت جيوش الصين وقد أسكرها

النصر تستولى على كل ما تركه المغول من زاد وعتاد.. وذهب وفير..!

وبينما رضوان شاد يقف على باب خيمته يستقبل زوجته وقائدة جيوش الجن.. إذ بها تقف منه غير بعيد.. ثم تقول له وفى نبراتها حزن عميق:

- الآن ياملك الصين.. وقد وضعت الحرب أوزارها وبلغت النصر.. فلتعش مطمئنًا فى قصرك، على حين أنطلق أنا عائدة إلى مملكتى.. فما عاد بيننا لقاء قط..إذ ذهب كل شىء مع تسرعك الذى أوقعك فى المحظور..!!

وجحظت عينا رضوان شاد وهو يصرخ:

- كلا يامليكتى.. لا يمكن أن يحدث هذا.. فبحق السماء اغفرى لى زلتى وجهلى.. واقبلى التوبة التى أقدمها وأنا تحت أقدامك الحبيبة..

وهزت شهرستانى رأسها وهى تستعد للابتعاد وتقول:

- لم يعد بد من الفراق ياملك الصين.. فهكذا تقضى شريعتنا.. ولو كان العفو بيدى أنا وحدى لفعلت.. والآن وداعًا أيها الملك.. وعبثا تحاول بعد أن ترانى أو ترى ولديك.. فلن تقع علينا عيناك قط بعد اليوم..!

واختفت شهرستانى وولداها.. وسقط رضوان شاد على الأرض وقد فقد الوعى..!

مضت الأيام ثقيلة سوداء على الملك.. وما عاد يطيق لقاء أحد قط..

وازداد به الضيق حتى قرر آخر الأمر أن يدع الحكم لوزيره ينوب عنه فى تصريف كل الأمور.. وانطلق وحده معتزلا الناس فى جناحه، وقد أغلق من ورائه الباب، لا يجرؤ أحد على فتحه أو الاقتراب منه سوى الوزير وحده.. يأتيه بطعامه وشرابه، ويتلطف فى إدخال العزاء إلى نفسه التى ما عاد ينفع معها سلوى أو عزاء.. فالحزن يقتلها والألم يهوى بها والموت يزداد بفعلهما اقترابًا من الملك المسكين.

وانقضت أعوام عشرة كان الملك خلالها قد بات على شفا القبر.. وبينما هو جالس ذات يوم يبكى ويحسب الزمن الذى انقضى وهو بعيد عن زوجته وولديه..

إذ بشهرستانى نفسها تظهر أمامه.. وعلى وجهها فرح كبير.. وأحاطته بذراعيها وهى تقول:

- ها قد عدت إليك أيها الحبيب.. لأضع حدًا لآلامك وأحزانك وأعيد إليك نضرة الحياة.. لقد انقضت الأعوام العشرة التى تقتضينا خلالها شريعتنا أن نبتعد عن الحانث فى يمينه.. فلا نراه إلا بعد تلك المدة إذا ظل مقيمًا على العهد وافيًا تائبًا.. والحق أننى لم أكن أتصور يوم ودعتك أننى سأراك.. فما تخيلت أن بشريًا يستطيع تحمل تلك المدة الطويلة مخلصًا صابرًا ثابتًا على الوفاء.. وكنت مؤمنة بأنك ستتسانى وتضع سواى على عرش قلبك وعرش وطنك، ولكن ذلك الوفاء الذى أبديته وأنت تقضى السنوات العشر تبكى وتنتحب، كان فيها الكفاية لإثبات حقى فى العودة إليك.. أيها الحبيب.. بل وحقى أيضا فى إحضار ولديك..!

وفى نفس اللحظة، انطلق من خلفها صبيان ألقيا بنفسيهما فى أحضان والدهما الذى كاد الفرح يقضى عليه.. والتقى الأربعة بعد ذلك فى عناق واحد طال حتى كاد اليوم أن ينقضى كله.

وعندما استفاق الجميع.. انطلقوا إلى حيث الشعب المتعطش إلى فرحة الملك.. فأقيمت الأفراح فى كل أنحاء الصين.. وعاد رضوان شاد يجلس على عرشه.. وإلى جواره شهرستانى.

ولم يكن أحد يدرى بعد، أن ابنتهما بلقيس ستجلس على عرش شهرستانى بعد أعوام.. لتصبح بعد ذلك.. زوج سليمان الحكيم..

■ ■ ■

رستم وملك الجن

«كان الفرس يتغنون ببطولة رستم.. بطل الأبطال.. حتى لقد سموا قوس قزح.. بقوس رستم.. وكانوا يبالغون فى بطولته حتى نسبوا إليه الخوارق، ولم يكتفوا بانتصاراته الرائعة على جيوش الإنس.. بل نسبوا إليه حروبا أخرى ينتصر فيها على الجن والشياطين والسحرة أيضًا.

أما مسرح هذه الأسطورة، فبلاد مازندران أى طبرستان، والتى يسمونها أرض الجن الأبيض.. لأنهم كانوا بيض الوجوه.. واستطاعوا ذات يوم القضاء على جيش مصقلة أحد قواد معاوية إذا فاجأوا من فوق الجبال بوابل من الحجارة والصخور، حتى هلك أكثره.. ولعل هذا هو سبب تسميتهم بالجن.. ولعل فى طبيعة أرضهم ومضايقها ما يفسر مغامرات هذه الأسطورة».

كان «قابوس» ملك فارس، جالسًا على سرير ملكه حين وقف ببابه مغن حاذق من بلاد مازندران، وكان الملك مولعًا بالشعر والغناء، فأذن للغريب بالدخول عليه وتقديم بعض ألحانه.

وأخرج الغريب عوده، وحس أوتاره، ثم انطلق فى صوت كأنه الطيب، يصف جنان الخلد التى تضمها مازندران، ويحكى أقاصيص الهوى والعشق التى تعيش فيها عذاريها الرائعات، وطرب الملك للغناء، بقدر ما اشتاق إلى تلك البلاد التى لم يذهب إليها من جيوش أجداده جيش قط، وفى غمرة النشوة بالطرب والشوق، قرر «قابوس» أن يستولى على بلاد الجنة.. وأن يجعل له عاصمة هناك..!

وأخذت الرعدة كل من بالمجلس.. فما من أحد إلا ويعرف أن مازندران مأوى الشياطين وموطن السحرة، يعيشون فيها جنبًا لجنب مع السباع والنمور

والدببة والذئاب، ولكن أحداً من رجال القصر لم يجرؤ على رد الملك عما ارتآه.. حتى جؤذر قائد الجيش امتثل للأمر، ولم يستطع إلا أن يأمر كل قواته بالاستعداد للخروج للمعركة الجديدة.. وعلى رأسها قابوس نفسه.. ملك الفرس.

ونزلت جيوش «قابوس» على حدود مازندران، وانقض رجال الطليعة على المدينة التى لم تكن قد استعدت بعد، فلم تدر إلا وحشود هائلة تخترق أبوابها، وسيوف طويلة تقتلع رءوس الصغار قبل الكبار.. ومشاعل من نار تحرق وتدمر، ولا تبقى من بيوتها ومغانيها شيئًا قط.

وبلغ أمر الهجوم آذان ملك البلاد، فألمَّ به الحزن، ثم رفع رأسه ينادى أحد جنود الجن عرف بالمكر والدهاء، وأمره أن ينطلق إلى سبيذديو ملك الجن يخبره بما صنع قابوس..!

وانتفض ملك الجن حين سمع النبأ، ولم يكد الليل يهبط حتى كان قد انقض فى جنوده على معسكر «قابوس» فأطبق عليه أطباق السحاب، وأمطر عليه من السماء حجارة ونصالا.. ثم أرسل جحافل الظلمة تحوطه من كل جانب، وتجعل الجيوش فى أعماق ليل دائم طويل.

وأطل رجال الفرس، فإذا بهم غارقون فى بحر أسود كأنه القار، لا يرى أحد من حوله شيئًا، ولا يبصر إذا أراد حتى كفه، وعندما اطمأن ملك الجن سبيذديو إلى أن أعداءه قد حبستهم الظلمة، ولم يعودوا يرون قمرًا ولا شمسًا قط.. وكل بهم اثنى عشر ألفًا من الشياطين تحوطهم وتمنعهم.. وأمرها ألا تسمح لأحد بالخروج سوى واحد فقط.. ليذهب إلى أهل بلده يقص عليهم الأمر ليعتبروا.. وليعرفوا أن الهجوم على إقليم الجن والشياطين ليس من ورائه سوى الخسران..!

واستطاع رسول «قابوس» أن ينفذ فعلا من الحصار.. ولكنه لم يذهب إلى بلاده.. بل انطلق إلى الملك دستان أبورستم يستغيث به.. ويطلب النجدة منه والغوث على جيوش ملك الجن..!

وحزن دستان لما ألم بصديقه قابوس، وأقبل على ولده رستم البهلوان وقال له:

- إلى النجدة أيها الفارس الذى إن حارب البحار صارت دماءً.. وإن كافح الجبال عادت فضاءً، جرد سيفك وخذ فرسك وانهض إلى مازندران، تدق عنق ملكها وخلص الأرض من شرور جنها، فإذا بدأت السير فلا تأخذ الطريق الطويل السهل بل خذ أقصر الطرق لتكون أسرع إلى النجدة.. فهو لا يزيد على مسيرة أربعة عشر يومًا.. على أن تحذر خلاله ما يحتويه من شياطين وسباع.. وسأنهض أنا لأسجد لرب السموات أن يحميك ويحرسك ويردك إلى أبيك مرفوع الرأس منصورا..!

ونهض رستم فلبس سلاحه وركب فرسه «الرخش» فكأنه فيل على فرس.. وانطلق فى الطريق الوعر الشاق ليكون أقرب إلى نجدة من استنجد.. وإغاثة من استغاث.

وراح رستم يخترق الصحارى الواسعة التى تلتهب أرضها بالنيران، ولا من أنيس له غير سيفه وفرسه، وظل يمضى مع النهار ومع الليل حتى انقضى يومان لم يأكل خلالهما شيئًا من طعام قط، فلما انتبه إلى نفسه وأحس الجوع، أطل حوله يبحث عن صيد، فإذا حمار وحشى يروح هنا وهناك فانقض عليه فى لحظة وصرعه.. ثم شواه على نار أوقدها وأتى عليه جميعه.. وعندما أحس رستم بالشبع، أوى إلى ظل قصب هناك.. وترك فرسه «الرخش» يرعى فى أجمة بين يديه.. واستسلم هو لنوم عميق.

ولم يكد رستم ينام حتى خرج من الغاب أسد راح يقترب فى بطء من البطل الراقد كركن جبل، وانتبه «الرخس» فوثب عليه، وضربه بقائمتيه ففلق رأسه ومزق جلده، وتركه غارقًا فى لجة من الدم، وعندما استيقظ رستم ورأى صنيع فرسه، أقبل عليه ومسح غرته بيده وقال له: لو انتبهت لكفيتك شر القتال.

وعاد رستم يسير فى الطريق الموحش من جديد، وطالت مرحلة السير، والهجير يشتد حتى بلغ به العطش حد الهلاك، وكاد رستم أن يقع على الأرض حين لاح له غزال أعاد إليه نشاطه، فحث فرسه وأسرع خلفه.. فإذا الغزال يقف عند عين ماء يشرب منها ثم يستأنف عدوه.

وإذا رأى رستم الماء توقف عنده، وشرب وسقى فرسه.. ولم يتبع الغزال إذ حمد له أن هداه إلى الماء.. ثم عاد يستأنف سيره حتى جاع، فاصطاد حمارًا وحشيًا شواه وأكله.. ثم استلقى لينام..

وبينما هو نائم خرج عليه تنين هائل تحرق أنفاسه ما حوله من الحشائش، ولم يكد الفرس يراه حتى أسرع إلى رستم فأيقظه بصهيلة، وضرب حوافره فى الأرض، وإذا رأى رستم التنين حمل سيفه وهاجمه، ونشبت بينهما معركة طويلة دامية كادت تنتهى بهزيمة البطل، لولا أن نهض الفرس لمساعدة سيده، وحمل على التنين وقضم كتفه بأسنانه فقطعه، وانقلب التنين على ظهره فألقمه رستم السيف فشقه، ثم رجع إلى العين فاغتسل بمائها، ومضى لسبيله من جديد.

استمر رستم فى سيره يخترق الفيافى والقفار حتى بلغ لأول مرة أرضًا خصبة كثيرة الخيرات، فأرسل فرسه يرعى، واتكأ ليستريح، وإذ هو كذلك جاءه ناطور تلك الأرض وزعق طالبًا منه إبعاد فرسه عن أكل الزرع، وضربه على رجله بعصا كانت معه، وثار غضب رستم، وهجم عليه وجذبه من أذنيه فاقتلعهما، وحمل الناطور أذنيه الداميتين، وعدا هاربًا إلى «أولاذ» ملك الناحية، فانطلق هذا ومعه حرسه إلى حيث كان رستم الذى ركب فرسه وحمل عليهم ووقع فيهم كما يقع الأسد الهائج بين قطيع من الغنم، وتساقطت رءوس أصحاب أولاذ الذى انطلق يلتمس الهرب.. غير أن رستم عدا خلفه وقبض عليه.. وشدد وثاقه وألقى به مقيدًا بين قدميه.

وقال رستم يخاطب أولاذ:

ـ الآن أطلب منك طلبًا وأعطيك عهدًا، فإن أنت دللتنى على ملك الجن سبيذديو وأوصلتنى إلى المكان الذى حبس فيه الملك قابوس.. جعلتك ملكًا على عرش مازندران.

وقبل أولاذ الاتفاق.. ففك رستم قيده، وجعله يسير بين يديه ليدله أولا على مكان قابوس.. وبينما هما فى الطريق إذ شهد رستم عن بعد نيرانا موقدة

وشموعًا مشتعلة، سأل عنها أولاذ فأجابه:

- ذلك ياسيدى باب مدينة مازندران يحرسه قواد ملك الجن وجنودهم.. وهم لا ينامون ثلثى الليل.

فانتظر رستم حتى جاء الثلث الأخير الذى يستسلم فيه الجن للنوم فحمل عليهم، وخرج له قائد الجن «ارزنك» واشتبك معه فى صراع هائل عنيف.. انتهى عندما أنشب رستم براثنه فى عنقه، واقتلع رأسه فحملها على حد السيف، وشهد جند الجن ما صنع رستم بقائدهم ففروا هاربين.. وعاد هو يسير مع دليله أولاذ إلى حيث يلتقى بقابوس.

ووجد رستم الملك قابوس غارقًا فى الظلمة، قد عمى بصره وأحيط به مع كل جيشه، واستقبله «قابوس» والجيش فى فرح رائع، ثم طلب منه أن يسرع بمفاجأة سبيذديو ملك الجن قبل أن يبلغه نبأ مقتل قائده، وقبل أن يعلم بمجيئه.. وقال له: إن العمى الذى أصابه لا يشفى إلا إذا اكتحلت عيناه بدم كبد ملك الجن.

ومضى رستم وأمامه دليله الملك أولاذ، وراحا يسيران مخترقين جبالا سبعة هى التى تفصلهما عن المغارة التى يقيم فيها ملك الجن، وخلال الطريق أخبر أولاذ رستم أن الجن ينامون إذا حميت الشمس.. ويكون ذلك الوقت هو خير الأوقات لمهاجمتهم.

وانتظر رستم حتى ارتفعت الشمس، وإذ جاء الضحى امتطى فرسه وهاجم الشياطين وراح يعمل فيهم سيفه يمينًا ويسارًا حتى بلغ باب المغارة فوجدها غارقة فى الظلمات، ولم يعبأ رستم بالظلام بل اقتحم المغارة بفرسه يطلب سرير ملك الجن، وعندما بلغه وجد سبيذديو واقفًا ووجهه أسود كالليل، وعيناه يندلع منهما لهيب كالجحيم.. وشعره الأبيض يتشعب فوق رأسه، ولما رأى ملك الجن رستم وثب عليه فى حنق.. وانتبه رستم، ورفع سيفه ثم انقض به على ساق سبيذديو فقطعها.. والتحم الاثنان فى قتال مر عنيف.. كان الدم ينزف خلاله

من جرح الجنى غزيرًا يضع حدًا لمقاومته.. ويسلمه لهزيمة سريعة قاسية.

وكان لابد لرستم أن ينتصر بعد أن بدأ سبيذديو ينهار ويتساقط، وهنا رماه رستم فى عنف على الأرض فسقط.. وانقض عليه بسيفه فقضى عليه، وعندما اطمأن إلى موته انحنى عليه وقد استل خنجره وشق به جنبه واستخرج كبده.. ثم غادر المغارة فى زهو، وانطلق مع أولاذ إلى حيث كان «قابوس» لايزال ينتظر فبشره بمقتل عدوه، وقدم له الكبد الذى طلبه.. وشكره الملك وأثنى عليه، ثم اكتحل بقطرات من دم كبد الجنى فعاد إليه بصره.. ورأى من حوله كل شىء.

واحتفل ملك فارس وقواده ومعهم رستم وأولاذ بالنصر الكبير سبعة أيام كاملة، وعندما جاء اليوم الثامن انطلقوا شاهرين سيوفهم فانتشروا فى مدينة مازندران.. وأعملوا فيها الضرب والقتل بعد أن فتحوها.. ثم قرروا أن يرسلوا إلى ملكها يطلبون منه التسليم، أو يقتحموا كل أملاكه وينزلوا به أمر القضاء..!

ونهض رستم طالبا أن يكون هو نفسه رسول «قابوس» إلى ملك مازندران، وانطلق البطل على «الرخش» حتى بلغ مكان الملك الذى أمر قواد الجن وخير الفرسان وأبرع الشجعان ليكونوا فى استقبال رستم.. وليطلعوه على مدى قوتهم.

وشهد رستم من بعيد مستقبليه، فمال على شجرة قريبة ورفعها كما ترفع عصا الخيزران، واقترب بها منهم ثم رماها عليهم، فاضطرب شملهم وكاد يقع أكثرهم بين قتيل وجريح.

واقترب أحد أبطالهم من بطل الفرس وقبض على يده.. ولكن هذا ما اهتم بالضغط العنيف الذى راح الفارس يضغطه على يده، فلما انتهى مد هو يده إليه وعصر كفه حتى تغير لونه وشحب وجهه.. وبدأ يصرخ.

وسمع الملك بما كان، فدعا إليه جنيًا يسمى كلاهور هو أقوى من فى معسكره، فأمره باستقبال الرسول وإظهار قوته أمامه، ومد كلاهور يده إلى يد رستم فعصرها حتى صارت زرقاء كالسماء.. ولم يبد على وجه رستم شىء من الألم، وعندما جاء دوره ليحيى كلاهور، عصر كفه حتى تساقطت أظفاره..

وصرخ الجنى وانطلق إلى الملك يغلى ويرتعد ويقول له: السلم خير لك من الحرب يامولاى.. فلا قدرة لنا على مقاومة مثل هذا الوحش..!

وفى تلك اللحظة دخل رستم، فأجلسه الملك فى مكان يليق به، وطلب أن يبلغه الرسالة التى يحملها.

وألقى رستم بما لديه.. فى صوت جهورى عنيف.. ولم يكد ينتهى حتى ثار غضب الملك وقال له:

- قل لقابوس: إن كنت ملك فارس، فأنا ملك مازندران المستقر على عرشها الخالد أبدًا.. فارجع إلى مملكتك ولا تحدث نفسك بالاستيلاء على عرش الملوك.. فإنى إذا زحفت فى جيوشى نحوك لم تعرف رأسك من ذنبك.. وإنى إذا واجهتك فى مأزق الحرب حسمت موقفك بسيفى الصارم الذى لا يخيب!.

وغضب رستم من رد الملك، وانطلق إلى قابوس فأخبره بما حدث، وطلب منه أن يتأهب ويتقدم للقتال.

وكان ملك مازندران قد استعد منذ خرج رستم من حضرته، فأمر بضرب العسكر فى ظاهر المدينة، وانطلق فى جيش جرار لا حصر له آخذًا طريقه لاستقبال جيوش رستم وقابوس والتقى الجيشان، وتقدم فارس جنى عملاق من أصحاب ملك مازندران يسمى جويا يسأل هل من من مبارز؟! ولم يجبه أحد من أصحاب قابوس إذ سيطر عليهم الرعب من منظر الجنى، غير أن رستم استأذن ملكه فى مبارزة الجنى.

وإذ أذن الملك نهض رستم وشرع رمحه وانطلق لمبارزة فارس الجن.

وبدأت المبارزة عنيفة راح كل منهما يدور حول نفسه خلالها مرات.. وكاد رستم يفقد النصر، لولا أن تمكن من الدوران فى سرعة خلف الجنى، ووضع سنان رمحه بين كتفيه.. ثم رفعه عليه كالطير على السفود.. وألقى به وسط جيشه صريعًا مضرجًا بالدم.

وتعـجب أسـود مـازندران وشـيـاطينهـا.. ومـلأت الرعـدة قلوبهم.. إلا أنهم اضطروا للامتثال لأوامر الملك حين أمرهم بالهجوم على رستم وجيوشه..

وارتفـعت من الجـانبـين أصـوات الطبـول.. ودارت المعـركـة وارتجـفت الأرض وأظلمت الآفاق.. وراحت الفرسان تتصاول والجيوش تتلاحق.. والنصر يتأرجح بين هذا وذاك.

ومر أسبوع كامل والقتال لا يريد أن ينتهى، عندئذ برز رستم يطلب مبارزة ملك مازندران نفسه، وانتفض الملك غاضبًا، وانطلق من بين رجاله وهو يطلق صرخة غضب عنيف.. وانقض على بطل الأبطال.

وكان الملك قويًا ماردًا.. راح يهاجم رستم فى عنف كاد يكتسب معه النصر.. لولا أن رستم تحين فرصة طعن خلالها الملك فى خاصرته طعنة ألقت به على الأرض من فوق ظهر فرسه.

وعندما سقط الملك سحر نفسه فى سرعة ليبدو أمام الناس صخرة عظيمة لا يقدر على زحزحتها أحد، ولكن رستم وقد أدرك ما فعل الملك، تناول الصخرة العظيمة ورفعها فوق رأسه، وسار بها والناس من حوله يعجبون، حتى وصل بها خيمة قابوس.

وطرح رستم الصخرة العظيمة أمام صاحبه.. وخاطب الملك الساحر قائلاً:

- إذا لم تخرج عن شكلك هذا حطمتك بالمعاول والفئوس.

وارتجفت الصخرة لتعود من جديد إلى صورتها الأولى.. وانحنى الملك إذ عاد إلى صورته وراح يستجدى عفو قابوس.. إلا أن هذا أمر الجلاد بقطع رأسه.. ورفعه على سنان الرمح ليريه للناس!

وانطلقت جيوش قابوس تجمع الغنائم والأسلاب، وتحصى الجواهر والذخائر، علي حين دعا رستم أولاد ليسمع من بين شفتى قابوس أمر تتويجه ملكًا على مازندران تنفيذًا للوعد الذى قطعه على نفسه من قبل.

وانطلق رستم مع الملك قابوس عائدين إلى الوطن فى مواكب رائعة لم يعرف لها مثيل قط..

ومضت الأيام تجرى..

وذات يوم.. جاء إلى الملك من يقول له: إن حمارًا وحشيًا كأنه الأسد قد استقر فى الصحراء القريبة من مرابط الخيل، وراح يهاجم خيول الملك ويقضى عليها واحدًا فى أثر الآخر، وأدرك الملك أن ذلك الحيوان لا يمكن أن يكون حمارًا وحشيًا.. فطلب من رستم أن ينطلق ليعرف الأمر.. ويقضى على الوحش أينما كان..

وركب رستم فرسه «الرخش»، وخرج إلى الصحراء، فمكث أيامًا ثلاثة يدور فى مروجها ومراعيها.. ولكن الوحش لم يبد شيئًا قط..

وجاء يوم رابع.. لم يكد ينقضى نصفه حتى ظهر الوحش وهو يقترب من مرابط الخيل.. وخرج له رستم من مخبئه فلم يكد يراه حتى راح يجرى فى سرعة الريح هاربًا.. وأسرع رستم خلفه، ورفع رمحه ليطلقه عليه.. وفى تلك اللحظة اختفى الوحش كأنما قد ابتلعته الأرض، وهنا اقتنع رستم أنه لم يكن حمارًا وحشيًا قط.. ولكنه «أكوان» الجنى.. جاء لينتقم لمن مات من الجن فى بطاح مازندران..!

وقرر رستم ألا يترك ذلك المكان.. وأن يظل مقيمًا فيه حتى يضطر الجنى للظهور من جديد ولم يمض يوم واحد حتى كان أكوان الجنى قد خرج من المكان نفسه الذى اختفى فيه، وإذ شهده رستم انطلق خلفه فى سرعة هائلة.. وبدأ سباق عنيف لم تشهد مثله الأرض.. استمر أيامًا ثلاثة كاملة.

وعندما انتهت الأيام الثلاثة كان الجهد قد أخذ برستم، وبدأ النوم يغالبه.

وانحنى رستم على روضة معشبة، فدخلها ونزل عن فرسه، وخلع لجامه وحط سرجه وأطلقه يرعى.. ثم فرش لنفسه اللبد على حافة ماء العين واتكأ يستريح، فأخذه النوم.

وفى تلك اللحظة ظهر الجنى واقترب منه، فلما رآه نائمًا فى سلاحه لم يجرؤ على الاقتراب منه.. ولكن الفرصة كانت سانحة نادرة.. وحتى لا يضيع الفرصة حفر الأرض من حول رستم النائم، ورفع قطعة الأرض كاملة فى الهواء، ثم راح يجرى به هنا وهناك.. ويفكر فى الطريقة التى ينتقم بها منه..!

واستيقظ رستم فوجد نفسه على تلك الحال، وندم إذ نسى نفسه فنام، وراح يفكر فى طريقة الخلاص من براثن الجنى.

وأحس الجنى بحركته، وعرف أنه استيقظ، فقال له يخاطبه:

ـ أيهما أحب إليك.. أن أرميك بين الجبال والصحارى.. أم أن أقذف بك فى أعماق المحيط.

وفكر رستم قبل أن يجيب.. وسمع صوتًا فى أعماقه يقول له:

ـ إذ هو ألقاك فى الجبال والتلال الوعرة تطايرت أوصالك وتحطمت بددًا فوق الصخور.. والماء فى هذه الحالة هو خير الشرين.. ولكن احذر دهاء الجنى.. فإنك إن قلت له اقذفنى فى البحر خالفك ولم يرمك إلا على الجبال والوهاد.. فهو سيعمل ضد رغبتك.. فاطلب منه عكس ما تريد..!

وقال رستم يخاطب أكوان الجنى:

ـ اطرحنى على الجبال وفى الغاب أحطم قلوب السباع وأشهدها على قوتى وجبروتى..

ضحك أكوان فى سخرية وهو يقول:

ـ أمازلت تدعى الشجاعة والجبروت..؟! إذن لأرمينك فى مكان لا ترى فيه حيًا ولا ميتًا..!

وأسرع أكوان الجنى إلى البحر فألقى برستم فيه، ثم عاد وهو ينفض يديه وكأنه قد تخلص من حمل مخيف.

ولم يكد رستم يسقط فى الماء.. حتى أحاطت به التماسيح وسباع البحر

تريد قتله.. فاستل بيمينه السيف، وراح يضرب هنا وهناك على حين أن يده اليسرى تسبح لتبلغ به الشاطئ.

وخرج رستم من الماء، فخلع سلاحه، واغتسل، ثم وضع السلاح وعاد إلى العين التى سبق أن نام إلى جوارها أول مرة.. وهناك قرر ألا يبرح المكان حتى يظهر الجنى من جديد ليلقنه درسًا لا ينساه أبدًا..

وفجأة ظهر الجنى وقال له:

- ألا تزال بك رغبة فى القتال والنزال..؟! أما سئمت تلك الهزائم التى تتوالى عليك.. وتريد أن تعود من جديد لتجلب لنفسك هزائم أخرى..؟!

ولم يترك له رستم الفرصة ليتم حديثه.. وفى لحظة.. انقض رستم برمحه فى قوة فاخترق قلب الجنى قبل أن ينتبه إلى نفسه.. وإذا به ينهار وينحط على الأرض وكأنه الجبل.. ومد رستم يده بالسيف فاجتزَّ عنقه.. وحمل رأسه على سنان الرمح ليدور به فى كل مكان من عاصمة قابوس..

واستمر ركب الحياة يسير..!

■ ■ ■

المصادر والمراجع

١- مجدى كامل: أشهر الأساطير فى التاريخ، دار الكتاب العربى، دمشق - القاهرة، ٢٠٠٣.

٢- محمد خليفة حسن: تاريخ الأديان - دراسة وصفية مقارنة، بدون ناشر، ١٩٩٦.

٣- أحمد الشنتناوى: الحكماء الثلاثة، اقرأ، دار المعارف بمصر، ١٩٥٣.

٤ نورى إسماعيل: الديانة الزرادشتية - مزديسنا، دار علاء الدين، دمشق - سورية، ٢٠٠٣.

٥- إحسان يارشاطر: أساطير إيرانية، ترجمة: محمد صادق نشأت، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٥.

٦- قصة الحضارة الفارسية، ترجمة: أمين الشواربى، مكتبة الخانجى، ١٩٤٧.

٧- و. هورن: الأدب الفارسى القديم، ترجمة: حسين مجيب المصرى، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

٨- سليمان مظهر: أساطير من الشرق، الألف كتاب الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.

٩- صمويل نوح كريمر: أساطير العالم القديم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤.

١٠- شوقى ضيف: عجائب وأساطير، دار الهلال، ٢٠٠٤.

١١- إبراهيم سراج: موسوعة الأساطير والخرافات، العالمية للكتب والنشر، ٢٠٠٨.

١٢- كارم محمود عزيز: أساطير التوراة الكبرى وتراث الشرق الأدنى القديم، مكتبة النافذة، ٢٠٠٦م.

١٣- الشاهنامة للفردوسي.

١٤- ول ديورانت: قصة الحضارة.

- مواقع عربية وأجنبية على شبكة الإنترنت الدولية.

فهرس المحتويات

الأساطير الفارسية

مزديسنا - الأبطال الأسطوريون - برج الصمت -
الهاوما - الأدب الأخلاقى فى الزرادشتية - الماجا
الديو الشياطين - سفر الروح - زال والعنقاء -
الملك رضوان والأميرة شهر ستانى - رستم والجن

يعد الإيرانيون من أكثر الشعوب التى تمتلك الأساطير، فقد هاجر الآريون من موطنهم الأصلى إلى إيران، ومعهم الكثير من قصصهم ورواياتهم وأساطيرهم عن الأجداد. تراكمت القصص والأساطير الإيرانية وتزايدت ومرت عليها القرون إلى أن تكاملت وانتظمت وصارت معدة للتدوين. وعمل الإيرانيون على إحياء تراثهم وتاريخهم القديم، فكتبت كتب الروايات والملاحم والأساطير المعروفة بالشاهنامات، أى كتب الملوك، والتى تتحدث عن تاريخ ملوكهم الأسطوريين. وهذه بعض الأساطير التى انتشرت بين الفرس، وجاءت فى كتبهم، ونقلها عنهم المؤرخون والكتاب المسلمون وغيرهم، أقدمها للقارئ العربى، وأرجو أن تنال إعجابه.

W.Salama 010 15 17 873





كنوز للنشر والتوزيع